٨

الإمام الكاظم عليه السلام

ضوءٌ مقهورُ الشعاع

تأليف
سليمان كتاني

الشؤون الفكرية والثقافية
في
العتبة الكاظمية المقدسة

الإمام الكاظم عليه السلام

ضوءٌ مقهورُ الشعاع

يرجى الإشارة إلى المصدر عند النقل أو الاقتباس

هوية الكتاب

اسم الكتاب: الإمام الكاظم عليه السلام ضوء مقهور الشعاع

المؤلف: سليمان كتّاني

الناشر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة - الشؤون الفكرية والثقافية

موقع العتبة: www.aljawadain.org للمراسلة: fikriya@ aljawadain.org

التاريخ: ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

الإمام الكاظم عليه السلام

ضوءٌ مقهورُ الشّعاع

تأليف
سُليمان كتّاني

الشؤون الفكريّة والثّقافيّة
في
العتبة الكاظميّة المقدّسة

كلمة أولى

الإمام الكاظم عليه السلام..

أسير.. أسر بقلبه الرحيم.. الكثير من أعدائه

سجين.. سجن بصبره وثباته.. الكثير من مناوئيه

حرّر الكثير.. بينما هو مكبل بالحديد..

وبفكره وصلابته.. قيّد من يعتبر نفسه حراً

لقد حارب أعداءه بالفكر والإيمان الراسخ، سلاحه الدعاء والدعوة..

وسيفه اللسان والعمل.. وجيشه العلم واليقين..

ظنوا أنهم يقهرون شعاعه.. لكنه أصبح نورا أضاء قعر السجون..

نورٌ اهتدى به بعض حراس السجن بعد أن تأثروا بسجايا الإمام وأخلاقه..

نورٌ اهتدت به تلك المرأة التي زجت في السجن لإغواء الإمام..

فخرجت وإذا هي مؤمنة تائبة ممتنة للإمام بعد أن ميزت بين الحق والباطل..

كان حصاده عليه السلام هداية الناس وامتلاك القلوب والذكر الخالد..

بينما أعداؤه لم ينالوا إلا لعنة التاريخ وانتقادهم أينما ذُكروا.

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين لا سيما بقية الله في الأرضين.

عندما نتحدث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فلا بد أن نتناول الفقه والعقيدة والفكر واستذكار سيرته العطرة بكل ما فيها من مأساة وبطولة وصبر وثبات على المبدأ والتجاء إلى المولى سبحانه وتعالى في الشدة والرخاء والاستئناس به والانقطاع إليه والإحسان إلى المسيء وكظم الغيظ، بل كل مكارم الأخلاق، فالإمام - أي إمام - هو مجمعٌ لكل الفضائل، ولا يمكن أن يكون أحد هو أفضل منه ولو في جانب من الجوانب لأنه يقبح من العقل أن يتقدم المفضول عند وجود الفاضل، وقد أقر القرآن هذا المبدأ في قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

هذه الفقرات مدعاة للاقتداء بالإمام عليه السلام.. وهذا الاقتداء هو الهدف الأسمى من إحياء فكر الأئمة المعصومين عليهم السلام، وهو في الوقت نفسه مصداق من مصاديق مودتهم التي هي أجر الرسالة عندما صرّح القرآن الكريم ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2] وهي مظهر من مظاهر ولاية أولياء الله المفروضة في الإسلام والحب في الله المطلوب في الدين.

ومن جانب آخر - في هذا المقام - لا بد من استعراض خصوم الإمام بكل ما فيهم من غصب لمقام الحكومة الظاهرة وظلم أهلها الذين نصبهم النبي الأكرم محمد

---

(١) يونس - الآية - ٣٥.

(٢) الشورى - الآية - ٢٣.

المصطفى ﷺ وبأمر من الله عز وجل، بالإضافة إلى تتبّع شـــيعتهم ومحبيهم ومطاردتهم وســـجنهم وقتلهم، وهذا من أعظم حرمات الله، فمن انتهك تلك الحرمة ســـهُل عليه أن ينتهك ســـائر الحرمات، والقرآن الكريم لا يرضـــى للمؤمن بالله واليوم الآخر موقف الراضي بذلك ولا موقف المحايد أيضاً، بل يريد موقفاً من نوع آخر تجاه أولياء الله، يقول المولى ســـبحانه وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَـــوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُـــولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِـــيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[1].

فعلامة الإيمان في قلب الإنســـان وتأييدهم بروح من المولى ســـبحانه؛ هو عدم مودة هؤلاء في مقابل مودة المؤمنين، قال الإمام الباقر عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم أن في قلبك خـــيراً فانظر إلى قلبك، فإن كنت تحب أهل طاعة الله وتبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبـــك، وإن كنت تبغض أهل طاعته وتحب أهـــل معصيته فليس فيك خير، والله يبغضك والمرء مع من أحب»[2].

ومن هنا نعرف أن من أهداف دراسة حياة المعصومين عليهم السلام أمرين اثنين: الولاء والبراءة معاً.. لا الولاء وحده، ونحســـب أن الكثـــير يهتمون بجانب ويهملون الآخر وهذا من التبعيض لكتاب الله.. نسأل الله سبحانه أن يرزقنا اتّباع الكتاب كله.

(١) المجادلة - الآية - ٢٢.
(٢) الكافي ١/١٢٧.

كلمة اللجنة العلمية

غشية راهبٍ يسبّح بقدساتٍ موسوية

ها هو سليمان كتاني، ينطلقُ من عيسويتهِ الموروثة إلى محمديّةٍ يخترق بها أفق الموروث، وعلويــةٍ زاهيةٍ «نبراسٍ ومــتراسٍ» [1] جديرين بلغةِ ذلك المنفتــح على غير ثقافة قومه، وفاطمية «بوترها المغمود» [2]في خبايا الغيب غير المتناهي، وحسنية «بكوثرها المهدور»[3] وحقها الممتهن، ومن حســينيةٍ إلى ســجاديةٍ إلى باقريةٍ إلى صادقيةٍ حتى موسويةٍ أخرى يســتذوقها الكتاني بمناجاته المعهودة لإمامٍ ســابعٍ من وراء قضبان سبع عشر سنة من سجون هارون.. ولقد توشحت موسويته هذه بإمامٍ سابعٍ أراد أن يقرأه كما يقرأ الشاعرُ قصيدةَ كونٍ في فضاءٍ غير محدود.. ولعل سليمان كتاني قد قرأ في موسى الإمام الممتحن كل «عيســى» صلبته المسيحية مرة وأحياهُ الإســلام مئة مرة.. ذلك الهادرُ في كتاباته يتوشــحُ الآن ســابعاً من كواكبَ ما أفِلتْ من ذاكرة الغيب الممهور بترانيم الساجد في مطامير الســجون، لم يرفع رأسه من ســجدته الطويلة حتى رفعته قوائم أربعة سجانين يطئــون كل فضاءات الدهور، يخشــعون بــه دجلة الهادر حينما اعتلى جســدهُ ذلك الجثمان فترنم بفجائع المقهور تواً من ظلمات الســجون وأنّات القيود.. ولم يرتضِ دجلة لنفســه أن يتغنى بعشــق المارة حينما تطأ أقدامهم جسرهُ المحدودب من آهات الدهور، حتى اتخذ لنفسه وشاح حدادٍ «موسوي» يحكي نبرات السندي بن شاهك وهو ينادي على الجسدِ الشهيد حقده الدفين، وزعيقَ عُتلٍّ بغيض ظن أن يغيّر من الحقائق شيء.. ليكون الجســر شاهداً وشــهيداً ومشــهوداً لجنايات هارون.. واليوم استكمل سليمان

---

(١) إشارة إلى كتابه علي نبراس ومتراس.
(٢) إشارة إلى كتابه فاطمة وترّ في غمد.
(٣) إشارة إلى كتابه الإمام الحسن الكوثر المهدور.

كتابي حكاية الجسر الشاهد في كتابه الموسوم «**الإمام الكاظم.. ضوءٌ مقهور الشعاع**» ليكون شـــاهداً آخر على ذلك الشعاع المقهور فيتصفح حياته بين يثرب المدينة وبغداد العاصمة، تعتليه غشـــيةَ الراهب وهو يســـبِّحُ بقدساتِ الذكريات الصامتة خلف أسوار السجون، ونفحاتٍ موسويةٍ تكتحلها ريشةُ فنانٍ مزهوٍّ بجمال «موسى الكاظم عليه السلام».

ولعلك تجد في كلمات ســـليمان كتاني بعض ثقافتهِ تنحدرُ إلى قلمٍ مشـــوبٍ بثقافةِ اليـــوم لتخالطها ثقافة الأمس، فتخرج من آماق قلمهِ عباراتٌ نعتذرُ له بأنهُ لم يســـعهُ سوى ما يجدُ من محاصرةِ موروثهِ المشحون بثقافةِ قومه، وهو مع كل هذا يستحقُ الثناء والشكر والإفتخار ليجد كتابه حنايا المحبة في قلوب القائمين على طباعته من قبل العتبة الكاظمية المقدسة-الشـــؤون الفكرية والثقافية ليسجلوا له كل تقدير، فإنهُ يستحق هذا وفوق ذاك.

السيد

محمد علي الحلو

مقدمة

بقلم الدكتور غالب غانم

منذ أن كنتُ في اليافعِ والغَضّ والمتوثّبِ عمراً وذهناً وتوقاً إلى المعارف في ألوانها ومعارجها جميعاً، أتاحت لي الحياة، برضى ومباركةٍ من العليّ العظيم، فرصَ الاحتكاك باضمامةٍ من حملة الاقلام المنوّرين، المتوزّعين بين ذوي قربى وذوي وِدّ، أو المنتمين في آن إلى أُسْرَتَيْ القربى والودّ انتماءً يزيد العلائقَ صفاءً ورسوخاً. . . وكان صاحبُ الأثر الذي أقدّمُ له الآن أحدَ هؤلاء الأعزاء الذين تسنى لي، بفعل القربى والتقرّب، ان امتّع النفس بالتردد إلى مجالسهم، لأشهدَ كيف يتحدثُ الحكماء، ويحلمُ الراؤون، وتَنِزُّ أقلام الموهوبين الصّادقين حبراً لا يخون مصدرين ـ إذا خانهما كان الكلام باهتاً وخاوياً ـ هما القلب والعقل، بما لدى الأوّل من شهقات، وبما لدى الثاني من إشراقات.

وليس نافلاً أن أذكر، في هذا المطاف، أنني والكاتب الاستاذ سليمان كتّاني من تلك الغالية العالية في المركز الطبيعي والحضاري، المطلِقَةِ إلى عوالم الابداع عَلَماً بعد عَلَم، المنفتحةِ على الدنيا لأنَّ صدرها غيرُ ضيّق الأنفاس، المتفاعلةِ مع كلّ دعوة أبوابُها صوتُ الحقّ وآفاقُها مروج الخير. . . إنها مدينتنا الصغيرة الكبيرة بسكنتا، مسقط الرأس وحاضنة تراب السّلف والمؤتمنة على أحلام الخلف، ابنة الجيل اللبناني في موقعها

العصيّ، وابنة الموجاتِ الحضارية في جِنانِ طبيعتها ومِران تجربتها ولَيَان فكرها وبيان اهلها.

من هذه الأرض ذاتِ المناعات، وذاتِ الغنى والجمال في المُتَجلّي من مشاهدها الخارجية وفي المختمِرِ من كنوز العقل ومخابىء العمق بين ظَهرانيها، يُقبل المرء على الكتابة منطلقاً ممّا زوّدته به البيئة، فلا يبدأ من فراغ، ولا يكون عليه إلاّ اعتصارُ الموهبة حتى يتظافر الخاصُّ اللصيقُ بقدرات الفرد والعام الآتي من جهة المجتمع، لتوليدِ الأعمال الأدبيّة والفكرية السويّة.

ومن هذه الأرض ذاتها، أقبل سليمان كتّاني على الكتابة غير مكتفٍ بالعطاء الربّاني وبالجهد الفرديّ توسيعاً للثقافة وتفريعاً لطرق الوصول إلى مواردها، لأنه أدرك ما للمجتمع من أثرٍ في تكوين الريشة وتلوينها وتحصينها. والمجتمع، بمعيار هذا الكاتب وبمطامِحِه، لم يَعُدْ أرضه الجبليّة الجميلة وحسب ـ وإن لازمها طوال العمر ـ بل صار كلّ المباسط والأمداء التي رحبت وتنوّعت ولكنّها توحّدت وانضمّت بعضاً إلى بعض تشدّها أمراسٌ من حضاراتٍ لا تنقطع، ويؤجّج نارها، كلّما باتَتْ على مشارف استكانةٍ أو خِذلان، فرسانٌ صهواتُهم رياحُ الحقيقة والتُّقى، والمثابرةِ والصبر، والايمانِ والوجدان الشفيف، والفكر والنور المشعّ من الدّاخلِ الصغير إلى الخارج الكبير، كمِثل فارس هذا الكتاب، «الإمام المقهور الشعاع». كلّ ذلك مع تذكيرٍ آخر يدعو إلى الغبطة ولو في قلب المآسي، وهو أنّ الشعاع يظلّ شعاعاً وأن قُهِرَ إلى حين، والإمامَ يظلّ «إماماً» وإن تعثّر مسراه، إلى حينٍ أيضاً، بظلاماتِ أسيافٍ تجور، أو ببهلوانيّات سيّافين حملتْهم ألاعيبهم إلى الشرود بعيداً عن حقول الجمال، وشلاّلات النور.

يقع الكتاب، فضلاً عما فيه من مداخل وخواتيم، في أُطُرٍ أربعة متجانسة متماسكة تتدرّج من الاصول إلى الفروع، بعد أن ارتسمت معالمها بفضل اليدِ الخبيرة المتمكّنة من علمٍ وفنٍّ مغلَّفين بأغلفة الروح.

الإطار الأول منها يعود إلى الجذور، منذ أن كانت الجزيرة العربية، والأمّة، تشهدان «الأمين محمّداً» في رحلاته بين يثرب والشام، «يأتي بما تنتجُه الرمول، ويعود بما تنتجُه الحقول»... حتى تفتّقِ الرسالة العظيمة وتوهّجِها... مع لمحاتٍ عن الطالبيين، والإمام علي، «والطوق الإمامي البالغ الاثني عشر»، وبني اميّة، والامامة على العموم، والإمامة المثلّثة على الخصوص (علي بن زين العابدين، محمد الباقر، جعفر الصّادق)... وصولاً إلى خطِ علمي شقّهُ الأئمة، وإلى جامعةٍ أنشأوها في المسجد حتى «لا تقفل بوّابته ابداً»، وحتى يكون المصلّي والموئلَ الفكريّ في آن.

والإطار الثاني الموسوم «موسى بن جعفر» يكشف النقاب عن الصفحاتِ الأولى من حياة سابع الأئمة، منذ أن كان جنيناً في «عزلته الممتصّة كلَّ لواعج ابيه، وكلَّ لواعج أمّه». وصاحبُ الأثر هو من القائلين عن حق «بأن الطفل ـ وهو في بطن أمه ـ لا بدّ أنه المصغي ـ بإذن ذاتِهِ الجنينية ـ إلى كل دفقة يدفق بها لبّ أبيه، وإلى كلّ نأمة تنأم بها حشاشة أمه، وهي كلها التي ستنزل مسجّلة ـ كالحفر ـ في لوحة صدره، وسيثغثغ بها لسانه إذ يجدها أمامه في حقيقتها، بعد أن يهبط إلى الصفحة التي تستدعيه إلى الهبوط!» ثم تكرّ الأيام، ويسلّم الإمام الصادق الأب ـ قبل رحيل تسبّب به السلطان ـ الأمانة للإمام الابن في خاتمة حوار جال في التاريخ ـ على مراراته ـ جولتَهُ في الغد المعقود اللّواء لذوي العلم، والنّصاعة، والمواثيق الوفيّة.

وللإطار الثالث عنوانٌ هو «الإمام موسى الكاظم»، ومضمونٌ كثرت فيه المعاني الضاربةُ في عمقِ أعماقِ الأمّة.

أمّا الامّة ـ يقول «وهي الطينة التي نفخ الله فيها قيمة الإنسان، فهي تلك التي راحت تصغي إلى همس صلاة الإمام السّاجد، وتأخذ منها العبرة: بأن الحقّ هو صلاة المؤمن، وهي رجاء إلى الله في جلوة النور في عدسة العين ـ وتمتينُ الصدق في المهجة، وبثّ الوعي في خلايا السريرة، وزرع الخُلُق النظيف في النفس، وفي كل ما تختلج به الطويّة!»

وبين الأمة والرسالة وشائجُ كان الكاتب قد ألمح إلى بعضها في الإطار الأول، حين قال عن الرسالة: «... ولكن الإلهام لا يريدُها أن تكونَ كالهيولى ـ مجرد وهم، ومجرد خيال، بل حقيقة تجسيد للفكر في كيان من تراب ـ يبقى تراباً إن لم تخفق فيه نجاوى الروح فتجعله إنساناً، تحيا به أمة يخلد بها الله الذي هو القيمة المزروعة في مهجة الإنسان».

وفي هذا الإطار أيضاً عَرْضٌ لوجوه العلاقة بين الإمام المبحر في العلم من نحو، وخلفاء عبّاسيين من نحوٍ مقابل، آخرهم هارون الرشيد الذي، عندما جاهره التقيُّ النقيُّ بالحقيقة، ردّها إليه رُطُباً مسمومة أَوْدَتْ بحياته في الخامسة والخمسين.

وللإطار الرابع المعنون «بعد الغياب» جولةٌ في تراث الإمام الفكري ـ الروحي ـ الاجتماعي، وأضواء ملقاة على رسائله، وتأملاته في العقل، والتوحيد، والايمان بالله، والعلم، والعمل، ومكارم الأخلاق، وسواها... وجولةٌ أُخرى في ألقابه وتأثُّره. وتصويرٌ لأحداث الأيام الثلاثة التي شهدت طرح جثمانه فوق جسر الرصافة في بغداد، حيث كان «دجلةُ الخصب» ـ كما جاء في الخاتمة ـ يمرّ تحت القناطر، بينما الإمام، «دجلةُ الحق»، ينهمر على النفوس العطشى بدفقات المكارم.

إنَّ في الكتاب، كما تبدّى من عرضِ خطوطه الكبرى، وكما يستبين أكثر وأكثر لدى الغوص على الدقائق كلّها، غنى «موضوعيّاً ينقل القارىء إلى

وليمةٍ بُسِطَتْ فيها طوالعُ الهدى، وألوانُ الفكر، وعِبَرُ التاريخ، وسِيَرُ الصّادقين، وآمالُ التوّاقين إلى الأنقى، والأبقى، والأكثر صلاحاً وخيراً. ولا غرابة في ان تتدفّق الحقائق والخواطر، لدى الطارقين باباً كالباب الذي طرقه الاستاذ سليمان كتّاني، تدفّقَ الينبوع الذي لا يبخل بذاته ليروي العطاش، ويوسّع دائرة الجمال. ذلك أن شجرةَ الإسلام، هي من العمق، والبعد، والظلّ الظليل، ـ وقل الضوء البهيّ ـ ما يجعلُ الكلام على أيّ فرع من فروعها كلاماً» كثيرَ الزهر ثمّ كثيرَ الثمر. فكيف إذا كان هذا الفرع طالبياً، أو خطّاً بيانيّاً، يتتبّع حلقات الأئمة حلقةً حلقة، منذ الأوّل ذي الحكمة الجُلّى وقبضة الخير والكرامة، الفتى/ السيف والسيف الناطق نقطَ الحق... حتى السابعِ موضوع هذا الكتاب، وهو الصابرُ على الظلم، والكاظمُ الغيظَ في دخيلَة نفسه، برهاناً على التّقى، والكبر، وهدوء النفس، وذو النفس الزكية.

وبابُ الحوائج، على ما جاء في بعض ألقابه المعالجة في الكتاب... وانتهاءً إلى آخر السلسلة الطاهرة، الحاملةِ أثقال الظالمين، والمعانية من أسى ما بعده أسى، والمصمّمة على الوصول إلى منتهى ما ينشده المؤمنون من أشواق، بفعل تحويل حجارة المأساة إلى صخرة تُبنى عليها قلاعُ الحقيقة.

وفي عودةٍ إلى صاحب الأثر، العزيز الاستاذ سليمان، وَلأَقُلْ «الخال سليمان» كما أناديه في الغالب لأنّ قرابتنا هي من جهة الأمومة ـ علماً بأن القرابة الأصليّة فيما بيننا هي من جهة الانحياز إلى الحقيقة ـ... في عودة إليه، أنوّه بطائفة من الميزات رافقت مراميه الفكرية، ونمطَهُ الاسلوبي، ومنهجَهُ الكتابي.

من ذلك أنه بات ممّن يُركَنُ اليهم في مثل هذا اللون من ألوان التأليف

الطوّافة في التاريخ الاسلامي، وفي سِيَرِ أهل البيت ومسارهم. وما ذلك إلاّ لأنه فتح صفحة بهيّة من صفحات ذلك التاريخ الثرّ عبر كتابه الأول الذي سمّاه «الإمام علي بن أبي طالب ـ نبراس ومتراس»، فانطلق من القفزة الأولى، ثم كرّت السبحة على المماثلِ أو المنافسِ أو المكمّلِ من العطاءات الأخرى.

ومن ذلك أنه لم يكتف باستنطاق الأحداث لإعادة صوغها صوغاً «حيادياً»، أو باهتاً، بل سكب في أعراقها من تطلّعاته الفكرية، وحمّلها قسطاً من همومه الاجتماعية والانسانية تجلّى بشكل لافت في نظراته إلى الأُمة التي ينبغي أن تُدفع «من هيضةٍ سفلى إلى رتبة فضلى»، والبانية ذاتَها «ببيكارِ أبجدي»، والتي هي الإمامة «والأمُّ الحانية الصدر على جميع أبنائها»، والجزيرة العربية «المتفاعلة مع كلّ امتداداتها إلى كلّ جوار».

ومن ذلك أنه واجدٌ لديه عناقاً مثالياً بين مقتضى العقل، ومقتضى الوجدان، من سطورِ البداية حتى سطور النهاية في الكتاب. وإنها بالفعل لميزة لافتة، أن ينقل إليك الكاتب أفكاره فيستهويك منه رجحانٌ عقلي، كما تستهويك اندفاعاتُ وجدانٍ تجعل الوليمةَ العقلية المبسوطة أشدَّ جاذبيةً وأطيب مذاقاً.

ومن ذلك، أخيراً، أنَّ له في عالم الاساليب الأدبية نسيجاً خاصاً، مزهراً بالبيان، معمَّقاً بالتأمل، نبّاضاً بالحركة والحياة.

وما أكرمَ هذا الاثر، سواء اشتقَّ النعتُ من كرامةِ الإمام الذي زيّنه باسمه، أو من كرم الكاتب الذي جعل الكلام دفّاقاً عن عمقٍ وحقّ، احتفاءً ووفاءً، ومشاركةً في تكريم الخطّ الموسوي المبارك بين خطوط الإمامة، وفي رحاب الأمة.

غالب غانم

كلمة صغيرة

إنها إليك الآن أيها القارىء العزيز

سيرة الإمام!

خذها بعينك، ولبّك، ورجاحة أصغريك ـ سرْ بها ـ على مهلٍ ـ من يثرب ـ حيث لفظته أُمُّهُ الحميدة ـ حُمَيْدَة ـ الى بغداد التي احتضنت جثمانه الشريف معروضاً ـ ثلاثة أيام ـ فوق جسر الرصافة.

ستحمله الجماهير على أكتافها، وعلى رأسهم سيدُ بغداد ـ هارون الرشيد ـ حيث يوارونه الثرى في مقابر قريش...

هنا يكون لك أيها القارىء اللبيب أن تكتشف: أنَّ المسجَّى هو عظيم آخر ليس له أنْ يواريه التراب. أكثر من أن تلفَّهُ ـ بكل أوشحة المجد ـ أفاقُ السحاب

الدعوة:

إنها الموجَّهة من مؤسسة الإمام الحسين في بيروت إلى مطلق قلمٍ يتسنَّى له تلوين الحروف بسيرة الإمام السابع موسى الكاظم، على أن يكون

القول ـ في معناه المبيَّت ـ تبياناً عن حقيقة الإمامة التي هي ـ في اثني عشريتها ـ وحدةٌ تكامليةٌ، ليس لها من غاية سوى رزم الأمة بالتمرُّس الطويل، وبكلّ ما هو حقٌّ، وعلمٌ، وخيرٌ عميم.

شكراً للمؤسسة الحسينية تنقل إلينا أشوَاقَهَا ـ وها اني واحدٌ من المدعوِّين إلى غمار الكلمة. أتمنَّى أن يواليني صدقٌ، وعزمٌ، وجلوة رؤيا؛ فالإمام الكاظم ـ يا لهفتنا عليه ـ لم يُظَهِّرْهُ إلا الصدقُ، والعزمُ، وجلوة الرؤيا ـ وكلُّهَا ميِّزاته... يَا لسوء حظ الأمة، لو أنَّها انغمرت بهذي الميِّزات، لما كان لها أن تترك هارون الرشيد يستبدُّ بموساها! وَلَبَقِيَ لها ـ حتى اليوم ـ موساها الغامرُها بالمسرَّات!!!.

ولتتقبلني المؤسسة الكريمة ـ عبر الأمة، بمن فيها الإمام ـ متمنياً لها تحقيق المسرَّات.

سليمان كتاني

كلمة التمهيد

أيها الإمام المقهور الشعاع

بادىء ذي بدءٍ أقول: عليك السلام أيها الإمام، ثم ارجوك أن تستمع إلي: لقد أحببت الدخول إليك من دون أن أقرع الباب، لأني لم أرك يوماً من أيام عمرك المكدود، أقفلت بوجه الغير لوحة باب؛ من هنا كان لي أن أفهم أنَّ بيتك المقصود، لا يجوز أن تحجبه عنا السدود، ولا أن تحجِّمه الحدود.

ولكني الآن ـ وبعد لأيٍ من السنين ـ وجدت نفسي أمامَ باب بيتك بالذات أيها الإمام، وهاتفٌ من صدى الحق يحفزني للدخول... فقلت في ظني: وهل يجوز الدخول من دون قرعة بابٍ توقظ الإمام من سباتٍ طوله اكثر من ألف عام؟!!

عفوك أيها الإمام... وقرعت الباب الذي لم يكن جائزاً أن يقرع... ومن فرط دهشتي الخالية من نباهة الذات، وجدتني ـ وجهاً لوجه ـ واقفاً أمامك، وفي عينيك يقظةٌ واسعة ـ يشير إليَّ اتسَاعُهَا ـ تقول: بأنك حتى الآن لم تذق طعم الوسن!

وتأكد لي أيها الإمام ـ وأنا استرجعك إلى خاطري من خلف طيات

السنين ـ بأنَّ ما نذرت له عمرك، هو الباقي لك في ممرّات السنين، وهكذا ربطت ذاتك بالموارد ذاتها التي تعيش بها وتحيا، وبها تستمر وتخلد كل مجتمعات الإنسان.

انا لا أَظنُّ ـ ابداً ـ أَنَّ الإنسان يعيش ويحيا بغير انسانيةٍ لا تحقِّقُهَا له إلا مجتمعيته؛ وانت ـ ايها الإمام المندَّى ـ ما ضننت بنورٍ شعَّ من ناظريك، إلا وأقمتَهُ ضوءاً لانارة عتمات الدرب الذي تمشي عليه اقدام الأمة، وهي ـ بحقٍّ ـ كل المجتمع الذي هو هيكل الأمة.

والأمة؟ انها وحدها التي اشتقَّ منها النبي الكريم مهمة الأمامة، وحدَّدها باثني عشريتها المرهونة بمتانة التأسيس، والتركيز، والانطلاق؛ وها أنت الآن أيها الإمام، سابعٌ مضيء فيها... ولا اقصدك «بالسابع» رقماً حسابياً قائماً بذاته، بل وحدةً اجتماعيةً انضماميةً في مخطط واحدٍ يكر، لا يجد وحدويَّته إلا بالتصاق الأمة بالمجتمع... والأمة أو المجتمع ـ رغم الملايين المتنامية من افراده ـ هو واحدٌ مفرد، لا يعزِّزُهُ إلا الالتصاق النامي بذريرات الطحين، إلى رغيفٍ واحدٍ، ما طيَّبه خبزاً إلا التصاق الخمير بالطحين.

ما أسعدني الآن أراك أيها الإمام ـ وقد استعدتك من غيبوبات السنين ـ تسكب عمرك كلَّهُ في خدمة المخطط المرسوم في غار حراء، من اجل التنقل بالأمة، من واقع بدويٍّ جاهليّ، كبَّلَهَا بانحطاطاتٍ ما افترق كثيراً ـ فيها ـ انسانها عن الحيوان، إلى واقعٍ آخر، سيتدرَّج رويداً رويداً إلى بحبوحةٍ حضارية، يركِّزها العلم، والدينُ المفسَّرُ بالوعي الروحي المنوَّر بالصدق، والخُلُقِ الكريم، والاستقامات المركَّزة على المفاهيم الإنسانية المؤمنة بحقيقة المجتمع، وهو ابن جغرافيةٍ، ارضيَّةٍ، واضحة الحدود، ياخذ منها

أَوَدَ عمره، وكينونة وجوده، وليس له إلا فوقها سبب راحته ومعنى استمراره وخلوده.

تلك هي القيم التي رحت تشتهر بها أيام الإمام، وأنت تتشهىً ترسيخها في الأمة، حتى بها تتمكَّن من متانة البلوغ... ولقد بدا لي انها لم تكن شحيحةً في مداميكك، وانها ـ وحدها ـ قد وسَّعت باب بيتك، وجعلته مفسوحاً من غير حدود.

من هنا ـ بالذات ـ رحتُ اسأل الأيام عنك... ولست أعني بالأيام غيرَ السجلات التي تحفظ في غرابيلها رزمة الأخبار.

ولكنَّ الأيام كلها، لم يكذِّبْ، ولا واحد منها، أيَّ خبرٍ عنك، فكل واحدٍ من غرابيلها أَجْمَعَ على أنَّ المواهب كلَّهَا قد نلتَهَا: صدقاً، وعمقاً، وألوانَ نصاعة: فانت الذكيُّ الذكيُّ، آمنت بالرسالة، وما مشيتَ إلاَّ بها، وآمنت بالمجتمع، وما نذرتَ عمرك إلا لتركيزه على الأسس السليمة التي ستنهض به إلى عمران، وآمنت بالحق، وشددت باعيك بمطلق بطولة، دفاعاً عنه. حتى ولو ابتلعتك بطون السجون...

عجباً ـ رحت أُردِّدُ في تطوافي المتأمّل ـ ولم أتأخّرْ ـ حتى في هذه اللحظة الخاشعة ـ عن أن أَطرق بابك حتى تطلَّ عليَّ أيها الإمام، فأطرحَ عليك سؤالي المبطَّنَ بما يشبه آهات الحزن الباكي على الاطلال، وكنت أُوجسُ في ظني، أنَّ الاطلالَ ما أَضاعَهَا غيرُ البكاءِ على الأطلال!!!

وطرحت السؤال العالق منذ أكثر من الف سنةٍ في شعاب البال: لماذا أيها الإمام، وأنت في تمام الصدق، وتمام العزم، وتمام التعبير عن توقٍ اصيلٍ يدفع الأمة من هيضةٍ سفلى إلى رتبةٍ فضلى ـ يبهو بها عنق المثال؟! اجل أيها الإمام، وانت متين القصد، وعزيز المثال... لماذا لم تُسْتَجَبْ في تحقيق نجاواك، وكان لك ـ بدلاً عن ضعف المنال ـ ضعفُ الانخزال!!!

يا للجزاء: تلوّنه السجون بغياهبها! وتندّيه الأفاعي بهذاك الزعاف!!!

لم تجبني أيها الإمام الماثل أمامي كما الرمحُ المصقولُ والباقي ـ وحده ـ في طرف الميدان. . . واكتفيت بان رمقتني بعينين، فيهما من لؤلؤ الدمع رجاءٌ آخر. عليَّ أن أُفسِّرَهُ، وأستجلي منه الجواب!

فهمت أيها السيد ـ من صمتك الحزين، ومن تلفلفك بلحظات الاصطبار، ومن ماهيَّات تقبُّلِكَ وطآت الهزيمة ـ أنَّ الانتظار ـ وحده ـ هو الموصل الأمة إلى اهدافها المهتزَّة برجاء الانتظار!!!

وما هو الانتظار؟ ولكنه هو ذاته الذي آمَنَ به جدَّاك الإمامان العظيمان: الإمام زين العابدين، والإمام محمد الباقر، . . . ليكون مع ابيك الإمام جعفر، خطاً مفسَّراً بجامعةٍ علمية؛ تنشر القراءة، والكتابة، والثقافة، وديباجة العلم، وروعة التدوين. . . سيكون للأمة رويداً رويداً ـ ما يقيتُهَا، وينميها، ويلوِّنُهَا: بالوعي والتثقُّف، والادراك. . . ورويداً رويداً ـ أيضاً ـ ستكون لها يقظات بيِّنَاتٌ تعلمها كيف تفتح عينيها، واذنيها، وكيف تسدِّدُ قدميها على الدروب المزدانة بالحق، والنبل، والكرم المزهَّى. . .

إنها الامة ـ ساعتتلك ـ يوضِّحُ لها الوعي المصيب: اهدافها الحياتية، وانها ذاتها ـ هذه الأهداف ـ هي التي يُكَبِّلُهَا الجهلُ باغلاله السود، ولن يخفِّفها منه إلا مجالٌ يحمله ـ رويداً رويداً ـ الانتظار!!!.

وفهمت أيها السيد: أنَّ الأمة كلها ـ بماضيها الباسين، الأموي والعباسي، وبحاضرها الآن، وهو لا يزال ملقوطاً بذاتية التشريد ـ انما هي لا تزال حتى الآن في الانتظار. . .

اما الانتظار ـ بحد ذاته ـ فهو ان نعي نحن [نحن الأمة] ما تعني أنت أيها الإمام من صوابية الانتظار.

* * * * *

الاطار الاول

مع الجذور

الانتظار
الرسول
بنو طالب
الامامة
الإمام زين العابدين
الإمام الباقر
الإمام الصادق

مواضيع يحلو التلميح إليها، وهي بمثابة مقدمة للكتاب، لا بدَّ من التبسط بها قبل الدخول بالتفاصيل. . . لقد ارتأينا ـ قرب كل عنوان منها ـ تقديم الاشارة بان الإمام موسى قد درسها بأجمعها قبل ان تصل اليه الامامة. فاقتضى التنبيه.

الإنتظار

لقد أخذ الإمام موسى عن سيرة الأمين محمد ما ركَّزه في حقيقة الانتظار ـ من هنا سنراه صبوراً، ومتحملاً كلَّ أذىً رشقه به الحكام، وبصبرٍ قلَّ نظيره.

ولست أنت ـ أيها الإمام الكاظم ـ من رسم خطوط الانتظار، بل انه ـ بالتأكيد ـ جدك الأمين محمد، وبين يديه قافلة مرزومة بالطيب، كانت تشدُّ رحلَهَا الاشواق الغنيَّةُ باللواعج، في تفتيشها عن كل ما يسمو بالنفس من مجالٍ وضيع ورتيب، إلى فضاءٍ فسيحٍ وقشيب، فيه تنفسح المعاني وتعذوذب، وبها تزهو الأحلام وتستطيب.

وما كانت أشواق الأمين محمد الاَ من هذا الصنف الذكي الذي استهوته الثريَّة خديجة، فأرخت عليه أثقال قافلتها المحملة بالمسك والعنبر، وبكل ما تنتجهُ الرمالُ اليابسة من بصيلات الحنظل.

ولكن الأمين محمد، ما كانت له غدوةٌ إلى الشامِ تحمل الخفيف الخفيف من اريج العبير، إلا لتكون له ـ بالمقابل ـ أوبةٌ تحملُ الرائعَ الرائع من أشواق الضمير.

هنالك على الخط محطة أولى كان يستريح فيها امين القافلة قبل الوصول إلى مفاسح الشام، وما كان التوقف فيها للراحة والاستجمام، اكثر

مما كان للاستعلام والاستتمام. أما الراهب بحيرا، فكان كثير الترحيب برجلٍ، ما كان يلقي السلام إلاّ بعد أن يأخذ السلام، وهكذا كانت عملية الترحيب المستجاب والمستجيب، سلاماً يعانق سلاماً مفتوحاً على رجاء، كما هو الفضاء على سماء. . .

أما المحطة الثانية، فكانت تحصل في انحاء المدينة، وفي أية زاوية ظليلة يتخبّأ فيها سجلٌّ مطلٌّ على اخبار امةٍ، بَهَا فيها شوقٌ، وأزهرت فيه حضارة. . .

دائماً هو التاريخ ـ بكل احداثه الماضية، وبكل سجلاته الوافية ـ هو معرض كلامٍ، وبحثٍ، واشواق ضمير، ولقد اولع كثيراً بالتاريخ الأمين محمد، المتعدد الرحلات على ظهر القافلة، اما ولوعه بهذا المقدار، فلأنَّ رحلات الاقدمين من اجداده الأبعدين، شديدة الشبه برحلاته هذه، من يثرب إلى الشام: يأتي بما تنتجه الرمول، ويعود بما تنتجه الحقول، ولكنَّ انتاج الرمول ـ وان يكن ثميناً، فهو الشحيح، بينما الحقول تَدفق منها فيوض الثمر.

ورحلاته إلى الشام ـ ولو كانت تتكرر مرتين او ثلاثاً كل عام ـ أين منها رحلاتُ الجدود، في القصيِّ القصيّ من ماضيات العصور: لقد حصلت موجاتٍ اثر موجات، مع السومريين الأوائل، ثم ـ من غير حصرٍ ومن غير ترقيم ـ مع الأكاديين، والكلدانيين، والاموريين، والاراميين، والاشوريين، والكنعانيين ـ الفينيقيين. . . من منهم ما ترك الجزيرة الام، بعد ان عبر الصحاري، واكتشف حولها الأرض الممتدَّة الحقول، فأقام فيها، وتبنَّتهُ كأنها الآم. . . ومن ألفٍ إلى الفٍ إلى ألفٍ من حلقات السنين، تحتَّم الوجودُ المبريُّ من دفوق الشمس وميازيب السحب، وانبرت حضاراتُ عبقرية الصبح، ومشرقة الافق. . وها هي الابجديات، ورصُّ المداميك، ونهوض

القلاع، وامتداد القصور، وانشداد الالواح في صدور السفن، تمشي بها الرياح في عرض البحر، تذلّلُ الموجَ العتيَّ فيه خفقةُ المجذاف. . . انها كلها انشدادٌ فوق الأرض التي انجذبت اليها قوافل المهاجرين من رمول الجزيرة التي اصبحت تعرف كيف تستخرج الطيب الثمين العطر من الأكمام الحنظلية، وتخزنه في قواريرَ مختومةٍ باصابع الفلّين، لتعبّىء بها سيدةٌ في يثرب ـ اسمها خديجة ـ قافلةً لها أنيقة، سلمت قيادتها لأنيقٍ آخر، ليس له اسم إلا الأمين محمد. . .

انه الآن ينزح من يثرب إلى الشام، ويؤوب وفي جعبته احمالٌ اخرى، راح يفتق ـ في خلواته ـ أَختَامَها، وألغازها، ومراميها ـ وراح ـ أيضاً ـ يشدِّدُ في استيعابها، ليجمع منها ما يرده إلى أرض امه الجزيرة، فتبهو بأبنائها النازلين فيها، كما بَهَا من قبلُ اخوانهم وقد نزحوا عنها ـ موجةً اثر موجة ـ في أموسهم الأولى، الى حيث تأقلموا وجمعوا من لحمتهم بالأرض، والماء، والهواء، مدنياتٍ انسانيةً باهرة، سكبوا عليها من فضاءات السماء مواهب حافلةً بالحب. والكرم، والآيات البينات. . . ولو لم تكن ـ هكذا ـ صادقةً، لمَا أزهرت، وأثمرت، وأنجبت حضاراتٍ سبقوا بها منجزات الأرض بكل ما تجمَّع فوقها من مجتمعات.

واختلى الأمين محمد في غار حراء ـ وكل افاويه الجمال تعبق في أنفاسه ـ يدرسها، ويحللها، ويفكر في نشرها على كل الجزيرة التي هي امه اليوم، وامه غداً، وامه ـ بنوعٍ خاص ـ مع اخوانه الذين نزحوا، حاملين معهم عطر الأرض التي تركوها، وما دروا ان رموسهم بالذات لا تزال حتى الآن تتطيَّب بها. . .

ولقد هال الأمين محمد، وهو مختلٍ في الغار ـ ان الأمة التي فاضت من صحاريها في القديم من الزمان، وامتدت إلى أفاريز الجوار، فضمها

الجوار بأبلغ مما يتشهَّاه الانضمام، ومما تتمنَّاه جذوة النار، وهي ذاتها التي توصَّلت إلى انشاء حضاراتٍ توَّجتها الأبجدية بالفخار. . . فلماذا ـ هذه الأمة بالذات ـ تنكَّبت عن جادتها، ونست أنها كانت الأولى في حبكة الحرف، وفي فتلة المغزال، وفي برية الازميل في وجنة التمثال. . . ونست انها كانت الأولى في روعة المضمار. . . وانها كانت الأولى التي وحَّدت اقطارها في مجتمع واحد. . . فإذا هي امة متينة الجدار: مع الأراميين، والاشوريين، والكنعانيين الذين زينوا الصفحات بالحرف، والقلاع بالقناطر، والسفن بالمجذاف، والقصور بالمدماك الأنيق، والإنسان بالجمال المهذَّب بالصدق والتقوى، وهما ظلُّ الله في مضمر الإنسان. . .

اجل، لقد هال الأمين محمد، كون امته الممتدة من الجزيرة إلى كل ما حولها من جوار، قد انشأت حضاراتٍ أنيقات المدار. . . ثم يلفُّهَا البوار، ويفسخُهَا المسار ـ فتنسى ذاتها، وتنسى ما كان لها من فخار!!!

وطال الاختلاء في الغار، وانحصر استنتاج المختلي: بأنَّ كلَّ رحىً تدور على ذاتها، تتفتَّتْ إذ ما يخرجْ بها ـ مدارُهَا ـ عن نقطة المدار. . . ولو أنَّ الله ـ سبحانه في تركيز مشيئاته ـ أرادَ تفتيتَ كرة الأرض ـ لأزاحها بوصةً واحدةً عن نقطة مدارها لتتحوَّل ـ في نفخة الريح ـ هباءً منثوراً!!! وكذلك الأمة ـ امة الأمين محمد ـ لقد تمثَّلَهَا تهجر صحاريها البدوية، لتتجمَّعَ في الحقول المؤهلة بحقيقة الانتاج ـ ولما طاب لها الانتاج، وزادته طيباً فوحات العبير، جمعها الصدق ذاته إلى خوانٍ مطهر، فانشأت حضارةً حسدتها عليها أمم الأرض.

وها هي الأمة ذاتها، تجفُّ وريقاتها الخضراء، وتذبُلُ ثمارها الحمراء، لأنها ـ من دون شك ـ قد منعت عن جذورها ماءً سلسبيلاً، واستبدلته بماءٍ عكر. . . ومعنى السلسبيل: صفاءٌ في الجهد، وتركيز في

الوعي، ووصول بالفهم إلى الحقيقة الناصعة التي يبتنى بها مجتمع الإنسان، وهي ـ هذه الحقيقة بالذات ـ لا يُنوِّرُهَا، ولا يُزكّيها، ولا يرونقها، إلا الطهر في المسلك، والجدية في البناء، والاستقامة في الأخلاق، والصدق في الايمان. . . وكلها ركائز، تملَّكت فهمَهَا ـ بعمق ـ تلك الأمة، فبنت ذاتها ببيكارٍ أبجديٍّ، ما سدَّدته إلا التقوى المنوَّرة بالله ـ مصدر الفضائل ـ وليست تستقيم إلا بها مجتمعية الإنسان.

أما معنى الماء العكر، فهو ـ بغير جدال ـ سلوكٌ آخر، كأنه ـ من البطر ـ انحراف عن الجادة العفيفة التي تأبى أن تخالطها شعرةٌ من دنس. . .

ولا شكَّ ان البطَرَ قد دقَّ بالامة منقاره الكاذب، فتحوَّل سلسبيلها الصافي إلى عكرٍ عاهر. . . وما أن سقت منه جذورها، حتى تهرَّأت تلك الجذور، ثم تلك الجذوع، ثم تلك الثمار، ولم يبق من المثال ـ مع الوقت الطويل ـ الا طيفٌ من غبار!!!

ما من شكٍ أنَّ الأمين محمد ـ وهو المختلي الاختلاء الطويل أو الصادق، والبليغ في الغار ـ قد ألمَّ بكل هذه التحاليل، يجد امام عينيه الغارقتين في لجج الهم ـ امته ـ وقد فاضت بها الغنائم. ودلَّت اليها المياسم، فإذا هي ـ فقط ـ لتتذكر الغنائم، ولتتغنَّى بالمياسم!!! اما ان تعود إلى مبادرة الحق، وإعادة المياسم إلى حركية الانباض. . . فتلك ـ لعمر المجد ـ اطروحة لا ترتجف بها إلا عزيمة ومضاء، لا يجعلها تومض إلا المجد الآتي من مجتنيات العقل، والروح، ومدَّات البصيرة.

وما من شكٍ ـ أيضاً ـ أنَّ الأمين محمد تدثَّر في الغار، بورق الغار، وراح يستنزل المجد من شقوق سقوف الغار، وهي الموصولة بميازيب السحب. . . سيكون له من المجدِ المهلِّ من الأبعاد الرهيفة، ما يجدل به آياتٍ بيناتٍ، بانتظار ان يزنِّر بها خصر كل انسانٍ يمشي على دروب الأمة. . .

وعندما تشتدُّ الخصور بمتانة الزنانير، تعي الأمة انها ماشية على الدرب الذي سيوصلها ـ خطوةً خطوة ـ الى استعادة ما ضيَّعته خطواتها الاثيمة على جوانب الطريق، فهوى مسيرها في غيهبٍ لن ينجِّيها من دهاليزه إلا صوابٌ آخر يردُّها ـ حتماً ـ إلى ايمانها الخلوق، وبه مشت بالأمس حضاراتها الوسيعة، وبالزيغان عنه فقدت قوتها العفيف، وجاعت إلى كل ما يسمَّى حقاً وهدى!

وما طالت خلوة الغار خمساً وعشرين حجة، إلا لأنَّ الجهد المتين قد امتصَّها مصَّةً مصَّة، ولما استوفى الجهد مضامينه، خرج من الغار، ليس فقط اميناً ـ بل رسولاً ـ وما أن استوعبته شغاف الروح حتى صفَّقت له جوانحها، وآمنت به ـ نبيّاً ـ اما الأمة، فهي التي تململت تحت الدثار، وراحت يلملمها الانتظار، حتى تتمَّ لها اليقظة، ويغشاها وعيٌّ يخطو بها إلى انتصار!

* * * * *

الرسول

ومن اطلاع الإمام موسى على جنى الرسول في غار حراء. طيلة خمسٍ وعشرين سنة بدون انقطاع، تركّزت مفاهيمه لكل الأبعاد الفكرية والرسالية التي لا يحققها إلا التصبر والانتظار!!!

لقد طال الانتظار في هدأة الغار الى خمس وعشرين سنة، ولقد حسبناه طويلاً ـ للوهلة الأولى ـ من دون أن نقيس، لا طول ولا حجم البعد المنقدّ من الجهد الطويل في تحليل الأمة، وفي كيفية استرجاعها من وضعها الآني الهزيل إلى ردحها الماضي الأصيل ـ وكانت النتيجة تَمَعُّناً بكل الأسباب التي أوقعت الأمة في الخيبة ـ أما الأسباب فهي المختصرة والمحصورة في انحياد الأمة عن حقيقة الصراط ـ اما الصراط فهو ـ أولاً واخراً ـ ايمانٌ بالله العزيز، في اعتباره احاطةً بكل الفضائل، ومن أَجَلِّهَا بهاءً: الصدق، وروعة الاستقامات... فالعفة رُذْنٌ منها، والحق ردفها الوزّان ـ اما العدل، فسحابٌ منهمرٌ من المقلة العليا، وفيها كلُّ الحبِّ، وكل الاحاطة، وكل المنعة، وكل الوفاء... ان الله ـ جلَّ شأنه ـ هو المحسوب مُطِلاً علينا من عمق الأعالي المفسَّرة بكل نِعَمِ السموات... ومن دونه ـ تعبُّداً وايماناً ـ لا ضابط لنا، في مجتمع انساني زاهٍ بالمكرمات، ولا وحدة تجمعنا، ولا صفاءٌ يجلونا ولا أيٌّ من صراط.

وانكبَّ الرجل المديد الفكر، والمتسع العباب، ينشىء للأمة، بل للأمم كلها فوق الأرض ـ دستوراً مقدوداً من سماءٍ تغطي الأمة، ـ بل الارض كلها ـ بالرجاء.

وكان الدستور ملموماً بقرآنٍ مكتوبٍ بحروف الأرض، لا لتقرأه الأمة وتيبس فيه، بل من اجل ان تحيا وتنتظم به، مجموعةً من شرودها الجاهلي، إلى وحدتها المرصَّعة بالوعي، والفهم، والإدراك. . . وعندئذٍ يكون لها ـ منه ـ حبل البقاء مجدولاً كحبل الشمس في نشر الضياء. . .

ولم يتأخر الأمين محمد ـ عندما بلغ به الاختلاء إلى تمام الاستيعاب ـ لحظةً واحدةً عن الخروج من الغار، وفي عبِّهِ رسالةٌ، هي من مجهود عمره في البحث والغوص، والتنقيب. . .

ما أظن الرسول البهيَّ ـ وهو الحامل الآن ابهى رسالة ـ إلا المستعجل النزول إلى الساحة الكبرى، في مهمة ابلاغ الأمة ـ امته ـ كل البنود الرسالية ـ القرآنية ـ الروحية ـ الحياتية. . . ومن شأنها كلها بناء الإنسان، من أجل أن يكون ـ ولو بالتدريج ـ عضواً صالحاً في بناء امةٍ يمكنها استعادة ماضيها الذي عبَّرت به عن جدارةٍ في الحياة التي هي حقيقة غاية الله ـ عزَّ شأنه ـ في زرع الحياة في مهجة الأرض، لينطق بها الإنسان، ويبقى ينطق بها بعيداً عن الزوغان!

وما اظنها ـ ابداً ـ قليلةً مهمة الرسول، ولقد بقي طويلاً في الغار حتى ترتبت له حروفها. . . اما ان يقرأها للامة، وأن يشرحها لها، ليجعلها تعيها، وتفهمها، وتعيشها. . . فإن الانتظار الطويل سيلبث أطول من عمره، وحتى أطول بكثيرٍ من اعمار الذين سيلقي على كواهلهم تواصل الرعد الذي لا يجوز ان يصمت. . . وإنَّ بناء أمة النبي ـ وهي المتلكئة منذ دهر طويل ـ انما هو بحاجةٍ قصوى إلى صدق النبي، وإلى ابعاد مراميه. . . وما اعز الصبر الذي انتهجه ـ بنوعٍ مركز ـ الإمام الكاظم، حتى يتم الوعي المحتاج إلى طويل الانتظار، وحتى يتم فهم الرسول العظيم في كل مبانيه وكل معانيه.

*****

بنو طالب

ودرس الإمام موسى ـ ملياً ـ أسباب تعلق الرسول بعليٍّ ورأى أن الصدق ورجاحة المواهب في عليّ هي التي أغدقت عليه حباً وتقديراً، ما خصَّ الرسول ـ بهما ـ أحداً من الناس... وانكبَّ الإمام موسى على جدِّه علي، ينهلُ من صدقه، ومن معين فضائله، على غير ارتواء!!!

بكلِّ اقتناعٍ أؤكِّدُ على أن النبيَّ العظيم محمد، ما استبدَّت به ـ مطلقاً ـ أية عصبيَّةٍ ضيِّقة الذيل، خصَّ بها أهليه وذويه... فليكن له أن مَحَضَ زوجه الأمينة خديجة، حبّاً مشبوكاً باسلاكٍ نجية، وهي ـ من دون ريبٍ ـ تستحقها: فهي من أحبُّ الناس إليه، ومن أوفاهم صدقاً وحدباً، ولأول مرةٍ ـ إذ وقعت منها عينٌ عليه ـ حسبته الطيف الوحيد المتجلِّي عليها من خلف أغلفة الغمام، فاندغمت به كما يندغم النور بعدسة العين... وكانت، بعينه هو، لا بعينها هي، ترى الكون ـ كله ـ بهجة نور.

وليكن له ـ أيضاً ـ أَنْ مَحَضَ ربيبه الفتى عليّاً، حبّاً، وعطفاً، وتقديراً، ما استوفى منه مثلَهَا أحدٌ من الناس... لقد كان الفتى علي ـ في حدس النبي ـ من أبلغ الناس لبّاً، وعقلاً، وفهماً، واحساساً... ومن أنبههم عيناً، وغوصاً، وصدقاً، وادراكاً... لقد ربي في كنف البيت، وفي كنف الرسالة المشرئبَّة من سقوف الغار، كانه ظلُّ الشجرة: يخضرُّ إذْ تخضرّ. ويبرعمُ إذْ تبرعم... اما إذا دفَّت بها منجل غدر ـ فهو الزند الوحيد الذي يقصف المنجل!!!

* * *

وبعد ثلاثمئة شهر، خرج النبيُّ من الغار، وفي عبه رسالةٌ أطول من الف دهر. . . فما هي هذي الرسالة؟ وكيف هو مبناها؟ وما هو معناها؟ ومن هو المرسلُ لهاَ؟ وإلى من هي المرسلة؟

لم يكن في البرج غير واحدٍ يراقب تموجات الأثير كيف كانت تتحومل، وتتهافت نازلةً من كوّةٍ مشغوفةٍ في سقف الغار، ولم يكن أحدٌ في الغار يتلقَّفُهَا إلى وسيع جنانه، غير هذا المسمّى محمد. . . انه المتأمّلُ الوحيد الغارق في لجة ذاته:

[لقد كان المسافرَ الوحيدَ المتنقِّل، بقافلة خديجة، من يثرب إلى الشام، ومن الشام إلى الوكر في يثرب. . . لقد وزَّع ـ وحده ـ الطيب في الشام، وحمل ـ وحده ـ الطيب الآخر الآتي به من الشام، لا ليوزَّعَهُ ـ فقط ـ على يثرب، بل على كل الرمول اليابسة التي تعيش فيها الجزيرة العربية، وهي أمُّ مكة، وأمُّ يثرب، وامُّ الهجرات اليعربية الغارقة في خضم التاريخ، ولكنها الخارجة ـ أيضاً ـ من الخضم المغبرّ، إلى تأسيس حضاراتٍ شهدت لها أبجدياتها الناصعة الطالعة من صدور بني كنعان، ثم طواها الزيغان، فانقلبت حطاماً انساها انها كانت، وانها ضيَّعت كلَّ ما كان].

جميع هذه التأملات كانت تتخايل في بال الأمين محمد، وهو في عب الغار، يسترجعها بالدرس والتحليل، ليستخرج منها كلَّ بندٍ من بنود الرسالة. . .

أما الفتى الصامدُ في برج المراقبة. . . فمن يكون غيرَ علي، في تعلُّقه المتلازم بابن عمه النبي؟ ولا النبي ـ بالذات ـ كان يطيق ابتعاداً عن علي، ولقد اعتبره طاقةً منه، مشقوقةً عنه، ولا بدَّ من أن تجمعه إليه حقيقةُ التلازم.

وكان التلازم في مدرجه الحاصل باشتراك الفتى بخلوات الغار: مشاهدةً وإصغاءً لكل حفيفٍ كانت تعتزُّ به جنبات الغار ـ وهكذا كان للفتى ـ وحده ـ ان يرى، وان يسمع، وان يدرك مبنى الرسالة، ومعنى الرسالة، ومن هو المرسل، ومن هي ـ بالتالي ـ المرسلة اليها...

ولم تكن الرسالة في صفحةٍ أو صفحتين، لتُقرأ بدقيقةٍ أو بدقيقتين... فليكن لنا أن نفهم أنَّهَا من الغار أوسع من الغار، فهي من الفوق... كانها الالهام، ولكنَّ الالهام لا يريدها أن تكون كالهيولي ـ مجرَّدَ وهم، ومجرَّدَ خيال، بل حقيقة تجسيدٍ للفكر في كيان من تراب ـ يبقى تراباً إنْ لم تخفق فيه نجاوى الروح فتجعله انساناً، تحيا به امةٌ يخلد بها الله الذي هو القيمة المزروعة في مهجة الإنسان.

تلك هي الرسالة التي استنزلها التأمل من مصدر الالهام، وسوَّرها بدستورٍ قرآنيٍّ يقي انسانية الإنسان من أي زوغان ـ واراد ان يبلِّغَهَا ـ هذي الرسالة ـ لبني قومه، حتى بها يتيمَّموا ويتمكنوا من تهذيبٍ شاملٍ واحد، يلمُّهم إلى خوانٍ ـ من الصدق ـ واحد... وهكذا ـ دون أن يدروا ـ ومع طول الوقت، ومع طول المران، سيتوصلون إلى تحقيق امةٍ تستعيد اليها مجداً حادقاً، كان لها أنْ تمتعت به في سالف الزمان!

لقد كان يعرف الفتى علي، أنَّ كلَّ هذا هو جوهر الرسالة، وهو من مضمون الرسالة، ومن معنى الرسالة، وأنَّ الرسالة بالذات ليست موجَّهَةً ـ بالتخصيص ـ إلا إلى الأمة ـ امة النبي العظيم وهي المشلولة اليوم، ولكنها الناهضة ـ غداً ـ من كبواتها، لتكون ـ يوماً بعد يوم ـ في خطها الصاعد إلى تحقيق الطموح الذي حوَّشته لها خطوات الثلاثمئة شهر في جوف الغار!

نعودُ إلى النبيِّ العظيم خارجاً من غار، مفتِّشاً عمن يسانده في إتمام

المسار. . . والمسار طويلٌ، يتطلَّب طول المجال، وصدق المجال، ولن تحظى الأمة بأيِّ منال، إنْ لم تتركَّزْ ـ منذ الخطوة الأولى ـ على عزمٍ أكيد، وصبرٍ مديد، وجلدٍ في الانتظار، ولن يكون المنالُ بعد أن يُقرأ القرآن آيةً آية، كأنه حكاية، بل بعد أنْ يُصغى إليه يُنثر، ثم يُشْعَرُ به يُنقش، لا في الآذان، بل في الأذهان، ثم يَستمرُّ به التبيانُ، من فردٍ إلى فردٍ، حتى تعمَّ الأمةَ كلَّهَا حقيقة الفهم، وروعاتُ البيان.

أما النبي الكريم المولع بامته ولوعاً لا حدود له، فانه لم يجد في المضمار إلاَّ علياً ـ وحده ـ يلبي النارَ بجذوة النار؛ فهفا عليه كانه السيف ملقوطاً بغمده، لا لأنه طالبيٌّ تتنفَّسُ فيه رغوة الدم، بل لأنه الندرَةُ الهابطة من شهوة الحق. وليست إلاّ له قيمومةٌ على رسالةٍ تحيي امةً، وامةٌ تخلِّدُ رسالة. . . ألا فليكن عليٌّ أوَّلَ إمام، معصومٍ عن خَطَأ، وليتسلَّمَ زمام الرسالة المختصَّة بالأمة، من جيلٍ إلى جيلٍ، حتى ولو دخلت المسافة إلى ألف سنة. . . وليكن من صلبه ـ لهذه المسافة ـ طوقٌ إماميٌّ يبلغ الاثني عشر. من أجل أن تبقى مسافةً متواصلة الربط والشد ـ لأن المجال الطويل يُمَتِّنُ المران، ويوسِّعَ آفاقَ الهداية، ـ والأمة ـ وقد ضاق منها المران، وضاقت عليها آفاق الهداية ـ انما هي اليوم باشد الحاجة إلى ما يردُّهَا إلى ضبط الزمام!

اما الطالبية ـ أردفَ النبي الجليل يفسِّر ـ وان تكن شعاري في اعتزازي بدوحات الجدود، غير اني أحسبها حجراً من حجارات المداميك المشدودة بها قلعةُ الأمة، ولن يكون هذا الحجرُ متيناً إلاَّ بمتانة كل الحجارات المتكاملة بها رصفة الأمة. . . وهكذا كان اهتمامُ النبي بتشديد أزر علي في تولِّي الزمام، لا تعزيزاً لبني طالب، وانتقاصاً من بني خزاعة، أو بني امية، أو بني سليمٍ ومخزوم. . . بل تشديداً للأواصر ـ كل الأواصر ـ ولم يكن التخصيص

برجلٍ معين، إلاَّ لأنه الرجل الموهوب وهو ـ وحده ـ الآن يتمكن من ضبط الأواصر، ونقل الرسالة بجميع ابعادها الطالعة من سرِّية الغار، إلى الأمة الغافية، والتي ـ بنوع خاص ـ لا بدَّ من أن تكون على مثل هذا الانتظار!

وبعد جولاتٍ وجولاتٍ في ساحات الصراع والاصطراع، . . آمنت الجزيرة حتى في لا وعيها المزعج ـ بالنبي الحامل اليها كتاباً . . . لقد بُهِرَتْ به، لأنه ضخم ـ كما يبدو ـ وان لم تعرف كيف تقرأه!!! ولكنها صدَّقته . لأنها شَعَرَتْ بأنَّ في عزم حامله صدقاً ـ وشوقاً ـ وجهداً مبلولاً بدم.

* * * * *

الإمامة

وأعطى الإمام موسى العمق كله في دراسة الإمامة في كل مضامينها التي ادعتها الخلافة ـ واصبحت الدراسة هذه فرعاً من معارف الإمام موسى، ولقد ألمَّ بها!!!

والإمامة: ولقد افترضها النبي الجليل وابتغاها، وأوصى بها قبل ان يَمَّمَ جنان ربه ـ انما هي منه وله في كل مبانيها ومعانيها، ولقد جعلها تُمَارَسُ تحت عينيه، وامام مجالات تبصّرهِ، من دون أنْ يُزيح علياً من تحت ابطه، مشيراً إليه بانه هو الوحيد الثمين الذي يخلفه ويتولّى القيام على تأدية الرسالة النفيسة من بعده ـ وليس القصد في القول [من بعده] ليعني أنَّ علياً ـ بالذات ـ لم يكن من وهج الرسالة، ولم تكن ـ هي ـ من وهجه.

من هنا كان النبي الحريص على مجتناه الأبدي، حاضر الذهن، وبليغ الاهتمام برسالةٍ تبني الأمة وتحضِّرها، من ليلٍ له قمرٌ يغيب، إلى يومٍ لا تغيب الشمس عنه... ومن هنا ـ بالتمام ـ كان النبي العليم يهفو على فتاه النجيب، ويُلَمْلِمُهُ بكل نجمٍ كان يستضيء به أفق الغار، وَيكْحَلُهُ بكل ضوءٍ كان يتلقط به خارج الغار.

وابتدأ نهج الرسول بتشديد وتسديد لبِّ الفتى بحقيقة الممارسة، وها هو تحت عين النبي ـ يمشي الطريق وفي يمناه حسامٌ، وفي شوقه كل الضرام: يبشر بالكلمة الحق، وبالعزم الذي هو شعاعٌ من منار...

انها الممارسات التي ارادها النبي متحفزةً بكل ما فيها من وثبات.

حتى إذا ما غاب، راح إلى ربه مطمئناً، من أنَّ الذي يخلفه قد تقوّى بالصواب، وهو الصادق الأمين الذي لا ريب فيه باستمطار السحاب على الأرض اليباب.

والإمامة ـ بدورها ـ لا يجوز ان نَمَلَّ من اعادة تفسيرها: مبنىً، ومعنىً، وقصداً مستطاباً، حتى يكون لها ـ في الذهن ـ فهمٌ مطلقٌ ومرسَّخٌ في الألباب... انها امامةٌ مشتقة من أُمّ، وهكذا تكون في التمثيل أبلغ من خلافة، لأنها أُمُّ الرسالة التي هي ـ بكل مبانيها ومعانيها ـ إحاطةٌ بالمجتمع الذي هو، بكل مقدراته الماضية، والحاضرة، والمستقبلية، الجزيرة العربية المتمددة فوق صحاري الرمال، والمتفاعلة مع كل امتداداتها إلى كل جوار، بحيث تَمَّتْ للكل ـ عبر التاريخ السحيق ـ عمليات الأنصهار، وعمليات التداخل والتبادل والتمازج، من اجل تحقيق المصير، وتصويب المسار...

انها الأمة الوسيعة في مجالاتها المتلازمة بفاعليات المدار، رآها النبي الواسع العين، بحاجة إلى ضوابط لا بدَّ من الالتزام بها حتى تستقيم امورها في الحد الحياتيّ، الذي لا يجوز ان يكون غير متين الجدار... ولقد رأيناه ـ فعلاً ـ كيف راح ينسِّقُ تمتين الجدار، وها هو الآن ينزل إلى الساحة العريضة يمتِّنُ الأمامة، ليكون لها السهرُ الطويل على تمتين الجدار.

ولكنَّ الخلافة ما أرادت ان ترى ارتزام الجدار إلاّ بعينها السياسية التي هي ـ بزعمها الآخر ـ تتمكَّنُ من تمتين الجدر، وفعلاً اشتدت الخلافة إلى الساحة، بحوارٍ غير ذياك الحوار، وشطبت الإمامة من خط المدار، وها هي تنهض في الشام سعيدة الخطوات ـ وإنْ زائفة ـ بينما راحت الامامة في يثرب ـ وإنْ خائفة ـ تركز ذاتَهَا في لطواتٍ مقهورةٍ بالعذاب، والاضطهاد، والدم المسفوك، ليبقى لها ـ فقط ـ من ايجابية الصراع، تثبيتُ ما رسمته لها مخططات النبي العظيم في ايلائها ـ وحدها كامامة ـ خط ابلاغ الأمة حيثيّات

الرسالة بكل ما فيها من صدقٍ، وحقٍ، وطهرٍ، وتوضيب استقامة، لا لأن تُقرأ، بل لأن تُشرح، ولأن تُعاش في مداها الطويل ولا لأن تُحسب رسالة مخطوطة، بل لأن تعتبر امةً مضبوطةً بكل ما سننتجهُ من ايجابياتٍ ناتجةٍ منها في مسيراتها الطويلة المتكاملة بالعلم، والفهم، والضمير المولع بالفضائل التي هي عين الله في بنية الإنسان، وبنية مجتمع الإنسان.

لا يظنَّنَّ أحد ان الإمامة قد ضاعت عمًّا خطَّط لها النبي العظيم، بل انها التزمت به التزاماً قاسياً وان لم تتمكن في لطواتها المقهورة من شرح الرسالة بكل ما تتوخاه الرسالة... اما الأمة بدورها، فهي التي خسرت سرعة الوصول إلى فهمٍ ووعيٍ، ارادهما لها نبيُّهَا الحكيم ـ لا لعجزٍ في مداركها، بل لأنَّ القابليات الفكرية والروحية الكامنة في خزانات الأمة، ما تمكنت من تنشيطها وتفعيلها تلك الخلافة، بل ـ بالعكس ـ عملت على تهميدها بتنشيط الترسُّبات القبلية البدوية الكامنة في زوايا النفوس، وهكذا استدعتها الخلافة من مكامنها لمؤازرتها في دحر الإمامة التي لا تعرف معنى السياسة المحققة المجد والمسرَّة فوق الأرض.

اما القرآن الكريم الذي لا تعرف ان تقرأه وتشرحه إلا الإمامة، فان الخلافة الممثلة الآن بالوليد، راحت هكذا تلحِّنُهُ وتغنيه:

إذا مـــا جئـــتَ ربَّـــك يـــوم حشـــرٍ فقـــل يـــا ربُّ خـــرَّقنـــي الـــوليـــد

ليس القصد من التلميحات المريبة هذه، تجميع الشنار، ورميه في وجوه بني امية، لأنهم ابتدعوا خلافةً يخلفون بها النبيَّ في خدمة الأمة، وخدمة مصلحة المسلمين ـ بينما القصد كله محصورٌ في ابلاغ الأمة كلها بأنَّ كلَّ شنارٍ في سياسة الأمة، وتوضيب شئوونها الحياتية المصيرية، لا تعاني منه إلا الأمة ذاتها، بكل ما فيها من فصائل أو انتماءاتٍ تردُّهَا إلى بطونٍ أو قبائل... وهاهم الزعماء من بني امية، يتزعمون خلافةً يبتدعونها، أَشَدَّ

غيرةً من غيرة النبي ذاته على ذاته أو على الإسلام!!! لا، وأيم الحق ـ ليس ذلك منهم محبةً بالاسلام، أو غيرةً قوية عليه!!! بل تشديداً على سياسةٍ تُملِّكُهُمْ ـ كامويين ـ زعامة الأمة، من دون أيِّ حسابٍ لطالبيين، أو خزرجيِّين، أو ـ مثلاً ـ خزاعيِّين!!! متغافلين عن كل مرميّ من مرامي جامع المسلمين، في توحيد كل قبائل الأمة، وكلٌ اسيادها البارزين، في حزمةٍ واحدةٍ، تنشدُّ بالأمة، وتهتدي بهدي المسلمين!

تلك هي خطيئة بني امية: في ترفعهم الزعاميّ إلى السيادة على كل ما أرادَ توحيده نبيُّ المسلمين... ولكنهم ما فهموا أن الخلافة لن تكون لهم، ولا لسواهم، في أي حين... بل لعلي، وقد جعله النبي الكريم يمارسُهَا تحت عينيه، وقبل ان يغيب... ولقد مارسها علي ـ ولقد شاهدته يُمَارسُهَا كلُّ يثرب، بكل من فيها من امويين... فلماذا لم يدركوا أن الإمامية هي ذاتها الخلافة التي سيدَّعونها ـ هم ذواتهم ـ الأمويون!

ولو أنَّ المتلمسين خلافة الرسول، كان لهم ولوجٌ امينٌ إلى ذمة المخلوف، لما كان لهم ان يقرأوا الكلمة، ويفتتوا منها الحروف!!! والكلمة بكل حروفها، هي الرسالة، والرسالة، بكل ما فيها من أبعاد، انما هي الأمة التي ارادها النبي العزيز الجهاد: كريمةً كالحق الصريح، وملمومةً ينورها السداد ـ فلا حقدٌ ولا بغضٌ، ولا كذبٌ وجهلٌ وعيٌّ ورياء، بل وحدةٌ في المساواة، نظيفة الأبوة، والأمومة، وعزيزة الاخاء... وهكذا الأمة ـ من يومٍ إلى يومٍ ـ يطول بها العمر، ويسخو لها الرجاء، وفي كلِّ واحةٍ من واحاتها، تتبلَّلُ الأرض بانداء السماء!

من أوحى إلى الأمويين ان يتلمسوا خلافةً وهي خاليةٌ من مثل هذا السخاء؟! أم انهم، هم وحدَهم، يستنزلون السخاء على امةٍ لا تجد إلاَّ بهم هذا الرجاء؟!!

سامح الله بني امية، يشقُّون الأمة إلى ابعاضٍ، ويعلِّلُونَها بالرجاء. . . يرفضون الإمامة لأنها بلا رجاء، ويتلَمَّسون الخلافة لأنها كل النبي، وكل الرجاء. . . ثم ينتبهون إلى انهم ضلُّوا ضلالاً مبيناً إذ آمنوا بكتابٍ إسمه القرآن، فأوعزوا إلى خليفة منهم، يمثِّلُ النبي، ويمثل القران، وهو عليمٌ، ومقتدرٌ، وفهيم. . . فتناول القرآن بدفتيه ـ وخرَّقه تخريقاً. . . لا لأنه وعدٌ وسيع البعد. . . بل لأنه خسَّر الأمة كلَّ وحدتها. وكلَّ رجائها في السخاء!!!

ألاَ بئست سياسةٌ بلا عين ولا أُذنٍ ولا عهد: لملمت التراب وجرَّدته من السحاب. . وحطَّمت القوسَ حتى لا تنبض بالنبال، واذَّعت انها السهم، والخيط، في شدة الزنّار، وانها الضوءُ الهابط من قطب المنار. . . وساء قصدها، من دون ان ترى ومضة القصد في نبيٍّ عظيمٍ أمطرته النعمةُ صفحةَ الأرض، فراحَ يُوَضِّبُ أمةً مشفوعةً بقرآن، سيكون لها ـ في رَدَحٍ من الزمان ـ عينٌ وشفةٌ ولسان، يتمجَّدُ بها الله في كينونة الإنسان.

ولا بنو أمية. . . لن تطول بهم سياسات الجفاء وسياساتُ العياء!!! سيكون لهم ـ أيضاً ـ يوم الوفاء، ويومُ المعاد إلى لقاء، وإلى صفاء. . .

انهم جزءٌ عريض من الأمة. . . وسيكونون منها في دعم الرجاء. . . وتحقيق السخاء. . .

وسيكون لهم ـ ذاته ـ القرآن الكريم الدفتين، والمتسع الآفاق ـ في تنوير اللقاء، وتنوير البقاء.

* * * * *

الإمام زين العابدين

انها الدراسة التي أنشأها الإمام موسى بجده زين العابدين وهي تتناول الامة عند ما يتملكها الوعي بعد انتشار العلم فيها ـ وابتدا العلم مع الإمام الباقر.

إنه علي الأصغر، فلنكن معه وهو في الثالثة والعشرين من عمره لقد كان في قافلة ابيه الحسين، المنسلّ من يثرب إلى مكة، لاعداد تقرير يقابل به يزيد الذي يطلب ـ بالحاحٍ ـ مبايعة الحسين له، ثم بعد المبايعة يسحب الدم من وريده.

لم يكن الفتى الملقوط باسهالٍ عنيف، ليبتعد لحظةً عن أبيه الذي يحبه حتى الوله، وكذلك الحسين، فانه كان يمحض فتاه عنايةً مخصوصة، لا لأنه مريضٌ حتى يشفى، أو لأنه المعدود الوحيد لتقبُّل الإمامة، بل لأنه منذ عهد طفولته، حتى هذه الساعات الحرجة من اليوم الحاضر، لا يزال يكتشف فيه نوعيَّةً من شفافية وهدوءٍ، وذكاء، ستجعله ـ حتماً ـ وليّاً من الأولياء، ووصيّاً شبيهاً بجده عليّ الذي خصَّه النبي العظيم بأعز وصية.

من يثرب إلى مكة ـ ومن مكة إلى كربلاء ـ تمَّ للفتى المتين الشوق، والرهيف البهاء ـ استيعاب أبيه، بكل ما يرمي اليه من مقاصدَ وأبعاد... لقد دارت أمامه كلُّ الأبحاث، وكلُّ الدراسات، وكلُّ الاستطلاعات، وكل الشئون المتعلقة بالأمة، وبيزيد، وبكل حكمٍ قد تفيد منه الأمة أو لاَ تفيد.

لقد تبيَّن للفتى ـ بكل جلاء ـ أنَّ للأمة وحدَهَا كان المجالُ في

البحث، والدرس، وأبوه في مكة يبحثُ، ويدرسُ كيفية النجاة من يزيد الذي لا يريد ـ فقط ـ حذف وجوده من قدر الأمة، بل امتصاص كل حيويّات الأمة، وجعلها ترقص في زندقاته، وإباحياته الصبيانية ـ القبلية ـ السفيانية، حتى لا نخصَّها بالأموية. . .

لقد حاول أبوه الحسين ـ بالبحث ـ جذب الأمة كلها إلى صدره. . . لا ربعَهَا، ولا نصفَها، بل كلَّهَا، لأنه لا يريدها ـ أبداً ـ مفروطةً إلى أرباعٍ أو أبعاض!!! ولهذا مشى الطريق الطويل بين مكة وكربلاء ـ حتى تراه الأمة كلها ماشياً بثورةٍ تنجّيها من يزيد، ومن أمثال العديد من يزيد. . . ولكنَّ الأمة لم تُمدَّهُ ببطولةٍ كالبطولة التي بقيت له وحده على طول الطريق، إلا بعضٌ زهيدٌ من أبعاض الأمة. . . ولأنهم أبعاضٌ لا يؤلِّفون الكلَّ، المرصوصَ، الفاهمَ، والمقتدر ـ ردَّهم إلى بيوتهم سالمين من هدر دمائهم، لتبقى بانتظاره ـ وحدها ـ كربلاء تمتصُّ وريداً له، يعلِّم الأمة كيف يكون بذل الدم، رفضاً لأي ذلٍّ يخسِّرُ النفسَ حقَّهَا في مجالات النبلِ وإشراقات الإباء.

ولقد بكى أباه ـ عليٌّ الأصغر ـ بدمعٍ مريرٍ وسخي ـ لم تشهد عينٌ ـ قط ـ سخاءً بمثل نفاسته. . ولكنه ـ وقد تسلَّم الإمامة ليبذلَهَا سخاءً على الأمة ـ أوقف الدمع عن جريانه، لتصفو عينه، بالنظر، إلى كل ما تحتاجه أمة ابيه التي بذل لها مهجته، وامة جده علي التي قدم لها نهج البلاغة مسقياً بدمه الطاهر المقدس، وامة جده الأعظم، وهو النبي المقدَّمُ للامة سوراً وآيات ـ ستجد فيها ـ هي الأمة ـ ما يقيها من مهاوي الذل، وما يفتقُ فيها الوعي والادراك وهما الخبيئتان الكامنتان في خزائن روحها، ولن تستنجد إلاّ بهما في اليوم الآتي، فتكون لها دوحات الجهاد، في تحقيق البقاء المرجوّ لها في صدر الوجود!

ولكنَّ الجهاد قد ابتدأ عريضاً جداً مع جده الإمام علي! ولم يحقق إلاّ

استشهاد علي!!! ولقد قام وسيعاً ـ أيضاً ـ مع عمه الحسن! ولم يحقق إلا كوباً من عسل، دسَّت فيه زوجة عمه جعدة بنت الأشعث، نقطة سمٍ، فتحت للحسن فوهة اللحد!!! ولقد اشتدت للجهاد عنق ابيه الحسين، لتحقيق البقاء المرجو للأمة! ولكنَّ عنق ابيه كانت المقطوعة من حدود الكتفين!!! فاين هو اليوم الآتي بالرجاء الثمين؟!!

كل ذلك كان يدور في خلد الإمام الصغير وهو ساجدٌ يصلي في بستانه العامر بخمسمئة نخلة في يثرب... ولكنه لم يكمل صلاته المبلولة بالدمع!!! بل انتفض به عزمٌ جديدٌ راح يمشي به في البستان، من نخلةٍ إلى نخلة، وهو يردد في ذاته:

ـ ولكنَّ اليوم الآتي لم يصل بعد!... ولم يبدأ ـ حتى ـ بعد... و

ولو انه قد وصل... لما كان قد قتل ـ

لا جدي علي!

ولا عمي الحسن!

ولا الحسين البطل البطل!!!

ولَما كان قد وصل إلى الأمامة:

لا ابن الصديق!

ولا ابن الخطاب!

ولا ابن عفان!

ولا ابن سفيان

ولا هذا اليزيد المتربع في كفة الميزان!!!

بالله عليك يا حق! الا قل لي:

من قتل العلي؟! هل هو ابن ملجم؟
ومن سمَّمَ كوب الحسن؟! هل هي ابنة الأشعث؟!

ومـن حـزَّ رأس الحسيـن؟! هـل هـو ـ فعـلاً ـ يـزيـد بـن معاوية؟!

ومن عصى النبيَّ كأنه صدرٌ لا ضلع له؟!هل هم بنو حربٍ في لفتة العربان؟!

ومن ترفض الإمامية كانها شوكة الحنظل؟! هل هم بنو سفيان من قبائل الرعيان؟!

لا ـ يـا واقـع الحـق!!! ان الأمـة كلهـا ـ فـي واقـع حـالهـا ـ تنـاولَهَـا الذنب... وليس لأنها واسعة المدار... أو لأنها ـ بشكل آخر ـ ترفض اتساع المدار... بل لأنها ـ بكلمةٍ واحدة الاختصار ـ جاهلة... لأعني بواضح القول:

لا علـمٌ يـوسعهـا إلـى وعـيٍ!!! ولا ثقـافـة تلملمهـا إلـى ادراك!!! فهي الجاهلة: من دون مدرسةٍ... ومن دون قيمٍ.... ومن دون كتاب!!!

ولن يكون الوعي من عنجهياتها ـ بل من تسلسل المعارف!

ولن يكون الادراك من جاهلياتها ـ بل في تمرُّسها بافعال الصواب! والعلم ـ وحده ـ هو المسطِّر الكتاب.

والممارسة الطويلة الاهداب هي التي تمحو الجاهلية من الأذهان

وتستبدلها بالصواب!

وترك الإمام بستانه متجهاً إلى بوّابة الدار، وقبل أن يفتحها، وجد فتاه الصغير المدعوَّ بالباقر، وهو في الرابعة من عمره ـ كانه بالانتظار ـ فتناوله بكلتا يديه إلى صدره!.. ونادى فاطمة ابنة عمه الحسن ـ وهي زوجه التي

انتقاها له أبوه الحسين وزوجه بها منذ خمس سنين. . . قال لها:

لا تفتقدي فتاك بعد الآن، سيكون معي دائماً في المسجد.

ولن تقفل ابداً بوابة المسجد. . .

ـ واني ابشرك يا فاطمة.

فالمسجد اليوم ـ ومن هذا اليوم ـ هو المدرسة.

وغداً ـ انشاء الله ـ هو الجامعة.

وابنك الباقر هو أول تلميذٍ.

ليكون ـ في اليوم الآتي ـ أول استاذٍ في الجامعة.

واول من أنتدبُهُ لجمع الكتب كلها من اقاصي الأرض.

ودرسها، وتعليمها في جامعة يثرب. . .

حتى يختفي الجهل من رقعة الأمة. . .

ويعم الوعي والادراك ـ في طالع الأيام ـ

كلَّ فردٍ من أفراد الأمة. . .

وكلَّ حاكمٍ من حكامها.

حتى ولو كان اسمه ـ يزيد!

فلا يعود يقتل الحسين!

بل يحييه ويعيده من الرميم

إلى تسطير الرقيم.

وتزيينه: بالعلم، والفهم

والنبل الذي هو:

حقيقة الوعي

وحقيقة الإدراك

* * * * *

الإمام الباقر

[redacted]

انه خامس الأئمة بالعدد المتسلسل، ولكنه النازل ـ في حسابي ـ ثانياً في العَقْدِ المختص ببناء الأمة، على أساسٍ ركين لا تتمكَّن من زعزعته عوادي الدهر. . . والثاني يعني انه الإمام الابن الذي خلف أباه الإمام زين العابدين الطالع من حزنٍ كربلائيٍ، ما كاد يفجّرُ دم ابيه الحسين، حتى فجَّرَ فيه ـ هو بالذات ـ مواهبَ انبلجت من مداركه، وأكَّدت له: أنَّ الخنجر، الصدىءَ الذي حَزَّ رأس ابيه، هو ذاته الملفوفُ به صدرُ الأمة الهاجعة في أخاديد الليل!!! ان الجريمة الشنعاء ـ وقد حصلت في كربلاء ـ تشهد أنَّ الجهلَ جَعَلَها تحصل!!! ومتى كانت الجريمةُ غير بنت الهزيمة، هزيمة العقل الذي لا ينوِّره العلمُ فيمنعه من ارتكاب الجريمة؟!! والجريمة؟ أليست هي ذاتُهَا الهمجية التي غرق فيها يزيد؟!!! والجيش الذي جمعه يزيد؟ أليسَ هو الأمة في قبولها المنحني أمام عنجهيات يزيد، ولم يُمكِّنها إلا أن تخضع لأوامر يزيد، في تمكينه من ارتكاب الجريمة التي هي محضُ همجية!!!

لقد صمَّم الإمام زين العابدين ـ كما فهمنا منذ لحظات ـ على محو

الجهل من ليل الأمة. . . اجل، الأمة التي ما كادَ يهلُّ في صبحها نجمٌ، ما تلملمت بمثل شعاعه منذ زمن طويل، حتى هبَّت اليه تطفىء نوره وتخنقه بالعصيان، وتحدُّ من زخم امتداده ضوءاً مطلاً فوق مشارفها، من يومٍ يبتدي بعليّ، إلى غدٍ لا ينتهي به الزمان!!! فليحذفْ ابن أبي طالب، من دوحة المكان ـ وكذلك فَلْيَلْحَقْ به الحسنان!!! اما الليل الطويل، فهو الذي تقرُّ ـ فيه ـ عين الزمان!

أيُّ شيءٍ، من كل هذا، لم يدركه الإمام زين العابدين في تأمله الصاحي، وراح يرسمُ له عزماً على محوه ـ جهلاً ـ يعرقل الأمة عن أي بلوغ؟!! العلم ـ وحده ـ إذ يشمل الأمة، ولو بعد وقتٍ طويل، يُحَرِّرُ الأمة من ارتكاب الجريمة!!! وهكذا رأيناه يفتح بوابة المسجد مدرسةً ستصبح جامعةً علميةً في يومها المقبل. . . اما ابنه الباقر، فهو المحضَّرُ للتفتيش عن كل كتابٍ ولو كان في طرف الأرض، لا لتتزيّن به رفوف المكتبة في جامعة يثرب، بل ليدرسه الفتى النجيب، ولينقله على الطلاب: علماً، ونوراً، وهدياً.

فلنتعرف عليه هذا الباقر، ولنصفه الوصفتين: الجسدية والروحية، حتى نراه في هذا الجسد، بالذات ـ وهو القصير القامة، وغير البدين، وغير المديد الساعدين، وغير العريض الجبين. . . حلَّت به وفيه روحٌ عبقرية، جعلت قامته أطول من رمح، وساعديه كانهما جدلةُ قنَّب، وجبينه واسعاً كأفق، وعينه الصغيرة الصغيرة، كانها عدسة مجهر، تلملم الأبعاد من خلف البصائر، ومن تحت الوهاد، لتنشرها ضوءاً تستضيءُ بها ألباب العباد.

ألا يكفيه فخراً هذا الفتى الخارج من لوعة جده الحسين؟ لقد عاش في حجر جده الحسين اربع سنين، قبل ان يغيب جده المغوار في عب الشهادة! إنه ـ بالذات ـ هذا الفتى الضيقُ العين، ثَقَبَ بلاَسَ المخيم في كربلاء،

وشاهد، من الثقب الصغير بعينه الصغيرة، جدَّه الأكبر من الجريمة، والهزيمة، يتمدَّد قتيلاً، ثم مقطوع الرأس، في مرابع كربلاء!!! لم يعتلج بأكثر من رمي ذاته إلى الساحة الممتلئة بنزف الجراح!!! وبقي صامتاً منذ ذلك الحين، إلى حينٍ آخر، همزه فيه ابوه زين العابدين، إلى التفتيش عن كتابٍ وقرطاس، يكتب بهما وعليهما اسم جده الحسين، واسم الأمة التي لم تتعلَّمْ كيف تنجّي الحسين من فخوخ الجريمة!!! ولن يخفي الجريمة إلا الكتاب والقرطاس، واثناهما، قد اقتنصهما جهد الباقر إلى الجامعة وها هو يفتّقُ عنهما كلَّ غلاف مبهم، وينشرهما تدريساً وتفهيماً، حتى يكون للامة في يومها الطالع، نورٌ ساطع، أو حسٌّ مرهف، يقزّزها من طعمِ وريح الجريمة!!!

ويكفي الفتى فخراً ـ وهو في العاشرة من عمره ـ يجالسُ جابراً بن عبد الله الانصاري، على مدى سنتين طويلتين، وياخذ منه، عن جده النبي، كل الاستطلاعات، وكل الامكانات بجعل الأمة واعيةً، ومحققةً أمجادَ ذاتها. . . ولن يكون كل ذلك لها إلاّ بتجهيزها بكل علمٍ، وكل فنٍّ، وكل احاطةٍ بجمال. . . وان العلم نوعان: علمٌ صغيرٌ، وعلمٌ كبير. . . ومن اختصاص الصغير بناء الشخصية المفردة، ومن اختصاص الكبير بناء الشخصية الكبرى التي هي الأمة، مجموعة كلّ الأفراد. . . ومن دون الاثنين ـ لا كيانٌ فرديٌّ يزهو بذاته، ولا كيانٌ جماعيٌّ يُطلُّ بالأمة إلى مجد!!!

وهكذا اختزن الفتى في ذاكرته، ما يجعله يلبي: شوق ابيه إلى جامعةٍ تنشر العلم في الأمة، حتى يغدو العلمُ ثقافةً عامة ـ ويلبي شوقَ جده النبي إلى جمع العلوم وبقرها على الأمة حتى يعزَّ بها المصير. . .

وان الانصاري، بالذات أبلغ جليسه الفتى بان النبيَّ الجليل ـ بالذات ـ

بَخَّ في اذنه البشرى وهو يقول: ـ سيكون من نسل الحسين عَزُوْمٌ آخر، يجمع العلومَ كلَّهَا، ويبقرها على الأمة زاداً يوصلُهَا إلى معاد... وقبل ان يغمض الأنصاريُّ عينيه وينام، كان الفتى محمد، يوشوشُ أباه في الجامعة، بحقيقة البشرى فاحتضنه أبوه متهللاً وهو يقول له: بعد غدٍ يا ابني إرْحَلْ إلى كل قطرٍ فيه كتابٌ، وفيه علمٌ، وفيه خبر، .. احملهُ، وجيءْ به، وَخَلِّصْهُ من خواتيمه، وانشره في الجامعة: تفسيراً، وتفجيراً... ولَنعمَ الفتى ـ أنت الباقر!

ويكفي الفتى فخراً، انه عاش في ظلِّ امامة ابيه زين العابدين، ثلاثين سنة، وهو يفتش عن مصادر العلوم ويحملُهَا إلى الجامعة في يثرب...

ولأول مرةٍ في تاريخها، عرفت الجزيرة علم الجغرافيا الاتي به الباقر من مصر، مترجماً من السريانية، بواسطة الجغرافيا البطليموسية... ولقد سمع هذا الشرح عمر بن عبد العزيز، فابتهج به، وأمر بتوسيع الجامعة أربعين ألف ذراعٍ تكريماً لمجهود محمد الباقر!

ويكفي الفتى فخراً انه جَمَعَ من مصر، عن طريق الاقباط: علوم الفيزياء والفلسفة الاغريقية، وعلم الهيئة، وعلم الكيمياء... مع التاريخ، والهندسة، والحساب، والطب، والاقتصاد، ومطالع النجوم... وكان يشتغل ـ على مدى خمسين سنة من عمره ـ من الفجر حتى النجر ـ كما يقال... وهو ـ وحده ـ يُدَرسُ كل هذه المواد العلمية ـ ولقد ناف عدد تلاميذه على اربعة آلاف، متوافدين إلى الجامعة في يثرب من كافة انحاء الجزيرة.

أما الولاة الذين عاصرهم، ووعدهم مثلما وعدهم من قبلِهِ الإمام زين العابدين: بانه يترك لهم وحدهم سياسة الحكم، من دون أي تدخُّل في امور السياسة، طالباً منهم ـ بدورهم. ان يحترموا الجامعة التي هي: علمٌ، وثقافةٌ

وفهم، وادراك، وأخلاق. . . وهكذا لبَّاه، واحترمه شديد الاحترام، عمر بن الحكم بن العاص، وعبد الملك بن مروان ـ وسليمان بن عبد الملك، ويزيد اخوه، وهشام بن عبد الملك الاخير. . .

اما عمر بن عبد العزيز، فكان الحاكم الوحيد الذي احترم الجامعة بصدقٍ مجرّد، وباخلاصٍ مقتنعٍ: بان العلم الموصوف بالكبير، هو المنجّي الأمة من ذلٍ خطير، لا يعلم إلاّ الله كم هو المجرم!

وانتقل الإمام إلى جوار النبي الكريم، ليقرئه السلام، وليعرض عليه ما تمكَّن من حصادٍ متمنياً لابنه الإمام جعفر الصادق بذلاً نفيساً آخر، يقذف الأمة إلى بحبوحةٍ أخرى متماديةٍ بالطول والعمق، توسع لها الدرب الموصل إلى وعيٍ يندحرُ به الجهلُ الشنيع الذي لا تعششُ إلا فيه أوقار الجريمة.

الإمام الصادق

انها الدراسة الأخيرة التي قَامَ بها الإمام موسى متهللاً بما حققه ابوه الصادق من جهد وسيع يبشر الأمة بانتظار يومها الآتي بانتصار الوعي، ونشر الوية اليقين!!! يا للانتظار كيف يهدهده الكافرون!!!

انه الإمام السادس في الدائرة الإمامية الاثنتي عشرية في التخطيط النبوي الشريف، ليكون الثالث في الإمامة الزين عابدينية المركَّزة على محو الجهل من الأمة، بواسطة العلم الوسيع الموجَّه، وهكذا رأينا الإمام زين العابدين يفتح بوابة المسجد في يثرب، ليكون المسجد مدرسةً ـ هو الإمام ـ أول معلمٍ فيها، وبين يديه ابنه الصغير محمد الباقر، كأول تلميذٍ تربَّع على طراريحها ـ ثمَّ ليكون هذا التلميذُ أوَّلَ بَحَّاثةٍ عن مصادر العلوم، وراح ـ طوال حياته ـ يجمع لها الكتب العلمية من كافة المصادر، أكانت في الجوار ـ كالشام مثلاً، أو في سوريا، أو القاهرة في مصر، أو جنديسابور في ايران، ام في الاقطار البعيدة، كايطاليا في أوروبا، أو في الشرق البعيد ـ كالصين ، والهند وما أشبه.

وصارت المدرسة جامعةً في أواخر أيام منشئها، بفضل الكتب المستوردة اليها، وهي الوسيعة في مضامينها: التاريخية، والجغرافية، والفيزيائية، والكيميائية، والاقتصادية، والعلمية ـ الطبية ـ الفكرية، والفلسفية. . . وكان ـ هو ذاته ـ الجامعُهَا، يدرسُهَا، ويفتِّق معاليمها، ثم يعمل ـ وحده ـ على تدريسها، وليس معه من معاون، إلا تلميذٌ واحد هو

ابنه جعفر، ثمَّ، بعد ان بلغ ـ جعفر ـ رشده في استيعابه مضامين هذه الكتب، انفتل من تلميذٍ إلى استاذٍ مع ابيه، يهتمُّ في معاونته بتلقين الطلاب المتوافيدن إلى الجامعة، وقد أصبح عددهم في حدود الأربعة آلاف طالب.

صحيح ان للإمام زين العابدين أوَّليةَ التأسيس لمدرسةٍ ابتدائية، توسَّعت إلى جامعةٍ علميةٍ مع ابنه الباقر الموفد إلى كل قطرٍ فيه كتابٌ، لأغناء الجامعة به، ولكن الحفيد جعفر ـ بدوره ـ قد اشترك ـ باكراً ـ بعملية التأسيس، مرافقاً جَدَّهُ لمدة عشر سنوات، ثم أباه لمدة عشر سنواتٍ أخرى، بحيث كان له مع الاثنين جهدٌ نفيس ضمَّه اليهما، بمرانٍ واقتباس، جعلاه يقفز قفزاتٍ واسعةً وسريعةً بنقل الجامعة من مستوىً عاديٍّ، إلى مرتبةٍ علميةٍ غنية، لم يتمتع الشرق بمثلها منذ زمنٍ بعيد. . . ولكن الجامعة ـ على عهد ابيه الباقر ـ ما كان لها، في ازدهارها المدهش، إلا استاذ واحد يضطلع بكل المهام فيها: من جمع الكتب النفيسة اليها، وتفتيقها من مضامينها، ثم تلقينها للطلاب بما أمكن من الشرح والتفسير. . . انه ـ وحده ـ الباقر، وان يكن فتاه جعفر قد بدأ نجمه يظهر، مبشراً باستاذٍ جديد، ستتوسع ـ به ـ ردهات الجامعة!

ولكن الباقر ـ ما كاد يطويه الغياب، ويتسلم مكانه ابنه جعفر، حتى رأينا الجامعة ـ وهي تقطف ثمار الجهد الباقري ـ لا يَتَنَقَّلُ استاذٌ واحدٌ فيها، من منبرٍ إلى منبرٍ، حتى يلقي درساً خاصاً ـ مثلاً ـ في مادة الحساب، أو في مادة الجغرافيا، أو التاريخ، أو اللغة، أو الفلسفة، أو الفقه، أو علم الاجتماع. . . [والمواد العلمية كانت قد وصلت وقتذاك، في الجامعة إلى حدود العشرة] بل اصبح للجامعة في عهد الإمام جعفر، عشرة اساتذةٍ يعتلون عشرة منابر، للشرح والتفسير، والتلقين المتين، ومن أجلِّهم في البيان. الإمام جعفر.

لقد أثمرت كل الجهود الباقرية التي ملأت الجامعة باربعة الافٍ من الطلاب الذين اختارت منهم الجامعة عشرة أساتذةٍ يتمكنون من اعتلاء منابرها في التعليم، ولسانهم واحد في شكر المؤسس العظيم الإمام زين العابدين!

اتراها الآن ـ بعد ما يقارب السبعة عقود ـ قد بدأت تهرول إلى اندحار ـ جحافلُ الجهل ـ إلى ليلها المعتم ـ لتنعم الأمة بصبحٍ جديدٍ يشع عليه نور العلم!!!

فَلْيَقْوَ التفاؤلُ مع الإمام. . . وها هو إثر غياب ابيه إلى الملأ الأعلى ـ يُوَسّعُ الجامعة بفرعٍ ينشئه في حيرة الكوفة في العراق، يضم في جوانبه تسع مئاتٍ من الطلاب، ليشتهر من بينهم: هشام بن الحكم، وهشام بن سالم، ومؤمن الطاق، وزرارة بن أعين، وأبّان بن تغلب، والنعمان أبو حنيفة، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيانٌ آخر هو الثوري. . . من دون أن ننسى ـ أبداً ـ جابر بن حيَّان!.

لقد ملأت رفوف المكتبات ـ في ذلك الحين الباقر ـ مؤلفات زرارة بن أعين ـ وكذلك كلٌّ من أبان بن تغلب، ومؤمن الطاق، والنعمان أبو حنيفة، ومالك بن أنَس. . . أما جابر بن حيان فكان مكتبةً كيميائيةً، بحد ذاته: كتابٌ في علم الكيمياء ـ خمس مئة رسالةٍ تبحث بالحركة العلمية ـ كتاب عنوانه [علم الميزان] في معرفة طبائع المعادن، يقول فيه: [النحاس هو فضةٌ تلهَّت عن ذاتها] وهو ـ أيضاً ـ يبحث في تحضير حامض الكبريتيك، أو «زيت الزاج» ـ وفي تحضير حامض النتريك، وماء الذهب، والصودا الكاوية، وكلورور الفضة ـ والراديوم. . . ولقد تمنَّى عليه الإمام الصادق: أن يجد له قرطاساً لا يحترق. وكان له ما تمنَّى. . .

ومع الإمام جعفر انتهى الشرح الكلامي، والحفظ في الذاكرة ـ وشدَّد على التسجيل، والتدوين ـ وهكذا ابتدأ الاعتماد على الكتابة، وها هي المكتبات راحت تعج بالكتب. . . ومن ابرزها كلها في هذا العصر ـ عصر الإمامة المثلثة: [توحيد المفضَّل] املاء الإمام جعفر على تلميذه المسمَّى ـ أيضاً ـ بالمفضّل. . . كأنَّ المفضلين هما مفضَّل واحد ـ ويبدو ذلك صحيحاً ـ وكتاب المفضل، انما هو في البحوث الطبية. ووظائف الاعضاء، والدورة الدموية، والجراثيم، وتشريح الإنسان. . . وهكذا ـ بنعمة التدوين ـ خفَّ الاتكال على الشروحات الكلامية، وراحت تحتلُّ مكانها قراءة الكتب.

ولقد أحاط الإمام جعفر بكل العلوم الفيزيائية، والتجريبية التشريحية والكيميائية، والفلسفية الفقهية، والاجتماعية الإنسانية. . . وانه ـ هكذا ـ فيلسوف، وفقيه، ومشترع، وطبيب، وفيزيائي، وكيميائي، ومؤرخ، واديب. . . وحتى نُلِمَّ به إلماماً كاملاً، نقول:

ولد الصادق على عهد الخليفة الظالم، الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ ولمَّا مات الوليد كان عمر جعفر ست عشرة سنة. . . وبعد الوليد جاءت ولاية عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الخليفة الوليد بن يزيد الذي خرَّق القران الكريم وهو يتباهى بالقول:

إذا مـا جئـت ربـك يـومَ حشـرٍ فقـل يـا رب خـرَّقنـي الـوليـد. . !

وبعد انتقال هذا الوليد بن يزيد إلى مواجهة ربه، جاء دور ابنه يزيد الموصول بأخيه ابراهيم. . . ثم حذفت الثورة كل الأمويين، بواسطة العباسيين، باسم السفاح، ومن خلفه الداهية منصور الدوانيقي!

ولد الصادق سنة: ٨هـ، وانتقل إلى جوار ربه سنة ١٤٨هـ، ولقد عايش الأمويين اثنتين وخمسين سنة. وعايش بني العباس اثنتي عشرة سنة: أربعاً للسفاح، وثماني للمنصور الدوانيقي الذي اضطهد الهاشميين وزجهم في السجون، وصادر أموال الصادق، ثم قتله بالسم، ولم يرجع الأموال المصادرة، إلا المهدي ـ بعد وفاة المنصور ـ الى الإمام موسى الكاظم.

ليت المهدي لم يُرجع الى الكاظم ـ فقط ـ إرثه من مال أبيه الصادق ـ وهو الزهيد ـ بل إرثه في إدارة الجامعة ـ وهو المدير!!! لو أن إرثه هذا قد طال الى هذه الساعة، لكانت الأمة اليوم في أوج مجدها من ثقافةٍ تحقق لها العمر المجيد.

* * * * *

الاطار الثاني

مع موسى بن جعفر

- الإرث
- تمهيد
- مع الإمام الكاظم
- موسى
- في الطريق
- وفي الجامعة
- وأيضاً قبل الرحيل
- الموجز
- الحوار
- المعضلة

الإرث

لقد كان في نهاية الإطار الأول من هذا الكتاب [والإطار هذا ـ بكل ما فيه ـ كان بحثاً متسلسلاً في كل الجذور المتركّزة عليها الإمامة الواصلة حتماً الى إمامنا الكاظم] وصولٌ الى منصور الدوانيقي يصادر أموال الإمام الصادق، ولم يرجعها إلا الخليفة المهدي، بعد وفاة أبيه الدوانيقي، إلى ابن الإمام الصادق الإمام موسى الكاظم، وهو وريثه الوحيد في خط الإمامة. . . ولقد تمَّت الإشارة الى أنَّ الأموال المعادة، هي الإرث المعاد الى أصحابه الإماميين، ويا ليت المُعَاد ـ أيضاً ـ كان في إرجاع إدارة الجامعة الزينعابدينيَّة إلى إمامة موسى الكاظم، وهي خطٌّ إماميٌّ سيتركَّز عليه ـ في مداه الطويل ـ تثقيف وتنوير الأمة، في مجالاتهاالطويلة، وإيصالها الى الواحات الأمينة!

ذلك هو الإرث، وهو المحصور في الإمامة المشدَّد عليها في تخطيط الرسول، لتكون امتداداً إثني عشرياً، يطول بها الى تحقيقٍ حضاريٍّ أكيد. هي بأشدّ الحاجة اليه متون الأمة!

واحتُجِزَ الإرثُ، وهو جامعةٌ علمية منوَّرة بالوعي والحق، أكثر مما هو أموالٌ مهدَّدة بالعهر والفسق، ولم يرجعه الى الأمة، لا مروانٌ هشاميٌّ، ولا مهديٌّ عباسي، ولا أيٌّ من تتريّ. . . لتبقى الأمة نهباً لسياسيين يبنون

على كتفيها عروشاً من بهتان. يمتصُّها ضرعاً، وعظماً، وإنساناً يتردَّى في ذلٍّ وهوان!!!

هذا كل ما ورثه الإمام موسى... وصبراً طويلاً على كل المكاره، علَّ الدهرَ يطوِّر من مآتيه، ويُحَوِّلُ المرَّ إلى لبان، ويردُّ الحاكم من بهلوانٍ الى إنسان، والإنسان من ذليل، الى عزيز، يأبى الهوان!!!

وكثيراً ما حاول الإمام زرع الله في الأذهان، حتى يفيق الحاكم مرتجعاً الى وجدانه... ولكنَّ الوجدان ذاته أصبح المهراق، ولا أيٌّ من حاكم، أفاق ـ وبقي الإمام ـ وحده ـ السهران ـ يتحمَّل الذلَّ، ويتحمَّل الهوان، ويتحمل الحاكم، ولو كان اسمه هارون الرشيد: يدّعي أنه الرشيد، وانه البطل الصنديد!!! وراح الإمام يقنعه بأنه ـ بعين الله ـ لن يكون صنديداً، بل مستبدّاً عنيداً!!!

وكان الجواب فتح السجون المعتمة، لتكون أطول من دهر، وأمرَّ من قهر... وتحمَّلها الإمام بأناةٍ طويلة، معتبراً أن الصبر الطويل يقصِّر عمر الدهر، ويحلِّي مرَّ القهر، ويعلِّم الحاكم أن الرجوع من عيٍّ الى وعيٍ هو المحقق للإنسان قيمة الإنسان؟

تلك هي حقيقة الإمام الكاظم: صبرٌ طويل وانتظار لا يملّ من إمكانية تحقيق ما تصبو اليه مجتمعية الإنسان... أما التحقيق، فهو الرجاء الذي لا ينقطع الأمل من الحصول عليه. وذلك هو أمل الأمة في الإمامة التي زرعها الرسول الكريم في بال الأمة، ليكون بها وصولها الى الرجاء المبتغى!

أما موسى الكاظم، فهو الآن في عهدة هذا الكتاب، فلنتنَاولْهُ ملياً من قبل أن يولد من أبوين: هما جعفر الصادق، وحُمَيْدَة البربرية المشتراة بسبعين ديناراً ـ الى أن يمشي على أرض الجزيرة إماماً صابراً صبراً طويلاً على مكاره الدهر ـ تحقيقاً لأمةٍ لا تزال ضميراً صامتاً، لم يفعل بعد فعله الصادق.

*****

تمهيد

فإني أريد أن أُبيِّن: أنَّ كل ما جاء حتى الآن في هذا الكتاب ـ في إطاره الأول ـ كان سرداً تبيانيّاً عن أجداد الإمام موسى الكاظم، ابتداءً بالرسول العظيم، وهو الركيزة الأولى في بنية الإسلام، وانتهاءً بالامام جعفر الصادق في أبوته المنتجة الإمام السابع في دوحة الإسلام، وهي الممهورة بموسى الكاظم.

إلى كلٍّ هؤلاء الأجداد المتسلسلين تباعاً من أروقةِ أبهى ما فيها رسالةٌ ونبوة، ينتهي جَنينٌ منها لم يولد بعد، سيكون اسمه موسى الكاظم. ان الانتماء ـ بحد ذاته ـ هو ارتباط جذري بحلقات السلسلة التي هي متانة اتصالٍ ـ وحدةً وحدة ـ ومتانة التصاقٍ ـ نبذةً نبذة ـ لتكون الإمامة ـ بجوهرها الضمني ـ هي حقيقةً ذاتية، تربط الأغصان بجذعها، والجذع بالجذور التي هي متانة الشجرة التي ستتفيَّأُ بها دوحة الإسلام.

لست أظنّ الانتماء إلاّ وتُطيِّبهُ عملية التوارث. وهي هنا ـ هذه العمليات النورانية ـ مشدودةً ومرتبطةً بكل المتون المرسَّخة في بال النبي العظيم، لصياغة رسالةٍ تعمُّ شعث أمةٍ، وتأتي بها من ليلٍ شحيحٍ الى يومٍ له

صبغٌ، وله شمسٌ. وله امتداد فضاء. . . ان الغاية المتسعة بالبعدِ، ونبيلِ القصد، تأبى إلا أن تتزيَّنَ بأنقى الصفات، ومن أجلِّها: الصدق، والطهر، وكل جمالٍ خلقيّ إجتماعي، . . وتلك صفاتٌ لا تنهض إلاَّ بها مجتمعات الإنسان. . . فلتكن هذي الصفات النبيلة، وهي المتنزلة من سماء، والمرسَّخة في البال، هي التي يتنعَّم بها النبيُّ، ويبدو بها مثالاً يتوارثه من بعده الخط المرتبطة به الإمامة، من أول إمامٍ الى آخر إمام. وهكذا فإن خطّ الأجداد هو الموصلُ الى هذا الحفيد الذي لم يولد بعد، ذاتَ الصفات المرسَّخة في ضمائرهم، ليأخذها ـ بالإرث ـ وهي له في واقع الاستمرار:

ان الإمام محمد الباقر، هو الآن في تمام الاستعداد لمباركة ابنه جعفر، وتحضيره لزواجٍ ستكون منه ـ حتماً ـ ولادة إمام سابع، سيعرفه الواقع الاجتماعي: باسم موسى الكاظم.

* * * * *

مع الإمام الكاظم

وفي هذا الصباح الباكر، استدعى الإمام الباقر ـ إلى ديوانه ـ واحداً من أَخصَّائه الأوفياء أَظنُّهُ باسم حسَّان، ووشوشه بالقول:

ـ هاك هذا الكيس المربوط بأنشوطةٍ خضراء... لقد عبَّأته بكل ما في جيبي من دنانير ـ لم أُحصِها بالتمام ـ إخفه تحت عباءتك، واذهب توّاً الى سوق النخاسين، واشترِ به أَمَةً ـ لعلَّ ما في الكيس هذا يكفي ثمناً لها... سأُحرِّرُ الجارية هذه، وأُهديها لابني جعفر، وكأني أراه سيؤخذ بجمال الهدية، فأزوجه بها حلالاً ينتظر... أتراني أحلم؟ أم ان الحرية التي سنغمُرُ بها الجارية، هي التي ستكسوها بجمال تبتهج به مهجة جعفر!!

وانتشى المكلَّف حسَّان بالمهمة، وأخذ الكيس ومشى به كأنه محشوٌّ بكل ما في خلد الإمام من جوهر... ألا يكون في تحرير جاريةٍ من عبودية الذل، مثالٌ من عزٍّ لن يكسيهاه كلَّ ما في الأرض من جوهر!!! وسريعاً ما وجد صاحبُنَا نفسَهُ ـ وهو المحمول الآن على محفَّةٍ من الأحلام ـ في وسط

حانوت النحَّاس الذي فتح له باب الغرفة المحشورة فيها جاريتان لم تباعا بعد. . . قال النخاس:

ـ أرجو يا سيدي أن تُنْعِمَ النظر في هذه الجارية. . . إنها حيِيَّةٌ جداً، ولكنَّ في عينيها المتورمتين بفيض الدمع، ما يُبَشِّرُ بكثيرٍ من صفاءٍ، ومن بهاء، . . ولكن يا سيدي، لا تساومني أبداً ـ أرجوك ـ سبعون ديناراً ثمنها. . . ولو يقلُّ ديناراً واحداً ـ لا تؤاخذني ـ لا شراء يحصل، ولا مجادلة تتم!!!

ورأساً مدَّ الرجل يده الى الكيس في عبّه، وناوله التاجر وهو يقول:

ـ صدّقني، لم أعدّ دراهمي، عدَّها أنت، والناقص منها أدفعه لك من جيبي الثاني.

وعدَّ النحَّاسُ دنانير الكيس، ولما انتهى تبسَّمَ وهو يقول:

ـ أتراكَ سامتني منذ ساعة، وعرفت حدود السعر، فجئتني به مربوطاً بكيس، ليس فيه لا زيادة ولا نقصان. . . هاك حُمَيْدَة، إنها لك، عسى عيناها ـ في بيتك ـ تتهلَّلان بالفرح!

ولما عاد حسَّان وجد الإمام الباقر واقفاً في البابَ وعيناه عالقتان بالجارية الحيِيَّة الطرف، والمبتسمة بنوعٍ من الحزن الشفَّاف، ما كان الإمام يقرأه حتى تهلَّلت أساريره وهو يقول:

ـ قبل أنْ أُرحِّبَ بكِ أقول: أنت محرّرة حرّة، أرجو أن يكون حسَّان قد أخبرك في الطريق، ان الاسلام لا يشتري العبيد، بل يحرّرهم من عبودية ـ والآن، أدخلي يا بُنيَّتي ـ

كل الدار، بمن فيها ـ تقول لك: أدخلي، مع كل الفرح المخبَّأ في عينيك، وهو كل ما تختزنين من جمالٍ هابطٍ عليك من تلك الأظلال المتفيِّئة بها شغاف روحك.

أَسمعيني صوتك وأنت تتلفَّظين باسمكِ الشفَّاف.

ورأساً تناولت الفتاة يمين الإمام وطبعت عليها شفةً كأنها كمٌّ ورد، ثم قالت بصوتٍ كأنه هزيج موسيقى:

ـ حُمَيْدَة يا سيدي، بلغة التصغير، ولكنّي أرفعه الى كبره: أنا حمداء، بلغة الحمد الكبير لله الذي يضمني الى إسلام، يمثله الإمام الباقر، فاقبل خضوعي يا سيدي بفرحي البادي في عينيّ،

ما سكتت حُميدة، إلا لتلوي عنقها نحو باب الغرفة التي خرج منها شابٌ وسيمٌ، لم تتعرَّف بعد إليه... ولكنه تقدَّم منها هو يغمرها بنظراتٍ كأنها انشقاق من أفق... حدجَهَا ملياً، ثم قال:

ـ لقد سمعتك يا سيدتي، قبل أن رأيتك، ولمَّا رأيتكِ فهمت ما سمعت... أنت جمالٌ روحيٌّ. أبلغ مما أنت فيه من جمالٍ حيٍّ... فما أبهاكِ تقبلين بي ـ ليس الآن، بل في مساء الغد، زوجاً لك، تسعدينه أكثر مما يتمكن ـ هو ـ من إسعادكِ... انه نداء روحي إليكِ، يا درَّةً ليست من معدنٍ أرضي، بل من بيكارٍ سموي.

لقد أصغت حميدة، وهي في إغماضة عين. ولمّا سكت جعفر، غمرته بناظريها وهي تقول:

ـ لقد سَكَبَكَ في بالي سيّدي حسَّان، ونحن في الطريق.

وعرفت أن اسمك ـ يا سيّدي ـ هو جعفر، وإني أسألك:
ماذا تقصد بقولك: ليس الآن، بل في مساء الغد؟

وأجاب جعفر:

ـ ليس الآن... يعني أنّكِ لم تختبريني بعد، أما الغد...

فيعني: بعد أن يُمَعِّنكِ الاختبار.

وأجابت حُميدة:

ـ ولكنك الآن يا سيدي غمرتني بالفهم، فلماذا الانتظار الى الغد؟... ولكني، في هذه اللحظة أقول: أنا غصنٌ صغير في دوحتك الكبرى... وما أسعدني ـ منذ الآن ـ أمرح في ظِلّك، يا إماماً في ظلّ إمام.

وهكذا تمَّ ارتباط جعفر الصادق، بزواج بحُميدة ابنة صالح البربري، وبسرعة ما أجملها سرعة... لقد اشتُرِيتُ ـ أمةٌ ـ بسبعين ديناراً، ولكنها انقلبت لؤلؤةً تتزيّن بمثلها نساء المسلمين.

صحيح أن الجمال الذي انغمرت به حُميدة، هو أصيلٌ في روحها، قبل أن يفيض من أساريرها على محياها، ولكن جمالاً آخر، هو الذي فَتَّقَهُ فيها، وأخرجه من باطنٍ الى عيان، أو من سكونٍ هاجعٍ في الطوية، الى حركةٍ تتموّج بها العينان، والشفتان. والجبينُ، وحتى كلّ تأوّدات البنان... انه الجمال الآخر، وقد غمرها به الامام الباقر بتحريرها من عبدةٍ تجردها من إنسان، وتدعمها بحيوان، الى سيدةٍ حرّة، تتعزَّزُ فيها قيمة الانسان. وها هي حُميدة ـ وقد حرّرها الإمام ـ تنفتل من درهم حقير اللمعان، الى لؤلؤةٍ تهزأ بالأثمان! وإنَّ زواجها بإمام قد أنعمَ عليها بأمومةٍ أخرجت من رحمها إماماً لا يعيش الآن إلا باسمه الصغير، موسى!!!

* * * * *

موسى

يا له هذا الموسى، كأنه حبّة حنطة، بقي الشوك والتبن غلافها في جوف السنبلة، الى أن عركتها الأرجل فوق صفحة البيدر، فعرَّتها من أغلفة التراب، وأخرجتها صغيرة سمراء، . . وبقيت صفيرة سمراء، نائمة في عدلٍ حشروها فيه، ونقلوها به الى رحىً في مطحنةٍ راحت تدورُ بها وهي تسحقها في قصدٍ منها أن تلاشيها الى شيء من غبار، وما درت انها استحالت بها الى ذريراتٍ من طحينٍ هو الرغيف الثمين الذي هو مجال العوافي في سغب الإنسان!

سيكون هذا الموسى الخارج من رحم حُميدة صغيراً كحبة القمح، وسيكون له من حبة القبح طباقٌ عليها في الحجم، واللون، وكل المميزات. . . فهو صغيرٌ مثلها في قدٌ يرغَبُهُ الاعتدال، وفي سمنةٍ يجمِّلُها الاختزال ـ أما الجسم ـ في جميع نبضاته ـ فحيويةً تفتش عنها صلابة الأبدان.

فعلاً، انه كحبّة القمح، وهكذا وصفوه في قامةٍ ربعاء، وجسمٍ نحيفٍ، وسمرةٍ كأنها سماط الليل، ولحيةٍ كثَّةٍ يهرب منها المشط النحيل. .

ولكنَّ الوصف هذا، وان يكن ليتناوله وهو في تمام الرجولة، فإنني لا أبتغيه إلا بعد أن أكون قد تبسَّطت قليلاً بالإشارة الى الجوّ البيتيّ العائلي الذي سيولد فيه طفلٌ اسمه موسى. . . ان الجوّ هو المليء بالتأثيرات، بجميع ما فيها من شحناتٍ متنوّعة الأشكال والألوان، والتي هي الى انطباع سيكون محفوراً في سليقة هذا الطفل ـ ولنقل أيضاً بالتمام ـ هذا الطفل الذيَ لم يولد بعد، والذي ـ بعد أن يولد ـ سيتكامل عليه الحفرُ والتنزيل، بالأزاميل ذاتها، ولكنْ بشكلٍ أو فى، يتلألأ سريعاً بكل الملامح التي تتجاوب بفعل الشحنات الواصلة إليها من الجو الذي يكون ـ هو ـ قد هبط فيه.

وقبل أن يولد موسى، كان الجوّ الذي سيهبط فيه، قد أصبح مليئاً بالشحنات الثرية التي ستغمره بذات هذا الثراء. . . لقد تحسَّسناه ـ هذا الجو ـ تدخل فيه وعليه حُميدة. . . لقد سمعنا الحوار الذي دار بين الأمة المحرَّرة، والمغتبطة بتحررها، الى درجة صبغت روحها، ووجهَهَا بفرحٍ كأنه هبوط من علاء. . انه الحوار الذي دار بين الإمام الباقر وحُميدة. . . وهو الحوار الآخر الذي دار بين الوسيم جعفر وحُميدة. . . وسريعاً ما انقلب الحديث الصغير الى رباطٍ عاطفيّ، زواجي. راح يتنعَّم به الطرفان.

هكذا نرى أنَّ الجوَّ الذي سيهبط فيه الطفل موسى، قد امتلأ بالجمال الصادق، قبل أن ينزل الطفل نطفةً في الرحم، . . وبعد أن تمَّ العلوق، وراحت ـ رويداً رويداً ـ تنمو به اللحظات السعيدة الى جنين، كان الجوّ كله يتعبَّأ بموجاتٍ دافئةٍ، تنتعش بها جميع عضلات الجسم في حُميدة، وهي التي ـ بعد عدة أشهر ـ سينورها حنان الأم!!! أليست كل هذه التدفقات المشتعلة بذاتها، هي المشتغلة بها نطفة عالقة في رحمٍ، تنمو الى جنينٍ، سيهبط طفلاً تقرُّ به عين أبٍ. وعين أم؟! . . وكل هذي اللواعج؟ أليست لها التأثيرات في تكوين الجنين، قبل أن يهبط الى الحضن النابض بالحب،

والشوق. وروعات الحنين؟!! فلنكتفِ من هذي اللواعج، بأنها كانت بساطاً دافئاً لولادةٍ ميسَّرةٍ بحقيقة الفرح، وسلامة التكوين، واندماجية الشوق، وكلها مويجاتٌ صادقة، تنعَّم بها الجنين، وهو في عزلته الممتّعة بكلِّ لواعج أبيه، وكل لواعجِ أمه... واني لمن القائلين بأن الطفل ـ وهو في بطن أمه ـ لا بد من أنه المصغي ـ بإذن ذاته الجَنينيَّة ـ الى كلّ دفقة يدفق بها لبُّ أبيه، والى كل نأمة تنأم بها حشاشة أمه، وهي كلها التي ستنزل مسجلةً ـ كالحفر ـ في لوحة صدره، وسيثغثغ بها لسانه إذ يجدها أمامه في حقيقتها، بعد أن يهبط الى الصفحة التي تستدعيه الى الهبوط!

وبعد أن هبط الطفل موسى الى القاعة التي يتنفَّسُ فيها أبواه ـ جعفر وحُميدة ـ تلقَّفه الجوّ ذاته المليء بذات اللواعج، ولكنه الآن قد أصبح يُرى، وقد أصبح يُسمع، ولا بدَّ من أنَّ المرئيَّ والمسموعَ، قد أصبح لهما وعيٌ آخر، وسريعاً ما راح الوعي البادي، ينحفر انحفاراً متيناً في لوحات السريرة!!! كل ما راح الطفل يراه ويسمعه. هو حب صادق، مليء بذاته، كان يَجْهَرُ بهِ أبٌ وأمٌّ، جمعتهما الحياة الى مأربٍ واحد، قوامه صدقٌ، وعفاف، ومبتغاه زرع السماء في حقول الأرض، حتى تنبتَ الأرض رخاءً يدغمها بسماء! وكان التوضيح من جعفر: ان الأرض هي أرض الأمة، في مقصد جده النبيّ الأعظم، سوَّرها بقرآن يرفعها الى جنان، هي أمنيته في جمع أمةٍ على الخط الموصلها الى جنان!!!

وكثيراً ما كان يسمع ـ موسى ـ وهو يأخذ بشفتيه ضرع أمه قبل أن ينام، حواراً بين أبويه ـ وكان يشعر من روح الحوار، ان الكلام يتناول اسمه ـ موسى ـ وهي الكلمة التي كان يناديانه بها، وهو ابن شهرين، وكان يردُّ اليهما المناداة، بابتسامةٍ سمراء... وهنا ـ قد سمع من شفة أبيه ـ اسمه ـ وهو آخذ ضرع أمه ـ توقف عن الرضاع، ليصغي الى شفتي أبيه المتكلمتين

عنه ـ هو موسى ـ بالذات . . . ولا أظنه ـ هذا الموسى ـ إلا أدرك معنى الكلام ـ فراح يثغثغ، وأبواه يصغيان اليه بفرحٍ صبياني . . . وبقي يثغثغ متهللاً حتى غفا ونام!

من هنا أن الجو الذي كان يلفّ الطفل ـ في شهوره الأولى ـ كان جميلاً وبهيّاً. وانعكس الجمال والبهاء، جمالاً وبهاءً في غريزته التي هي جمال انعكاسٍ، وبهاءُ انعكاس . . . ولا غرو ـ فإن المعكوس هو ـ دائماً ـ في الصفيحة المنقوشة عليها ذاتية الصوت الناطق بذاتية الصدى!!!

لم يكن الجو الذي غلف الطفل موسى، الا عابقاً بوشوشاتٍ عذبة، كل ما ينضح منها، حبٌّ وولاء، وتبادلُ آراء، فيها من الروح صفاء الروح، وفيها من الفكر تعليمٌ، وثقافاتٌ، واهتماماتٌ بالأمة، وبحقيقة الإمامة، واستعداداتٌ حثيثةٌ لمحو الجهل: بالعلم، وبترسيخ الوعي في الأذهان . . . وكل ذلك، إنما هو المسؤولية الكبرى، يضطلع بها خط الإمامة، ولو بصبرٍ طويلٍ يحقق الرجاء بعد تحمُّل العناء، حتى ولو طال العناء، لا لدهرٍ واحدٍ، بل لعدة دهورٍ يطول بها الانتظار المؤمن بجدوى الانتظار!!!

لم يكن حديث البيت ـ ولا مرَّة ـ إلا وَكوكبُهُ الإمامة، ـ ولم تُذكر الإمامة، ولا في أية صدفة، إلا ويكون الطفل موسى قد انتشله أبوه جعفر الى ما بين ذراعيه، وراح يداعبه، ويقرأ في عينيه ملامح عبقريةٍ تربّعُهُ في دوحة الإمامة . . . أما الطفل ـ أكان ابن ثلاث، أو أربعٍ من السنين ـ فإنه كان المنتشي بوشوشات أبيه، وعلى محيّاه النديّ تسرح انعكاساتٌ بهيةٌ تشير الى فهم باكر جداً، يجعله مدركاً كل ما ينتثر حوله من حديثٍ أو حوار . . . من هنا كان الاقتناع بأن الجوَّ الذي عاش فيه الطفل موسى، كان مشبعاً بالحوافز الحافرة في الذهن حفرها المستعجل في تنمية المواهب وترسيخها في الطوية، وهكذا، وعمر الطفل أربع سنين ـ كان أبوه يشهد له: بأنه طاقةً

إدراكية، لا يمكن أن يتمتع بمثلها ابن عشر سنين. . . وبأنه ـ بذات الوقت، لا يُسْأَلُ عن معضلةٍ ـ لا يفسرها إلاّ بلاغة وعلمٍ، وعمق تفكير ـ إلا ونراه يفسرها بسرعة، ويجلوها من مخابئها. . . وها أن الامام جعفر يصرِّح أمام بعضٍ من جلسائه، بأن المعارف كلها التي يحوزها ابنه موسى، إنما هي إلهاميَّةٌ لدنيةٌ، لم يشرحها له أي كتاب، ولم يسبغها عليه أي مدّرب. . . وتناسى الامام جعفر أن ابنه موسى كان في غمرٍ من الإيحاء وهو في رحم أمه حميدة تسعة أشهر، وبقي في غمرٍ آخر، لا وزن له، ولا حجم، بعد هبوطه الى الساحة، فغمرته الساحة بفيوضٍ كأنها انهمار السحاب. . . أما استيعاب الفتن في زخمه المستجيب!!! فتلك هي الطاقة العبقرية ـ لا شك ان الفتى موسى يتحلَّى بها. . . فليلفلفها الامام جعفر، بالحب والإعجاب ـ وليصفها ـ بعد ذاك ـ باللدنية.

* * * * *

في الطريق

بعد خمس سنين، ترك الفتى موسى حضن أمه حُميدة، والتحق بالجامعة التي أسَّسها جدَّه الأول الإمام زين العابدين، وملأها بالكتب الغزيرة جَدُّهُ الثاني الامام محمد الباقر، ونقلها الى الرحب الفسيح أبوه العلاّمة الإمام جعفر، وجعلهاجامعةً تفيض بالمعارف، والكنوز الفكرية والروحية. . . وها هي تغصُّ بأكثر من أربعة آلاف طالب، وبأكثر من عشرة أساتذةٍ يتوسعون بشرح موادها العلمية، والفلسفية، والاجتماعية. . . وها هي الأمة قد ازدانت موائدها بالمؤلفات النفيسة، وكلها نازلةٌ في كتبٍ تتوسَّع الأذهان بقراءتها، مع العلم الأكيد، أنَّ جميع الذين أَلَّفوها هم خرِّيجو الجامعة بالذات ـ الجامعة الزينعابدينيَّة التي يوسعها الآن ـ بغزارة علمه وجهده ـ الإمام جعفر الصادق، ولقد اتسع هذا الكتاب، في خاتمة إطاره الأول، بنبذة تلميحيَّةٍ عنه، فلنرجع اليها إذا أحوجنا الأمر.

أجل، لقد التحق الفتى موسى بالجامعة التي يعالج أبوه الإمام شؤونهاالوسيعة، وتربَّع فوق طراريحها اللاصقة بأرض المسجد في يثرب، وراحَ يُجيدُ العبَّ من مناهلها المقروءة والمشروحة، بإصغاءاتٍ طويلةٍ

وعميقة، وباستقراءاتٍ وسيعةٍ في مداها المتجاوب مع مدى أبيه الإمام الذي بقي ـ خمسة عشر عاماً ـ الى جانب فتاه المصغي الى كل همسةٍ، فيها علم، وفكرٌ، وروح. . . حتى إذا ما أغمضَ عينيه اللتين أطفأتهما نقطة سمٌ ـ تكرَّم ببخْهَا في حدقتيهما ذلك الهمجيُّ منصور الدوانيقي ـ كان الفتى موسى قد أضحى عجينةً مكتملة الاختمار، تُؤَهِّلُهُ ـ بحق بهيج ـ لأن يكون إماماً يلبسُ عباءة أبيه، في المشوار فوق الطريق الذي لا يزال معميّاً بالغبار!!!

* * * * *

وفي الجامعة

دخل الفتى موسى الجامعة وهو ابن خمس سنين، ولم يكن يرنو اليها أكثر مما كانت ـ هي ـ ترنو إليه، لا لتوسع عينيه ـ فقط ـ بالعلم، بل لتأخذ منهما بريقاً، هي بحاجةٍ اليه كل عينٍ تفتّشُ عن علمٍ، ولا يمكن أن يصير لها فهماً، ما لم تتوهَّج ـ تلك العين ـ بمثله بريقاً نابعاً من فطرةٍ تشحّ بالصفاء الأصيل. . . وكأنَّ الصفاءَ الأصيل هو ذاته الذكاء المطلّ على النفس من معدنه الأصيل، ليكون ـ هو ذاته ـ العقلَ والروحَ، والوشاحَ الذي تغزلُهُ الثريا، وتنسجه قميصاً تكسُوْ به صدر حبيبها الانسان!

وراح الفتى ـ وقميصه من غزل الثريّا ـ يرافق أباه المرتدي قميصاً ـ هي ذاتها الثريا قد نسجته له. . . ولقد جنى كثيراً من الرفقة التي طالت عشرين سنة: خمساً منها، في البيت وهو طفلٌ، وخمس عشرة في الجامعة! وهنا، في الجامعة، شاهدَ المعارف كلَّها تومي إليه بأناملها المشعّة من كل كتابٍ، وكل صفحةٍ، مخطوطةٍ بريشةٍ وفكر. . . وشاهد الجهد مدفوقاً من مهجة أبيه، ومن فوق جبينه الآتي من خلف الأفق، وتحسَّسَ العلماء جميعهم، من فوق منابرهم الشبيهة بالنواقيس، يشرحون كلَّ الدروس، والمطوَّلات،

والمبهمات، والطلاب ـ بإصفاء الشوق ـ يأخذونها كأنها أرغفة خبز وأباريق ماء: يسدُّون بها سغباً، ويشبعون بها عطشاً!!!

واستطلع الفتى كلَّ ما في الجامعة المصبوبة فيها كل جهود أبيه، وكل ما جنته الجامعة من إنتاجاتٍ فكرية، وعلمية، وروحية ـ وتعرَّف الى منتجيها، وكلهم ـ كما علمنا ـ هم خرّيجو الجامعة، وقد اتصل بهم الفتى موسى، وغاص في قراءاتهم، فرداً فرداً: لقد جَالسَ زرارة بن أعين، وقرأ مليّاً كلَّ ما يجول في عينيه من طيبةٍ وصفاء. وأمعنَ بإعجاب الى أبَّان بن تغلب، والآخر المدعوّ بمؤمن الطاق.. ولم يترك النعمان بن حنيفة إلا وصافحه بيد، وباحثه في كل آرائه المبدئية حول الوجود وإبداعية الإنسان. ولم يقلَّ إعجابه بمالك بن أنَس، وهو يتمنى له مزيداً من العطاء!!!

أما الذي استوقفه بشوق بالغ الأهمية، فهو جابرٌ بن حيَّان، وقد وجده مكتبةً علميةً قائمةً بذاتها، ومن أبهاها كتابه المخصوص بعلم الكيمياء، وقد اتبعه بملحقٍ يحتوي على خمسمئة رسالةٍ تبحث جميعها بالحركة العلمية: أي ان الكيمياء هي لولب المعارف والمعادلات، في حركاتها الإبداعية ـ ليكون له ـ هذا العظيم الحيَّانيّ ـ كتاب في موسوعية العلم، عنوانه: علم الميزان، وكل مركزاته على معرفة طبائع المعادن: كالنحاس ـ مثلاً ـ انه في نظرية ابن حيّان، [فضة تلهَّت عن ذاتها]. وهكذا راح ابن حيّان يصرف كل اهتماماته في التحضير الكيميائي الذي يتلاعب بجزئيات الفيزياء اليابسة، ويحركها الى حياة... من هنا كان تحضيره للحامض الكبريتيك، أو زيت الزاج، ولحامض النتريك، وماء الذهب، والصودا الكاوية، وكلورور الفضة، والراديوم،.. وكان له طموح آخر يرمي الى تحويل الفضة الى ذهب!!! ألم يخترع ابن حيان ـ استجابةً للإمام الصادق ـ قرطاساً لا يحترق ـ وكان للإمام ما تمنّاه؟!

كل هذه الاستطلاعات التي كان يستطلعها الفتى موسى، وهو على مقاعد الدرس. كانت جزءاً من المعارف التي راحت تتوسع بها معلوماته... وكان أبوه الإمام يوجهه ـ بقصد الى تَلَمُّسِها حاصلةً كضوءٍ من معارف تستنير بها الأمة المحتاجة الى الضوء المديد، حتى تختفي من حولها عتمات الجهل، والذل، والسياسات الخاطئة ـ ولقد أدرك الفتى ـ بحدسه المصيب ـ قصد أبيه، وأدرك ـ بالتالي ـ أن الجامعة العلمية، إنما هي تمنّي الإمامة الزينعابدينيَّة، بغاية تثقيف الأمة، وتخليصها ـ رويداً رويداً ـ من عتماتها المضنية... وان عليه أن يستأنف ـ في غدٍ ـ كل الجهود الامامية، ويعمّم الجامعات في كل بقعةٍ من بقاع الأمة المسترعاة الى دوام الوعي المطلق. على مدى عشرٍ وخمس سنين، وقبلَ ان يغيب الى مداه المستريح ـ كان أبوه الإمام الصادق، مفتاح خزائن ـ خزانةً خزانةً يفتحها أمام لبِّه، لا ليأخذ منها شبعاً وثراءً، بل ليعرف كيف يغطِّيها ـ بشبع منه ـ إذا كانت، هي، آتيةً من شبع كاذب!!! أو ليبذل لها الثراءَ من فيض ثرائه، إذا كان لها الثراء محتاجاً الى مصدرٍ صادق!!! إنَّ كلَّ هذه الخزائن التي كان الأب الصادق يفتحها أمام ناظري فتاه النجيب. لم تكن غير أحداثٍ واجَهَتْ الأمة التي جاءها نبيٌّ بلسان رسول، يمحضها ولاءً تستأثر به، وقرآناً تجد فيه ما يقوِّم خطواتها فوق الدروب... ولكنَّ الأحداث هذه، إنما كانت محصورةً جميعها بالفترة الممتلئة بوجود الرسول، وبالفترة الأخرى التي هي ـ الآن ـ بعد غياب الرسول. والآن، يعني الجامعة في يثرب، وفيها فتىً أسمر، اسمه موسى، وهو بين يدي أبيه الإمام الذي لم يرحل بعد.

صحيح ان الإمام جعفر لم يرحل بعد ـ فهو بشفتيه يتكلم ـ وصحيح ـ أيضاً ـ أن الفتى يصغي ولم يتسلَّم إمامةً بعد... أما الحديث الملقى في الأذن المشتاقة، فهو شاملٌ في معانيه، وموجَّهٌ في مبانيه، وشديد الوضوح

في توضيب المقاصد؛ أما المقاصد، فهي في جعل الفتى موسى في حضورٍ ملمٍّ ومشعٍّ بواقع الإمامة التي تيسَّرت له منذ أن كان عمره خمس سنين، والتي سيكون مقودها في يمينه، بعد أن يغمض عينيه مَن يتولاّها!

وجَعْلُ الفتى في حضورٍ شاملٍ لاستقبال الإمامة، فلأن الإمامة، في معناها الشامل، تعني الأمة، والاهتمام بها اهتماماً ملمّاً بكل شؤونها المادية والروحية على السواء؛ وهكذا فهي اطلاع متكامل الغايات، ومتين الصفات، ووسيع المدارك؛ لتكون الإمامة ـ بدورها ـ علماً، وفكراً، واختباراً ممرَّساً بالمران، ووقوفاً أمام المعضلات، وتحمَّلاً لها بصبرٍ وطول أناة!!! وهذا كله ما جعل الإمام الصادق حاضر الذهن أمام فتاه المتنامي ـ بين يديه ـ بأعزّ الصفات والهبات، لتكون الإمامة ـ له ـ واسعةً وجليلة، بكل أبعادها، في لملمة أمةٍ، ما أضناها إلا أبناؤها المتلهّون عنها بإثارة الحزازات، والمشاحنات.. من أجل الوصول الى منبرٍ سياسيٍّ، تجني منه كل فئة ـ أو بالأحرى ـ كلُّ قبيلةٍ من عديد قبائلها ـ زعامةً كاذبةً، وثراءً كاذباً أيضاً، على حساب أمةٍ، لا يجوز أن يكون إلاَّ لَهَا صدقُ النفوذ، وصدقُ الثراء، وصدق توزيع المغانم، بقسطٍ نبيلٍ وعادلٍ، سطّرته في القرآن الكريم منازل الآيات.

مجمل الأحاديث التي استوعبتها أذن الفتى موسى، كان يدور حول المشاحنات السياسية المتداولة بين فئةٍ لا ترضى بإمامةٍ عيَّنها الرسول الكريم، وبين الإمامة المدافعة عن صراطٍ ما عيَّنه إلاَّ الرسول... وهكذا ابتدأت الأحداث التي زعزعت الأمة منذ العهد الأول، الى العهد الحاضر... لتكون الإمامة هي المضطهدة، والخلافة ـ إذا صحَّ التعبير ـ هي الباغية، أمَّا الأمة، فهي المنتظرة نعمة الوعي، ونعمة الفكاك!!!

لم يكن الحديث الاخباري إلا تثبيتاً لواقع حزين، قام بتظهيره خطٌّ

أمويٌّ، فظَّعَ تفظيعاً جائراً بالخط الإمامي على مدىً طال أكثر من مئة سنة، ثم ولَّى مدحوراً ومخذولاً أمام خط عباسي لا يزال ضارباً بنابه وظفره، مع السفاح والمنصور الدوانيقي، والمهدي، والهادي، والآخر المزدهي بذاته ـ هارون الرشيد!!! أما الخط الإمامي ـ الهاشمي ـ الطالبي ـ العلوي، المدافع عن حقوقه المشروعة، والمحسوبة ـ بنظره ـ حقوق الأمة، فإنه لم ينل من لمس الأفاعي إلا لدغةً لدغ بها الدوانيقي عنق الإمام الصادق، فخرَّ في الساحة قتيلاً!!!

* * * * *

وأيضا قبل الرحيل

وقبل أن يرحل الإمام الصادق لملاقاة ربه بعد أشهر، استدعى إليه ابنه موسى، وكان يدور بعمره حول العشرين، وقد أضحى يعاونه ـ كأستاذ ـ في إدارة شؤون الجامعة، قال له:

ـ لست أظنك الآن إلا المتوسع بجميع ما أنت منتدبٌ اليه في تولّي الإمامة، والسير بها، بحكمةٍ، وصبرٍ، وحسن رويّة ـ وإني على ثقةٍ تامةٍ بك، بعد أن أحطتك بكل المعلومات المتعلقة بالأمة والإمامة... وبكل الأحداث التي واجهت الأمة، واعترضت الإمامة، منذ أن غاب الرسول الحبيب، الى هذه الساعة!!! واني الآن أكيدٌ أيضاً من أن معارفك الوسيعة هي التي ستبرز بك في الساحات، بعد أن تجلّلت بوقارٍ آخر، يوفّر لك احترام الغير لك، حتى ولو كان هو ذاته منصور الدوانيقي!

ـ ومنصور الدوانيقي؟ وان كان لي أن تحسَّبتُ منه بصبرٍ، وحكمةٍ، واحتراز، ممَّا نجّاني من كيده، وغدره، حتى

هذه الساعة. . . ولكني أراني ـ وان نجوت حتى الآن ـ لست بناجٍ غداً، أو بعد غد، ولن يكون لنا جميعاً ـ لا نحن الهاشميون، الطالبيون ـ العلويون ـ ولا الأمة ـ ونحن بلسانها المتكلمون ـ أن ننجو من غدرٍ ولؤمٍ تَوارَثَهُ العباسيون عن أسلافهم المناكيد ـ الأمويين ـ إلا بتحمّلٍ رزين، وحكمةٍ أرزن، ورويّةٍ مشبعةٍ بالعقل، والعلم، والتحسّب، وانتظارٍ ـ ولو طال أكثر مما نترقّب ـ حتى يذوب الجهل من الأمة، ويتم لها زجر المتعسّفين. . . وعندئذٍ، يغيّر الله أمراً كان مفعولاً!!!

توقف الإمام قليلاً عن البثّ الحزين، ثم عاد الى توجيه الكلام الى ابنه موسى الذي لا يزال مطرقاً يصغي، فهزه ـ قليلاً ـ بكتفيه، ثم أردف يقول:

ـ اسمعني أيضاً يا ابني الإمام؛ إن الأمة التي أرادنا نبيّ الإسلام أن نكون ـ بحقٍ ـ أولياءها، وأمناءها ـ. . تطلبنا دائماً الى يقظةٍ حليمةٍ نسيرُ بها الى نجدتها، وتخليصها من الأورام. . . ولكن ـ بحكمة: ورويّةٍ، واتزان. . . حتى لا تهدر، لا طاقاتها، ولا دماؤها الثمينة، ولا أحلامها المنسكبة عليها من سور القرآن!!! من هنا سُرِرْتُ بك إحاطةً علمية، وفكرية. وخلقية. . . لتكونَ ـ أنت ـ اليقظة الحكيمة والفهيمة التي تتطلبها مصلحة الأمة. . . ومن هنا رأيتك مصغياً الى كل شأنٍ من الشؤون الخاصة المرتبطة بالأمة، منذ أن غاب الرسول عنها حتى الآن. . . لقد أخبرتك مطولاً عن عهد بني أمية. . . انك لم تره بعينك. . بل سمعت عنه بأذنك.

منذ أن كان عمرك أربع سنين، الى أن بلغت الآن السابعة والعشرين. . . والله أعلم كم ستستمرّ بك المعاناة في تحمّله حينما تعاني منه، أنت، والأمة، والجامعة بالذات، وهي التي أُنشئت لتخليص الأمة من جهلٍ يرمي الأمة كلها في ذلٍّ يحررها فيه تعسُّف السياسات!!!

احفظ هذا الموجز، ووسِّع به يقظةً بإمكانك أن تعالج بها استمرار الملمات!!!

* * * * *

الموجز

وابتدأ الإمام الصادق بالحديث الموجَّه الى الإمام موسى الذي لم يبدأ بعد بممارسة إمامته ـ قال الإمام الأب:

ـ سيكون لك بعد الانتهاء من سرد هذا الموجز أن تحاورني بما تريد، أما الآن فلنبدأ بالثورة على الأمويين: كيف تململت بها الأمة ـ وأقصد كيف تململنا بها نحن لمصلحة الأمة حذفاً للأمويين من الساحة!

لقد كان عمرك يا ابني أربع سنين، عند ابتداء الثورة. أما الأسباب التي حرّكت الثورة، فلأختصرها ـ قليلاً ـ هكذا: كان الأمويون ـ دائماً ـ يفرضون سبّ أهل البيت وإبعادهم عن مناصب الدولة، وقتل أهل العترة إذا اقتضى الأمر ـ من عليّ الى الحسن، الى الحسين... وجريمة كربلاء تشهد ليزيد بفظاعة الجريمة!!! ومروان هشام بن عبد الملك، قد فظَّع بقتل زيد بن علي بن الحسين. وحزَّ رأسه. وأمر زوّاره بأن يطأ كل واحد منهم رأسه!!! وأمر بصلب جسمه

طويلاً في الشمس، ثم أمر بحرقة وذرِّ رماده في الهواء!!! وكذلك مثَّلَ الأمويون بيحيى بن زيد... هذه هي بعض مكوِّنات الثورة التي أحاطت بحكم الأمويين!

ولقد حرَّك الثورة هذه نزاعٌ بين اليمانية والنزارية، وانضمَّت اليمانية الى العباسيين، ونشَّطَ هذا الانضمام العلويون بواسطة واحدٍ منا، هو عبدالله بن الحسن... وهكذا اهتمّت الثورات، أو فلنقل الحركات المحلية بالدعوة لأهل البيت، وكان يتظاهر بذلك منصور الدوانيقي...

واشتدت ضلوع الثورة في خراسان.. وعقد مؤتمر الأبواء بواسطة الهاشميين، وحضره كلٌّ من إبراهيم الإمام، أو السفَّاح، والمنصور... وصالح بن علي، وعبدالله بن الحسن، ومحمد وإبراهيم اللذين قتلهما المنصور!

وفي مؤتمر الأبواء، دلَّ المنصور الى عبدالله بن الحسن، بأنه هو الذي ستكون له الإمامة... وعندئذٍ تمّت له البيعة في الأبواء... ولكن العباسيين لم يفوا لا بالوعد، ولا بالعهد! وانتَخَبَ إبراهيم الإمام، عميدُ العباسيين، أبا مسلم الخراساني وأوصاه بقتل العصاة، إنجاحاً للثورة! وكانت النتيجة ستماية ألف قتيل من رجالات الأمة، وأصلاب العرب!!! وتوجَّه أبو مسلم الى خراسان التي رحَّبت به... وهكذا تكوَّنت الثورة الأولى بجيوش بني العباس... وضعف شأن مروان بن محمد الجعدي، آخر

خليفةِ أموي، ثم قتله السفّاح في معركة الزاب في الموصل!

كان عمرك يا ابني موسى خمس سنوات، عندما قتل آخر خليفة أموي ـ مروان بن محمد الجعدي ـ وساعتئذٍ انتهى الحكم الأموي!!! ولكنه، بَدَلَ أن ينتقل الى الامام عبدالله بن الحسن، انتقل الى العباسيين الكذابين، باسم إبراهيم الإمام السفاح، سنة ١٢٤، ودام حكمه ستّ سنوات عجاف... وصرت أنت ـ لمّا مات ـ في الحادية عشرة من عمرك... أما الأمويون ـ على عهد السفاح ـ فتشتتوا شذر مذر، بعد أن استلم الحكم المنصور الدوانيقي، أخو السفاح عبدالله بن الحسن.. ولا ابنه الأول محمد، ذو النفس الزكية، ولا ابنه الثاني إبراهيم، وكلهم فظّع بهم المنصور المتولي الحكم!

ومثلما كان السفاح يموّهُ على العلويين من دون أن يصدقوه، راح المنصور يتابع التموية عليهم، من دون أن يصدّقوه ـ بتاتاً ـ.. وهكذا حرَّك محمد ذو النفس الزكية، ثورة على المنصور، باءت بالفشل. وبقتل محمد ذي النفس الزكية!!!

وجاء دور الأخ إبراهيم بن عبدالله بن الحسن، في تحريك ثورة انتقامية لأبيه ولأخيه... ولقد تعبأت بالقوة الشعبية الملبّية في البصرة، والأهواز، وفارس، وأصبح الفوز على قاب قوسين أو أدنى... ولكن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن ـ وهو على رأس الثائرين في الكوفة ـ أصيب بسهم

في حلقه أرداه قتيلاً!!! فصفا الجوّ للمنصور، وأكمل فتكه بالعلويين!!!

هنا توقّف الامام الصادق قليلاً يستريح من عناء السرد، ثم ليستأنفه بنبذةٍ ثانيةٍ فيها كثير من الإتزان، أما الإمام الصغير، فانه راح الى اتّزانٍ آخر، والى صفاءٍ آخر ـ أيضاً ـ يلفلفه ببلاغة التصبّر، وبلاغة الانتظار. . . واستأنف الإمام الصادق حديثه البحث:

ـ والآن يا ابني، لقد جاء دوري أنا في مقابلة الأحداث، وها إني أقول: لم أُخدع بشيءٍ ممَّا تمثَّل أمام عيني من أحداث. . . لقد وعيت تماماً سريرة السفاح، وكل سرائر بني العباس. . . لقد كانوا يَعِدُوْنَ ـ فقط ـ ولا يفون لا بوعدٍ ولا بعهدٍ! أما الثورة التي قام بها قريبنا ونسيبنا عبدالله بن الحسن، وإبناه محمد وإبراهيم. . . فإني الوحيد الذي كنت مطلعاً على كل مسبباتها، وجميع حيثياتها السلبية والإيجابية سواء بسواء!!! لقد اتصل بي الإمام عبدالله، مع إبنيه محمد وإبراهيم، طالبين منّي المؤازرة، ولكني، بصدقٍ ولوعةٍ أجبتهم: بأن أمور الأمة تحتاج الى كثيرٍ من درس، وتعمّق، لا الى أيٍّ من حماس وتسرّعٍ يرميان الأمة في المزالق التي تبعثرها، وتبعدها عن حقيقة المنال. . . وبكلمة مختصرة، قلت لهم: لم يأتِ الأمر بعد!!! وان محمداً وإبراهيم ـ أثناهما ـ هما المقتولان إذا استبدَّ بهما مثل هذا التسرّع، ومثل هذا الحماس!!! ولكنهم ـ يا لَقِلَّةِ التبصر! حسبوا قولي حسداً منهم، وليس عطفاً عليهم، وبالتالي ليس غيرةً على الأمة

التي لا يجوز ـ مطلقاً ـ أن تستهين بمصيرها، لا سيما وان جبروت العباسيين، وبطشهم، هما المالأن الساحات، وأن لا رادع لهم من عقل، وحكمةٍ واتزان، يوقفهم عن الغدر، والكيد بكلِّ من يقف في وجههم ومنعهم من الطغيان!!!

ـ هذا كل ما رغبت أن أوصله إليك... فهل من حوارٍ تريد أن تسمعنيه، وأنا الآن المصغي إليك؟

*****

ـ الحوار ـ

ورأساً سجد الإمام الصغير أمام الإمام الكبير متناولاً يده يطبع عليها قبلة احترامٍ، وهو يقول:

ـ أنا لا أراني مريداً حواراً أنت بالذات مكّنتني به، بل أريدُ إسماعكَ صوتي الذي أخذت منك كلّ نبرةٍ من نبراته ـ وهي صدقٌ منك، وبُعْدٌ، وعمقٌ، واعتمادُ رويّة... فاسمح لي أُسمعْك ـ بصوتي ـ حقيقة صوتك، وبشفتيَّ حفيف لسانك في أذن نفسي، والتي هي صدى روحك في نقش وجداني، وها أني أقول: لقد وعيت قصدك في كلّ ما رسمت ـ فأنت تريد أن تُفهمني: أن الأمة كلَّها هي إطارنا في وجودنا فوق الأرض ـ وهي كذلك... لقد كانت إطار جدِّنا النبيّ، ولا نزال ـ مثله ـ نعتبرها إطارنا في كل ما نسعى إليه، ولا يجوز إلا أن نرعاها بحماسٍ وروية، ولا بتسرّعٍ، من دون تحقيق يقوّمه الدرس:

لقد سطا على هذه الأمة بنو أمية، لا لأنهم ليسوا منها، بل

لأنهم منها في الصميم. . . ولكنهم قد حجَّموها بسياساتٍ قبلية تجبي لهم ـ وحدهم ـ دون سواهم من القبائل، كلَّ النفوذ، والثروات، والمغانم. . . ولأنهم لم يتفهّموا أن الأمة مجموعة أفراد وقبائل، وأنَّ مصلحة الكلّ غير مصلحة البعض ـ سترتدُّ عليهم كلّ الأمة، وتحطِّمُهُمْ سياسةٌ خاطئة خلَّت سبيلها القويم!!!

ـ ولكنَّ الثورة التي قام بها قسمٌ آخر من الأمة ـ وهم العلويون المستنجدون بالسفّاح والمنصور ـ كان لهم تحقيق مصيب، أوصلهم الى محو الريب الذي وقع فيه بنو أمية! ولكنَّ الأسلوب الذي اتبعه بنو العباس، وبدلاً من أن يكون الأجدى، انقلب الى الأردأ، راحوا به كما مشى به بنو أمية، الى استغلالٍ قبليٍّ ذاتي، سَيُهْزِلُ الأمة، ويُفقدُهَا وحدتها الشاملة المرصوصة بكل أفرادها، وقبائلها، . . وسيوصلها ـ حتماً ـ هذا الخطأ السياسي الفادح، الى ثورةٍ أخرى لا تنجح، ولم يجمع مقوماتها الفاعلة وعيٌ جديدٌ تنتجه الأمة من حقيقة علمها ومعارفها، وخُبُرَاتِهَا الضمنية المستيقظة من واقعها الحياتي، التجريبيّ النابع منها ـ بالذات ـ ومن أيامها الطالعة من حقيقة معاناتها السلبية، والتي ستصبح إيجابية، رويداً رويداً، تحت تأثير الوعي الآتي اليها من ضفائر العلم الذي سيثقفها، ويهديها الى سواء السبيل!

وبدأت الثورة ـ فعلاً ـ بجميع حيثياتها، مع العمّ عبدالله بن الحسن وولديه محمد وإبراهيم. . وهنا كان لك ـ يا أبي الإمام ـ أن تسدي النصح للزعماء الثلاثة: بأن يؤمنوا بثورةٍ

تتمكّن من محقِ، لا بني أمية بالذات، . . ولا ـ أيضاً ـ من محقِ بني العباس، . . بل من محقِ كل قبليَّةٍ تدّعي أنَّ لها ـ وحدها ـ حق سيادة الأمة، وجمع كل ما تنتجه الأمة في صناديقها الخاصة بها، واعتبار كل القبائل وسواها، عبداناً، يجمعون الولاء، والخضوع، لها وليس للأمة جمعاء، وهي كل القبائل، وكل الأفراد ـ بذات الحرية، وذات السؤدد، وذات الكرامة!

أجلَ يا أبي، لقد أسديت النصح للعم عبدالله، بأن يؤمن بثورةٍ فاعلةٍ، ولا بإعلانها غير فاعلة، بحيث يجب ـ حتى تكون فاعلة ـ أن تحاط بتحضير واسع الدرس، وعلمٍ بجميع الأسباب التي تفشلُهَا، وبالتالي تعيينها أسباباً أكيدةً لا بدَّ من التغلُّب عليها، حتى يتمَّ ـ لمطلق ثورة ـ نجاحٌ مرتجى!

لم ينشىء العم عبدالله درساً ملمّاً بجميع الأسباب التي جعلت بطش العباسيين فاعلاً لا يقاوم! ولو أنه ـ فعلاً ـ أنشأ الدرس هذا، لكان اكتفى بما قدمت له ـ يا سيدي ـ من نصحٍ يوسِّعُ له جيوب الحكمة، والتصبُّر، والإتزان. . . أو ـ بمعنى آخر ـ يوفِّرُ له وقفةً بطوليَّةً، يرغب ـ هو ـ أن يتحلَّى بها، تطالب الحاكم بأن يكون صادقاً في سياسة الأمة، بحيث لا يكون له إلا أن يفتخر بها، أكثر مما يجعلها ـ هي ـ أن تفتخر به. . . لأنها أنشأته وليّاً لأمةٍ تفانى في إعزازها نبيُّ الإسلام!!! أليس في القول هذا ـ يا أبي ـ موالاة لحاكمٍ بطّاشٍ أصبح مفروضاً، ونحاول نحن أن نخفّفَ من رعونة بطشه؟!!

هنالك أسبابٌ عديدة، لم يكن للعم عبدالله أية مكنة، من الوصول الى درسها، ولكننا، في هذه الخلوة المباركة، لا بدَّ من التلميح عنها، وهي لا تزال قائمةً في وجه أية ثورةٍ تتطلَّبُهَا الأمة في عملية إصلاح شؤونها العامة. وهي تعود إلى أجيالٍ عديدة، حرمتها من لمِّ شملها. وتثبيت وجودها... ولقد استلفتت انتباه النبي العظيم، فاختلى خمساً وعشرين سنة في غار حراء، لدرسها أسباباً موجبةً لهذيانٍ لا يجوز إلا أن يزول من صفحات غدها!! واستنزل لها سور القرآن الكريم، لتذوب على مهلٍ موجة الهذيان!

ولقد حاول الإمام علي مساندة الآيات، بنهجٍ بلاغيّ يحاول ـ مع الأيام ـ تنوير أذهان الأمة، وتخليص صدغيها من وطأة الأورام!!!

والأسباب العديدة؟ لا بدَّ لهَا من كلمة وحيدةٍ تختصرها، وننير لها عقول وأذهان الأمة... وعلى مهلٍ ـ قد يطول قروناً ـ يمحي الجهل في تعتيمه البصائر! وتتحد القبائل كلها في انضمام، هاشمي ـ أموي ـ عباسي ـ خزاعي... لا أثر فيه إلا لموجةٍ عاليةٍ واحدةٍ، هي الأمة، بلا زيغان ولا هذيان!!!

أما الكلمة التي ستنزل في السمع، واللبّ، والوجدان. فهي [الوعي] الذي قامت تسدِّد به خطوات الأمة، الإمامة المثلثة والمكتملة: بزين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق... انها منذ أكثر من سبعين سنة، تزرع العلم لينمو ـ رويداً رويداً ـ ويغطِّي كلَّ المساجد المنتشرة في

مدن الأمة. . . وها هو الوعي سيبثّ ذاته المشعَّة، من شفةٍ الى شفة، ومن مدينة الى مدينة، ومن صحراء الى جوارٍ عامرٍ بمنهج الذات. . . وهكذا، حثيثاً حثيثاً ـ ولو كان بين الحثيث والحثيث ـ ألفٌ أو ألفان من خطوات الزمان ـ ينتشر الوعي، وينهزم الجهل. وتصمد جامعةٌ صادقةٌ بجعفرها، يحاول الآن أن يخرسه خلف جدرانها ـ فردٌ هزيل الوعي اسمه: منصور الدوانيقي!!!

لم يصمت طويلاً الإمام الصغير، ورأساً استأنف البث:

ـ ليس في قولي هذا يا أبي الإمام، إعلان ثورة على حاكم،
ـ وإن يكن اسمه منصور الدوانيقي ـ لم يمرِّسْهُ الوعيُ بعد، لا بصدق الحكم، ولا باستقامات النفس، في بناء أمةٍ طالعةٍ من غيبوبة الذهن!!! أما الذين استدعوه الى الساحة العتيقة، فهم ذواتهم الذين فاتتهم نعمة الدرس الذي هو وعيٌ عام، تفتِّشُ به الأمة ذاتها عن فتاها المتمكن من قيادتها الى تلك الجنان!

أقول ذلك أمامك يا أبي، لأعني أنَّ الحاكم المستدعى الى استلام الزمام، هو الأحوج ـ من أيٍّ سواه ـ الى ثقافةٍ عامةٍ واعية، تستنير بها مضامين نفسه، ويسير بها وعياً مسؤولاً عن أمةٍ لا يلملمها إلا الحق، والصدق، وذلك الإخلاص. . . واني أرى الجامعة العلمية التي كفكفتها أنت في يثرب، هي المنوط بها ـ مع طالع الأيام ـ بثّ الوعي، عن طريق العلوم كلها، وإيصالها حتى الى الرعيان، أو بالأحرى، الى سدرة الحكام!!!

لن يكون لي، يا أبي، أنْ أُخَبِّىءَ نفسي بثورةٍ أَتْفُلُهَا بوجه منصور الدوانيقي، لأنه لم يحترمني كإنسانٍ ولم يحترم الأمة كموئل، وحسن زمام، . . وسيكون لي، من ضمن حدودي كإمام، أن أُبدي النصح لهذا الحاكم ـ بالذات ـ بأن ينوّر ذاته بوعيٍ لا تستقيم إلا به سريرة الحكام. . . وبقدر ما يرعوي، يتمُّ فأل الأمة. ولعل الارعواء يكون جزءاً من وعي، تنتظره قوافل الأيام!

هنالك حكامٌ جاءتهم الطبيعة من مكارم الذات، كأنَّ الوعي فيهم نابتٌ من جذور السليقة، فبارك الله للأمة بأمثالهم، يرثون الطيبة من معدنها الأصيل، وهكذا يا أبي، لا نذكر بالخير إلا عمر بن عبد العزيز، يدخل المسجد ويصغي الى جدّي الإمام زين العابدين، وهو يشرح الدرس، فيؤخذ بقيمة الجهد، ويدرك الأبعاد الرامية الى تثقيف الأمة، وتثقيف الحكام، بوعيٍ ينقلُ الأمة، وينقل الحكام الى سويّةٍ لائقةٍ بقيمة الأمة، وقيمة الإنسان. . . وها هو عمر بن عبد العزيز، يأمر بتوسيع المسجد أربعين ألف ذراعاً، لا لتوسيع المسجدللسجود، وللصلاة، بل لتوسيع المدى المستحيل ـ رويداً رويداً ـ الى علمٍ، وإلى فكرٍ، والى وعيٍ آخر، تتلوّن به: لا سريرة الأمة. بل ـ وأيضاً ـ مدارك الحكام. . .

الى أن يتّسع هذا المدى المفتوح أمام البصائر، تكون قد ذابت الثورات الصغيرة، وهي الحقيرة بحد ذاتها، بإحلالها حاكماً ملأ الساحة ـ بجهله ـ كفراً، وبطشاً،

ومجوناً. . . ليحلَّ محلَّهُ ضبٌّ آخر، ليس له ـ من الجهد ـ إلا ذات القماشة، وعين المسيرة!!!

أجل يا أبي، عندما يشمل الأمة وعي نبيه. . . تنجلي الأهـداف. وتتـوضـح المقـاصـد، لتكـون الثـورة الكبيـرة الفاهمة من تحقيق الأمة الكبيرة الواعية، في رفضها أياً لا يُوَجِّهُهُ الوعي الى إدارة السفينة. . . والأمة الكبيرة هي التي يوسعها العلم، وحقيقة الوعي. . . لا القبليَّة التي تشرذمها الفتلات الجاهلية الأمية!!! أمَّا حكَّام اليوم ـ فإنهم نتاج ثورةٍ صغيرة ـ وان يكن بعضٌ منا ـ نحن ـ قد اجتهد في تنقيحها الواقع ـ حتماً ـ في الفشل!!! وما علينا نحن ـ أيضاً ـ إلا أن نقابلها بكثيرٍ من الصمت. . . أو فلنقل ـ بالرضوخ ـ. . أو فلنقل ـ أيضاً ـ بالنصح، حتى نغيِّر ـ ما أمكن ـ من مسارِها ومضارِّها!!! لأن ابدالها بغيرها ـ لو تمَّ له الوصول ـ لن يأتي إلا بمثلها [لسوء طالع الأمة التي لم تتمتع بعد بحقيقة وعيها المطلوب]. ـ أما الحاكم الذي أراد العمّ عبدالله حذفه، فهو المقتدر ـ في سلبية الاقتداء ـ وهو الذي أصبح متمكناً من حذف نصف الأمة، قبل أن يتمكن النصف الثاني من حذفه!!! أما أن نلاين هذا الحاكم ـ ما أمكن ـ وأن نحاول إطلاق، ما أمكن ـ أيضاً ـ فدم الأمة الذي نريد أن نحقنه، هو الذي يفرض علينا الملاينة هذه، وذلك الإصلاح المفترض.

ـ على كل حالٍ يا أبي. . . لن يكون لنا أن نكيد الحاكم، لأنه يكيدنا، بل أن نقابله بالغفران، وبالنصح ـ ما أمكن ـ فهو منا، ومن الأمة التي تتحمّل ـ وحدها ـ الضيم!!! أما

التصبُّر والانتظار، فهما لنا في المجال الطويل في حقيقة الالتزام، ولقد أبنت يا أبي أن وعي الأمة لن يتمّ، إلا رويداً رويداً، مع طول التصبّر. وطول الإنتظار!!!

كأنَّ الإمام الصغير قد اكتفى بتقديم قسط وفير مما عليه أن يقوم به من حضرة أبيه، لإقناعه بأنه سيقفو خطاه عندما يتسلم منه الزمام. أما الإمام جعفر، فإنه المصغي بكثيرٍ من الرضى الى حديث ابنه موسى... وقبل أن يوجه إليه كلمة الشكر، مع كلمة المباركة، سمع ضجّة أمام البيت، ثم قرعةً على الباب، فهبَّ موسى وفتح المصراع، ووجد أمامه ـ واقفاً كالشبح ـ عامل المنصور في يثرب، ورأساً دخل بابتسامةٍ عريضة، وهو يقول للإمام جعفر:

ـ أحمل إليك يا سيدي الإمام، من الخليفة المنصور، معضلةً ما تمكَّن الخليفة من حلِّها، وهو يرجوك القدوم إليه، ليسمع منك ـ حلَّها ـ بإذنه... أظنّك أمانةً في عنقي... أحرسك، وأوصلك الى سيدي المنصور، حلاَّلَ معاضل...

وأجاب الإمام، ببسمة عريضة أخرى، وهو يقول:

ـ وهل بإمكان جعفر غير تلبية المنصور؟!! فهيَّا بنا في الحال الى حضرة المنصور.

والتفت صوب ابنه موسى وهو ـ أيضاً ـ يُوَرِّي:

ـ انتظرني الى غدٍ، أو الى بعد غد... سأعود إليك...

ولكن... حلاَّلَ معاضل!!!

أما الإمام الصغير، فإنه بقي في صمت رهيب، وهو غارق في تحليل المعضلة!!!

* * * * *

المعضلة

لقد شدَّ المنصور القافلة من بغداد، ووجَّهَهَا نحو يثرب، ومعها رسالة منه الى عميله في يثرب، يأمره فيها بأن يأتي ـ تواً ـ الى جعفر الصادق، ويبلغه وجوب حضوره الى بغداد، على متن القافلة المرسلة خصيصاً اليه، من دون أن يسمح له ـ حتى ـ بتغيير هندامه. . . لقد اعتاد الإمام جعفر على مثل هذه الأوامر المستعجلة التي ـ غالباً ـ ما كان يوجهها اليه أمير المؤمنين منصور الدوانيقي. . . لهذا نهض الإمام سريعاً الى التلبية!!! وكذلك إمامنا الصغير موسى، فإنه لم يفاجأ بسرعة الأوامر التي كان غالباً ما يلجأ اليها أخو السفاح، من دون أن يسمح بأية مماهلة. . . وكثيراً ما كانت مقابلته تحصل كأنها حوملة تسبق الإعصار، ثم تتلاشى كأنها غمامة صيفٍ ليس فيها قطرة من مطر!

ولكنه ـ هذه المرة ـ أوجس الإمام الصغير خيفة من شيء وهو يقول في ذاته: أخاف أن تكون البداية هذه سحابةً ناشفةً، وفي ذيلها زوبعة. . . وقاك الله يا أبي من زوابع الفجَّار!!! وسكت موسى، وفي يقينه صبرٌ الى غدٍ يصلّي، وفي طول الصلاة آمالٌ يباركها الانتظار!

وما تكون المعضلة؟ راح يحسب الامام. . . وكيف يراها المنصور بلا حلٌ، حتى يأتي الإمام جعفر، وبصدفة يمحوها؟!. ولكنك يا دوانيقي ـ كما يبدو من هزيز الأمس ـ لا ترتاح من وميض المعضلة، إلا بحذف المعضلة من تحت عينيك!!! تلك هي المعضلة، تتمثّل تحت عينيك بحذف الصادق يطالبك [بِفَدَكٍ] ليست لك. . . انه خطأك الطويل يا منصور، بدأ به ـ قبلك ـ أبو بكر الصديق. . . بدأ به صغيراً، ولم يلحظ أنه صار كبيراً عندما وصل اليك. . . بدأ به عندما حذف قطعة الأرض ـ فدك ـ من إرث فاطمة، ليجعلها إرث الجهاد. . . ورضيت فاطمة، وكلّ من امتطى مثلها حلبات الجهاد، بإرثٍ راحت تتمدَّد به ساحات الجهاد. . . لقد اتسعت حدود فدك، عندما يَمَّنُوها بالجهاد. . . لقد كانت عدة شجيراتٍ من نخيل، وبعض ترابٍ من رملٍ وغبار، وملكاً حقيراً في الحجاز لبعضٍ من يهود، خانوا الأرض، وخانوا الله، والنبي، وكذبوا على مصداقية الإنسان. . . ولكنهم، إذ نقلوها ملكاً الى تصرُّف النبي، صبغها النبي بجهاد الإسلام. وأراد أبو بكر المسلم، أن لا تذوق طعم ثمارها شفة فاطمة بنت نبيّ الإسلام. بل كل شفة، من شفاه المسلمين!!! وصحَّ عداء أبي بكر لفاطمة، ولعليٍّ، أول من قاد الجهاد، وساند النبي في تركيز الإسلام. . . ومشى الإسلام، كما مشى به القرآن، واتسع الإسلام، واتسع الجهاد، واتسعت الأرض، ومن ضمنها فدك، حتى ذابت فدك خيطاً على المغزل الذي تألَّفت وتوسَّعت به حبكة النور. . . وها نحن اليوم نسأل ـ بعد مئةٍ وخمسين سنة ـ أين هي فدك؟ أو إرثُ فاطمة من فدك؟ وكم هي مساحة أرض فدك؟ وكم هو ثمن فدك؟؟؟ وها اني أنا المسمى الصغير من بين الأئمة الذين أوصى إليهم نبيّ الإسلام بإدارة الأمة، كما أوصى لابنته فاطمة بنحلة فدك. . . أجل، إني أسأل نفسي: ما هي مساحة فدك؟ وكم هو ثمنها ـ وقد غدت انضمامية الى رقعة

الإسلام ـ ولكن الجواب الذي يرنّ في حنايا الطوية، ما تمكنت ـ أنا موسى ـ إلا أن أصوغه هكذا:

ـ تبدأ حدود فدك، من فدكٍ بالذات، الى عدن، الى سمرقند، الى إفريقيا، الى سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينيا.

انها ـ بالفعل ـ حدود الأمة التي غطّاها الإسلام ـ وغطّى معها مفاسح أخرى من رقاع الأرض، أكان في الشرق، أم كان في الغرب ـ ليكون الاسلام ديناً توحيدياً، تنادي به المآذن. مثلما تتخشّعُ به نواقيس الكنائس، مثلما تتهامس به جوامع الحكماء.

أقول ذلك لأعني، كما أضحت سيدتنا فاطمة تعي: بأن المطالبة كانت بإرثٍ صغيرٍ وأضحت بإرثٍ كبير، لا يقدر أن يمتلكه فردٌ ان لم يكن في رباطه الاجتماعي الموصوف بوحدوية الأمة!!!

أجل، أيها المنصور ـ اننا نطالب، نحن الإماميين، بإرجاع فدكٍ الينا، لا لنأكلها رطباً، ولا لأن نبيعها تراباً... بل لأن نعززها بجهادٍ مستمر، يدعم إسلامها، ويوسعها فدكاً لا يوازيها ثمنٌ من الأثمان...

أما المنادات بإرجاعها إلينا ـ فلأن نبياً عظيماً قد انبلج منا، ونجّاها من يهوديةٍ كذّابة، وَوَسَّعَهَا بالأمة، لتحرير الأمة... واستنزل للأمة كلَّ الضوابط التي تحميها من مطبات الهبوط!

تلك هي الأمة التي استرجعها الى صدره نبي الإسلام، وسلّمناها إرثاً أسميناه فدكاً مربوطاً بعقد الأمان ـ واستمطر علينا من السماء عهداً بأن نحافظ على العقد من غدرات الزمان...

ولكنَّ أبا بكر الصديق ـ ولا نزال نتمنّاه صدّيقاً ـ سحب العهد من

يميننا الى شماله، وسدَّ بأصابع كفّه اليمنى: عينيه، وأذنيه، وملعب لسانه... حتى لا يرى، ولا يسمع بنود الوصية... وحتى لا يتكلّم عن مضمونها... أما النبي الذي غفا غفوته المثلى... فلينم قرير العين ـ راح يقول الصدِّيقُ في سره ـ لأن من يخلفه، سيكون الأوعى في تخليص الإرث من هفواتٍ لا يجوز أن تحصل: أكانت إداريةً، أم كانت عقارية... أما الأمة، فستتناولها سياسات الجهاد... أما فدك؟ فلن تبتلعَهَا زوجة عليٍّ، بل كلّ ساحات الجهاد!!!

هنالك الإمام الصادق ـ وان يكن له حق المطالبة بإرجاع فدك اليه ـ منك أيها المنصور، ومن السفاح، ومن كافة ملوك بني أمية، وحتى من عثمان بن عفان، ومن الخطّاب، وبالتخصيص من أبي بكر الصدّيق ـ فإنه لم يفعل ذلك أسوة بأبيه الباقر، وجدّه زين العابدين... لا لأنكم نحرتم الأمة ـ بعد النبي ـ غيلةً، وغدراً. واختلاساً... بل لأنكم ارتكبتم الجريمة بجهلكم: ما هو الحق، والعدل، والنبل، في سياسات الحكم، وكيفية إدارة الأمة، وضبطها في منهجية رسمتها عبقرية، جهادية، رسالية، نبوية... اتصفت بها أمة الإسلام...

أجل، أيها المنصور، ان أبي الإمام جعفر الصادق، لم يطالبكم بإرجاع فدك الى نصابها المتسع بها: من جنان عدن، الى سيف البحر... بل راح الى تنوير أذهانكم بوعيٍ مستنيرٍ بذاته، يحققه العلم النابع، أيضاً ـ من حقيقة ذاته.. وبعد ذلك تدركون: أن فدكاً هي الأمة الملبية شوقَ النبيّ، وان العناية الصادقة التي تسوسونها بها، هي التي ترفعكم ـ بها ـ الى سِمَاكٍ، لستم الآن بعالمين كم هو مقداره في دنيا الشمم!!!

منذ سبعين سنة أيها المنصور، والجامعة العلمية في يثرب، تُقَبِّلُ جبين عمر بن عبد العزيز، لأنه احترمها، ووسّع مدارجها بأكثر من أربعين

ألف ذراع، حتى تزيد مقدرتها العلمية في تثقيف الأمة، وتنوير عين الحكام.

ومنذ أكثر من عشر سنين ـ أيضاً ـ والإمام الصادق، يُقَبِّلُ يمينك أنت أيها المنصور، أو يا أمير المؤمنين، حتى لا تهدم حجراً واحداً من عتبة البنيان!!! ولكن المعضلة التي تحاولُ ـ أنت ـ حلّها... هي التي تعشِّشُ في عتمة روحك، بأن تهدم العتبة، والسقف، والجدران، على رأس الصادق ـ تحسباً منك ـ بأن تحذفه قبل أن يطالبك ـ بعد غدٍ ـ بإرجاع فدكٍ إليه... وعندئذٍ ـ أيُّ معنىً لك راعياً قَشِيبَ العصا؛ بين الرعيان!!!

لقد بقي الإمام الصغير، طيلة شهرين ـ يتلمّظ هذه الأفكار، ويزيدها درساً وتمعيناً... وأخيراً جاءه علمٌ بأن القافلة، بقيادة عامل المنصور في يثرب ـ تصل بعد يومين... وبعد يومين ـ بالتمام ـ ترجَّل الإمام على عتبة الدار. وقَفَلَت القافلة راجعة الى بغداد...

أما الإمام، فما كادَ يلملم فتاه الأسمر، الى بين ذراعيه ـ حتى رجاه بنقله الى فراشه، لأن طول الطريق يهدم حيله ـ ولأن ألماً في أمعائه يقرع خاصرتيه بما لا يطاق!!!

لقد قرأ الإمام الصغير في عيني أبيه الكبير، ـ قبل أن ينام ـ حروفاً مكتوبة بلونٍ فاقعٍ أصفر، وبلون أحمر فاقد اللمعان... وأدركَ أنَّ المعضلة قد حلَّها عامل المنصور، وهو راجع مع أبيه الى يثرب. ـ وأنَّ سمّاً مقشوباً بالطعام، وقد تذوَّقه الإمام، قبل أن يصل الى فراشه وينام!!!

* * * * *

الإطار الثالث

الإمام موسى الكاظم

- الكاظم
- مناجاة الكاظم
- خط الكاظم
- مع المنصور
- مع المهدي
- مع الهادي
- مع هارون الرشيد
- في مقابر قريش

الكاظم

ولفَّ الإمام موسى جسد أبيه الراقد، بقميصٍ وعمامةٍ كان يرتديهما جدُّهُ الإمام زين العابدين. . . وحملوه الى البقيع حيث واروه الثرى قرب آبائه العظام. . .

ولما رجع الى البيت، كان هولُ الصدمة يغلِّفُهُ بصمتٍ رهيبٍ، لا دمعٌ فيه، بل سكونٌ غائرٌ في عينين شبه مغمضتين، ينبجس منهما شجىً آخر، لا اسمَ له غير الخشوع!!! أما زوَّارُه الكثر ـ وقد توافدوا يعودونه للعزاء ـ فإنهم رهبوا المجالَ في صمته، وحجزوا الدمع في مآقيهم المرتهنة بمثل هذا الخشوع!!!

من جملة الذين زاروه للعزاء ـ شيخٌ وقورٌ مخفيٌّ تحت جعادات وجهه ـ دخل على الإمام، وتوَّاً توجَّه إليه، وقبَّلَ يده، وهو يقول:

ـ أكمل مسيرة أبيك ـ إذا تمكنت.

وهذا كلّ العزاء، وكلّ الثراء.

وطول البقاء!!!

ثم انسحب. . . اما الامام، فإنه بدا، كأنه ابتسم، أو كأنه اكتأب. . . ولكن. . . . لا ابتسم، ولا اكتأب. . . بل انه التهب بنحيبٍ ضمنيٍّ جعله يلحق بالشيخ، ليحتجزه في مخبأ سرّيٍّ من حنوة لبّه، فيكاشفه بسريرة نفسه، ساعة تزدحم عليه رزايا الدهر. . . وما أشدها الآن وطأةً عليه، غيبة أبيه الصادق في نقطة سمّ: صغيرةٍ صغيرةٍ كأنها حبة سمسم!!!

وابتدأت ـ منذ هذه اللحظة ـ مناجاة الكاظم ـ على أن لا ينتهي من الارتسام بها حتى اليوم!!!

* * * * *

مناجاة الكاظم

أمَّا المناجاة الآن، فإنها هكذا ارتسمت، وهو يرتمي في عبّ الشيخ، وآهةً في صدره تقول:

ـ لقد تركتك يا سيدي تُقبّل يدي، من دون أن أحنو ـ أنا ـ الى جثوٍّ يقبّلُ قدميك!

لقد عرفتك يا سيدي: من غيومةِ الدهر في محجريك، ومن إلتفاف الحقب بفَوديك... فأنت تمثيلُ الأمة، عابرةً خطوَهَا الطويلَ والعريضَ في فيافيها المضرَّجةِ بكلّ مآتيها الخارجة من رملٍ الى خصبٍ، ومن خصبٍ الى غبارٍ أنساها طعمَ جنَاهَا... يا للرجوع اليائس! كيف يردُّ الشبعانين الى لوعات المجاعة!!!

ما لَنَا والرجوع كثيراً الى الوراء يا سيدي، وأنت تعرف كيف حقَّقت الأمة ـ في ذلك الحين الغابر ـ إقبالَهَا على انتاجِ ثمينِ أشبعَهَا، ثم إدبارَهَا عنه، فأجاعَهَا!!! إنَّ في التاريخ إضباراتٍ لم تغبْ عنك قراءتُها: لا مع الجدود من

بني ادم، وبني آشور، وبني كنعان. . . ولا مع السبي المتدهور ـ زحفاً ـ الى الوراء، ممَّا أرجع الأمة الى امتصاص الرمل، والاكتفاء بما يسدُّ البلغة!!!

إنه شأننا الحاضر يا سيدي، وقد حدثَ جديداً تحت أعيننا، تلقَّطَ به رجلٌ آخر، أنبتتهُ الأمة ـ من حرفها الجائع ـ حتى يؤلّفَ لها مائدةً جديدةً يملأها خبزاً وقديداً. . . انه القرآن يا سيدي ـ تنزَّلَهُ من الخير العلويّ رسولٌ ونبيٌّ، فنادى الأمة بالذات، وراح يعلمها كيف تعيد الى حياضها ما يردُها الى خبزٍ، والى بُلْغة!

ولكنّي أعرض أمامك الآن يا سيدي ـ وأنت تُمَثّلُ الأمة بكلّ أفراحها، وكل أحزانها ـ كيف أنَّ الأمة الغرثى، أقبلت على رسولها، تأخذ من روحه زادَ طريقها، شبعاً لها، من يوم الى يوم، ومن جيلٍ الى جيل. . . ألم تعتنقه، كأنه ضوء الطريق، ونور الهداية؟! ألم ترها ـ في غدير خم ـ كيف ركَّزت تحت عينيه إسلامَهَا الذي سيغطّي ـ غداً ـ كلَّ الشرق!

وأيضاً ـ في غدير خم ـ ألم ترَ، بعينك الصغرى، هذا الرسول رافعاً باعَ عليّ في الهواء، وهو يقول:

ـ إنه ابن أبي طالب ـ نسيبي وحبيبي ـ ويا ما أحبَّكم تتقبلونه مدى العمر، وليّاً على إسلام، لكم، سيبقى مشرقاً بكم أبد الدهر!!!

وهتفت الأمة كلها ـ في ذلك الحين ـ باسم عليٍّ إماماً تتبارك به مهجتها؟!!

وأغمض الرسول عينيه ونام. . . ولم تنم عينٌ أخرى تلفلفت بالاسلام، ومزَّقت حرف الذمام!!! يا للعين الأخرى!!! من تكون هذه العين الأخرى، أيها الشيخ الوقور؟ هل هي عين الأمة التي رأيناها تملأ الساحة كلها في غدير خم؟!! أم انها عين الحقد! تزوَّرت بالاسلام ـ فقط ـ إشارةَ انضمام!!! وراحت الى انفصامٍ يوصلها الى كرسي السيادة!!!

تلك هي الأمة يا سيدي الوقور. . . انها محض براءاتٍ بقيت لها من معدنها الأصيل، من دون أن تدري كيف تتخلَّص من دناءاتٍ يرقص بها البهلوانيون. . . والبراءة يا سيدي، وان تكن بحدّ ذاتها جميلة ـ غير أنها ـ مع استمرارية الوقت ـ تغدو سذاجةً يتلاعب بها هذا النوع من البهلوانيين الذين هم ـ بكثير من الوضوح ـ طغمة الحاكمين المتسيِّسين على الأمة. والمتلفظين بسذاجاتها، كمصدرٍ وحيد لملء صناديقهم بالجاه والثراء. . . وقصورهم المليئة بإغراءات المجون، تكذب لها الأبالسة على بسطاء الروح، من دون أن يروا كيف تكون النجاة من وهم الطلاسم!

وعصى البهلوانيون الرسول العظيم، وكلفوا ابن ملجم بحذف ابن أبي طالب من الدوحة الكبرى. . . وحَذْفُ ابن أبي طالب ـ بحدّ ذاته ـ من مجتمع الأمة! أليس هو التجديف على القيمة المثلى التي تتفرَّد بها شخصية علي بن أبي طالب، ويعزّ على غيره من الناس أن يتلقط بمثلها: عمقاً، وطيبةً، وأصالةَ جوهر!!! أين هو عليٌّ في كَفَّة الميزان؟ يحذفُهُ بهلوان!!!

ولا تدري الأمة كم هي خسارتها من الدرّ، واللؤلؤ، والمرجان!!! ولقد توالت عليها الخسائر، من دون أن يكون لها رقم حسابي كان لها أن حفظته في سالف الزمان... ونست الآن أن ترقّم به حجم خسارتها: بالحسن، أو بالحسين!!! يا ضيم جدي زين العابدين... يتحمّل وحده ثقل الضيم بالحسين، من دون أن تدري الأمة... انها هدرت ـ هي ـ دم الحسين!!! وأدرك جدي الزين، أن لا أحد من الثقلين: لا الإنس، ولا الجنّ، يتمكّن من محو السذاجة من مقلة الأمة، إلاّ فاعلٌ واحد، هو العلم الكبير، لا العلم الصغير... وهبَّ الى بوابة المسجد، يشرّعها لتلقين العلم... وها هو يُحَمِّلُ ابنه الباقر جهدَ التفتيش عن كل كتابٍ، في أي قطرٍ كان، فيجيء به الى الجامعة المفتوحة على مصراعيها، ويلقِّنُهُ الأمة علماً كبيراً موسوعاً: فيه الحساب، وفيه الأدب، وفيه الفلسفة، والفقه، والتاريخ، والجغرافيات... وفيه الفيزياء والجزئيات والكليات: من الكيماء أم المعادلات...

ثم يأتي ابنه الإمام الصادق، فيتناول المعارف كلّها الى الرحب المطلّ على مدى العبقريات... انه العبقريُّ الهابط على الأمة بألف هلالٍ تمحو عتمة ليل الأمة، وتمحو سذاجاتها العالقة في خيوط الذهن!!!

اسمعني مليّاً أيها الشيخ الوقور... أليس عاراً ـ أيضاً ـ أن يُبقر بطن جعفر الصادق بنقطة سم؟!! كيف يسمح ـ لنفسه ـ حاكمٌ بهلوانيُّ الفطرة، وسعداني الرقصات، فيمدّ كفّيه الى عنق عالِمٍ، يدير جامعةً تهذِّبُ أمةً وتمحو منها السذاجات... فيخنقه، ويمتصّ وريده، كأنه دجاجة في قنّه ـ يذبحها متى شاء، ويبقيها إذا شاء!!! والأمةُ؟ يا سيد الرجاء.. مَن غيرُهَا يُرغم حاكماً ويصدّه عن ارتكاب الموبقات!!! مَن غيرها يوصله حاكماً الى ساحات الرهان، ان لم يكن أميناً على تسديد الرهان...

ولكنَّ الأمة ـ يا للتعاسات ـ لم يكتمل وعيٌ لها بعد، تجلو به مغزلَهَا، والمكوك الذي تبسط عليه فتلة الخيط، لتنسج ثوباً جديداً تلبسه في ليلة العيد!!! لقد شدَّ لها جدي الأول، خشبة النول، وقدَّم لها جدي الثاني فتلة المغزل. . . ولكن القميص الذي نسجته أنامل الجهد! مرَّغته بالدم همجية الحقد، وتركت الجسم في عريه المخزي!!! وغاب دهرٌ، وجاء دهر!!! وكان للإمامة المثلثة عزم جديدٌ بإنشاء جامعةٍ تكون منارةً تنير الليل من عتماته السود، . . ليكون لها ـ من جاهلٍ دوانيقي، تحطيم المنارة على رأس من أشعل النار على رأس المنارة!!! وها هو الصادق من خلف الستارة يقول للمنصور:

أنت وحشٌ، لا تليق بك: لا مهامس النور ولا ملاقط الحضارة!!!

لو أنها الأمة، تسمع الآن هدرة الصادق!!! أتراها تهبُّ وتحطم العرش على رأس أمير المؤمنين، وتسد منخريه بوسادته الديباج؟!! واهاً عليها من أمير المؤمنين ـ بالذات ـ يحطم الجامعة على رأس الصادق، ليبقى الجهل وسادة الأمة، تغفو عليها. . . وإذ تحاول أن تستفيق، يهمزها بسياطه، حتى لا تستفيق!!!

وأنت أيها الشيخ الوقور. . . أتتمنَّى لي أن أكمل السير على خطٍّ مشاه أبي قبلي؟ وهل يكون لي غير هذا المبتغى؟. . ولكنَّ الجلف الذي حطم الجامعة على رأس أبي، سيحطمها على رأسي ان أعدت لها البناء!!! فكيف تريدني أفعل؟!! أأستدعي الأمة الى المساندة! ولكنك ترى يا سيدي أنَّ اكتمال الوعي لم يُسْتَجَبْ بعد! كما وإنَّ استبسار الهمم ـ من غير حينونتها ـ يضرِّجُ الأمة بالدم، ويعيدها الى نقطة الصفر!!!

لا. . . لن أفعل ذلك، . . صوناً لعظام الأمة من عملية السَخْن!!!

فالمنصور، وخطّهُ الأعسر ـ هو المتملك الساحات، بهمجية بطشه، ولا صيانةُ الأمة، ولا رعايتُها ـ واردتان في انتصاب ميزانه!!!

اسمعني أيها الشيخ ـ اسمعني، بكل ما في عيني من غيظٍ... ومن قهرٍ وكظم!!!

سأَصبرُ طويلاً، وأنا متحمِّلٌ ثقل القذى من منصور الدوانيقي... ومن جميع من سينتسلون من فقراته! علَّ الصبر الطويل، وهو الملفلف بالكظم الطويل، يساعدني في توفير الدراية للأمة، حتى تعبرَ ـ بنوعٍ من سلام، ومن بعض طمأنينة ـ من حالاتٍ تعسُّفيةٍ، الى حالاتٍ أخرى، ينقشع فيها أملٌ.. وينفرج فيها رجاء...

وإننا [يا سيدي المليء بالرجاء] نسجد، ونصلّي لله ـ عزّ شأنه ـ حتى يصونَنَا ـ والأمَّةَ من كل بلاء!!!

* * * * *

خط الكاظم

باكراً جداً تعيَّن الخط الأساسيُّ العام لنهج الإمام الكاظم في تعهّد الإمامة ووقايتها ـ ما أمكن ـ من الأخطار المحيقة بها في عهدِ عباسيّ، يميِّزه اللؤم، والغدر، واغتلاس الذمام! ان تَعَهُّدَ الإمامة ـ وهي في مقصده العام، الأمة ـ لأمرٌ جليل في مثل هذا الظرف الرهيب، وكذلك فإن وقايتها من رهصة الاعصار في تقلبها من شدقِ سَفَّاحٍ الى بلعومِ تمساحٍ، لأمر مخيف أيضاً، لا تتمكَّنُ منه إلاَّ درايةٌ حكيمةٌ، في ظلٍّ من تحمُّلٍ، وتصبُّرٍ، وتوسيع أناة!

ان الحوارات والدراسات التي كان ينشئها الفتى موسى مع أبيه الصادق، تشير الى انتظام الخط العام الذي سيركِّزُ الآن عليه نهجه في إدارة إمامته، والعبور بها ـ بين النقط ـ لعلَّ الحكمة، والدراية، والاتزان، تخلِّص الأمة من وابلٍ تهدِّدُ به حوملة الإعصار!

لقد استمعنا الى كل ذلك في دراسات الأمس، وقد تناولت ـ كلُّها ـ وطأة العصرين: العصر الأموي الذي انقصف، والعصر العباسيّ الذي اتّصف بالقهر والغدر، والفتك!!! وجاءت الحكمة تقضي بأن لا بدَّ من تصبُّرٍ وتحمُّلٍ، وتقشُّفٍ... ومن ملاينة ومداراة، ان لم تمنعا الإنفجار تخففان من جرفه، الى أن يغيِّر الله من أمرٍ كان مفعُولا!!!

ولكنَّ الملاينة التي انجرَّ بها الصادق الى معاطفة المنصور، لم تحرز أكثر من نقطة سم! وسَّعت عين ابنه موسى بالدمع المستحيل الى كظمٍ، والى صبرٍ، والى ملاينةٍ مبطَّنةٍ بسجودٍ يحسبه المنصور ـ سجوداً له ـ وهو في باطنه، كما في ظاهره ـ على السواء ـ سجودٌ لله ـ عزَّ شأنه ـ في تخشعِ المؤمن أمام الإرادة السرمدية التي ستسحق الظالمين المستهينين بالعباد، في تحميلهم وِزْرَ أياديهم المعجونة بزفتِ وكبريتِ الجحيم الذي فيه سيوأدون!!!

لقد تعيَّن خط الإمام الباكي على أبيه بدمع الرجاء! لقد عيَّنه بالتقوى التي هي سجودٌ، وصلاة ـ والتي هي، بذات الوقت ـ دينُ الأمة، ودينُ الحق، والعدل، والآيات، لا دين الظلم، والفتك. والتعدي على الحريات والكرامات!!!

أتراه سيرعوي المنصور، ويصمت به الخجل، أو تقريع الضمير!!! وتراه ـ أيضاً ـ تستفيق به إنسانيّة لم يبق له منها سوى ظلٌ ذَنَبٍ من أذناب القرورد!!!

أنا لا أظنُّ الإمام موسى الكاظم إلا فناناً موهوباً ومأخوذاً برهبة فنّهِ، أكان في سجوده الطويل المستحيل الى خشوعٍ بارع القسمات، أم في صلواته المديدة، كأنها سلالمُ تَرْفَعُهُ من أرضٍ الى سموات!!!

لقد بدا له ـ بعد انخطاف أبيه من أمام عينيه ـ أن يعرض ذاته كلَّها ـ لا في زاوية بيته وحسب، بل في طول وعرض الساحات ـ ساجداً طويلاً، ومصلِّياً مديداً لله المتقبل السجدات والصلوات.. وما ذلك إلا لغرضين أساسيِّين وبهيِّين:

أولاً: لتراه الأمة ـ وهو وليُّها المؤمن ـ كيف تكون التقوى، خضوعاً صادقاً لله، وإيماناً به، وتلبيةً لدعوة النبي الكريم أُمَّتَهُ الى واحة

الإسلام الذي هو خلقٌ كريمٌ في تهذيب النفوس وفي إبعادها عن المـوبقـات. . . وليكـون الإسـلام ـ بحـد ذاتـه ـ تمـاديـاً بالمكرمات. . . وهل تبنى ـ مطلق أمةٍ ـ إلا بالمكرمات؟!!

وثانياً : ليراه الحاكم ساجداً، ومصلياً، ومستمطراً رحمة الله على العباد، وغفراناً للمسيئين الخارجين عن ذمة الحق، وروعات السداد!!!

هكذا قصد الإمام أن يقوم بدوره القيادي تجاه الأمة، في عمليةٍ مباشرةٍ تتداور خلفها توريَاتٌ تنام فيها تنديداتٌ بالحاكم المنتدب لسياسة الناس، بالحق، والعدل والصواب. . . وإنْ تَفُتْهُمْ هذه المكرمات، فبئس المصير مصير الجاحدين الخائنين!!!

لم يكن أسلوب الإمام فرضاً يمليه الدين، أقلَّ مما كان رأياً يمليه العقـل المستجـدي نعمـة اليقيـن. . . ومـا كـان العقـل ـ ولا مـرّة فـي علـم الاجتماع ـ غير متوسّلٍ الى الدين بأن يبقى ـ أبداً ـ ضابطاً مجتمعات الانسان في المحارم التقية الصائنة من الزيغان!!! وصَدَقَ القول: لا تبني أمةً غيرُ الفضـائـل!!! ولا تهـدمُهَـا إلا الـرذائـل!!! ومـن أرذلهـا إطـلاقـاً: الفسـق، والكذب، والظلم الخارج من رجمة الشيطان!!!

ولكن الامام ـ لسوء طالع الأمة ـ لم يكن بمقدوره إشعال نارٍ يكبُّ فيها كلَّ هذا الهشيم من العهر، والظلم والطغيان، مرجئاً ذلك الى تمكُّن الأمة من وعيٍ يباركها، وينهض بها من استسلامٍ حزينٍ، الى استجمامٍ متينٍ يعلِّم الحاكم قراءة حروف الحق، والعدل، والطهر في الأشواق البانية عظمة الإنسان في مجتمع الإنسان.

كلَّ ما كان في مقدور الإمام، في تلك الساعة الهزيلة النبضات، عزمٌ متينٌ صحيح، بقي مستمرّاً في بنيته الروحية المنتقلة اليه عبر الجذور المتينة

والممتدة من النبي الكريم وفتاه الآخر المعزَّز الاسم بعليّ ـ الى أبيه جعفر الحامل الصدق، والعلم، والنور. . . أمَّا أَجرُهُ الباقي له في مثواه المضيء. . فنقطة سمّ ما قدر أن ينفحه بها في زوادة الخلود، إلاّ بطلٌ صنديدٌ، لا اسمَ له في النَصر، إلا المنصور!

صحيح، لم يتمكن الإمام موسى الكاظم من جمع سلاحٍ ينازل به بني العباس إلا رمحاً أَسيلاً من معدن التقوى، له حدَّان طيِّبَا الرهافة: رهافة الصلاة، ورهافة السجود!!!

لا يجوز أن نحسب أَنَّ المنصور ـ بالذات ـ وهو الخدَّاع، والبطَّاشُ، والكذَّاب، لم يستهب رمح الإمام موسى الذي نزل به الى ساحات الصراع. . . انه رمح التقوى، سجد به أَمام المنصور، وصلَّى به أمام الناس. . . أَمَّا المنصور، فإنه تسلَّى به، على خشيةٍ من ربه، جعلته يحجم عن ضرب عنقٍ ساجدٍ أمام خالقٍ جبّارٍ يتمكَّنُ ـ وحده ـ من خطف الأنفاس والأبصار. . . لقد ارعوى هذا الرعديدُ، أمام مهابةٍ يتجلَّى بها تقيٌّ، أمام حقيرٍ يدَّعي ـ زوراً ـ أنه جبَّارٌ وقهَّار وهو أحقر مجرمٍ علَّمه الكفرُ امتهانَ الله في أَشرف طينةٍ زيَّنهَا الله بحيويَّةِ الإنسان!!!

أما الأمة، وهي الطينة التي نفخ الله فيها قيمة الانسان، فهي تلك التي راحت تصغي الى همس صلاة الامام الساجد، وتأخذ منها العبرة: بأنَّ الحق هو صلاة المؤمن، وهي رجاءٌ الى الله في جلوة النور في عدسة العين. . وتمتين الصدق في المهجة، وبث الوعي في خلايا السريرة، وزرع الخُلُق النظيف في النفس، وفي كل ما تختلج به الطوية!!!

لم يسجد عبثاً الإمام موسى، وليس عبثاً ـ أيضاً ـ أن يصلِّي. . . فالأمة كلها، بما فيها فاجر اسمه المنصور، بحاجةٍ الى صلاةٍ تستدعيها الى وعيٍ مؤمن، تجلو به طاقاتها الروحية، الإنسانية، الاجتماعية.

مع المنصور

ان الفسحة التي قضاها المنصور في الحكم ـ وهي عشرون سنةً في التمام ـ تقسم الى فاصلين، كل واحدٍ منهما يتألف من عشر سنين: ألا فلنرافقه قليلاً فيها ـ وفي كل فاصلٍ ـ على حدة ـ لنرى كيف كان هذا الأمير المؤمنين ينهج في حكمه، وكيف كان هذا النهج ـ بالذات ـ تعبيراً عن نفسيَّةٍ لا تليق أبداً بحاكمٍ يدَّعي بأنَّه خليفة نبيِّ المسلمين.

الفاصل الأول:

ليس علينا أن نعيد سردَ الأحداث التي حصلت في العشر سنوات الأول في عهد المنصور ـ فلقد جئنا عليها باللمح المختصر، تاركين للتاريخ التوسع بسردها... ولكننا هنا نقصد ابداء العرض، ليكون موجَّهاً الى المنصور هكذا:

ـ إننا نفترض أنك حاكمٌ شرعي، وأنَّ الأمة كلها بين يديك... وأنَّ عليك ـ وحدك ـ تدبير أمرها، بالحكمة، والروية، والعدل، والقسطاس! كما تنصُّ الآياتُ في قرآنها المنزَّل عليها ولها... وها هو المدعوّ عبدالله بن

الحسن، ينهض بوجهك، ولا يقبل بك متولّياً شؤون المسلمين!!! ورأساً، بَدَلَ أن تحاكمه بإمعانٍ وروية، حذفته من الوجود!!!

وهكذا صنعتَ مع ابنيه: محمد ذي النفس الزكية، وإبراهيم الثائر الآخر!!! وبدلاً من أن تتلقَّط بهما ـ بمهارة ودراية، وتحاكمهما بإمعانٍ وروية، ومحبة... نكَّلت بهما، وحذفتهما من الوجود!!! وهكذا مضيت الى ترويع جميع الناس، لا لتأمين الأمة وصيانتها، بل حتى لا يروِّع الناس حكمك... وما كان الناس في نظرك، غير العلويين بالتخصيص، من دون أن تمهّد لهم: حبّاً ومعروفاً، تفيض بهما مهجة الاسلام!!!

ـ فليكن لنا أن نفترض ـ أنَّ لك الحق المطلق في الدفاع عن عرضٍ يهدِّدُه رعاع القوم بالعصيان، وان العاصين ما نالوا إلا ما جنت لهم أياديهم الآثمة... فليكن لك أن تدّعي ما تشاء، وأنت في كرسيِّك السيِّد!!! ولكن؟ كيف تغطِّي تصرفَّك الأسود، مع رجلٍ فريدٍ من نوعه، لا يجوز أن تمتدَّ اليه يد! واسمه جعفر الصادق: رَهَنَ عمره كله، مع أبيه الباقر، وجده زين العابدين ـ على طول سبعين من السنين ـ في خدمة العلم، وخدمة جامعةٍ علمية خاصة، لم تحقق الأمة مثيلاً لها في سالف عهدهاالطويل!!! وها هي المعارف كلها تكرُّ أمام ناظريك، بأكثر من أربعة آلاف طالب، هم انتاجها حتى الآن: بالتفكير، والتأليف، والابداع في الفلسفة، والفيزياء، والكيمياء، والطبابة،

والهندسات، والتاريخ، وكل أنواع الجغرافيات!!! كيف تمتد يدك اليه، بنقطة سمّ!!! وهو الآتي إليك ـ وإلى الأمة التي تدّعي أنت تريوضَها بخفق النعال ـ بدرياقٍ يشفيك من كل السموم!!!

أنا لا أظنّ الآن إلا المنصور قد صمت أمام الافتراض المقدَّم اليه، واني أقدم الدليل في تقديم الفاصل الثاني الذي نعرضه الآن:

الفاصل الثاني:

وانحذف الامام جعفر الصادق ملبياً حكم الاعدام الذي تَفَلَهُ تفلاً عليه هذا المنصور الذي لم يدرِ أنه رفع الصادق الى ما فوق رأسه المزحوم بالكفر والهرطقة ـ ليبقى ـ هو المنصور ـ في الدائرة المبهمة. . . بينما انتقل الإمام الصادق الى اللوحة الأخرى، وهي المطرّزة بأسماء العباقرة الخالدين من أبناء البشر!!!

وحمل الامام موسى اللوحة ذاتها، وقد انحدرت اليه من خلف الغمام، وعلّقها فوق دوحة رأسه ـ بالتمام ـ وراح يسجد لها في الساحة الكبرى على مدى عشر سنين، لا لتراها ـ فقط ـ وتصغي اليها الأمة كلها ـ بل ليراها ـ بالتأكيد ـ ويصغي اليها، بهمسها الصادح، منصورٌ يدعي بأنه عريض الباع في دوحة المسلمين، وهو العريض التنكيل بأفواج المؤمنين!!!

هنالك حقائق، إمَّا أنْ تسمع منطوقةً في العراء، وإمَّا أن تؤخذ مهموسةً في الخفاء ـ وإنَّ أبلغ ما كان يبثّه الامام موسى، في سجوده وصلواته، هو الهمسُ المبطَّن بتقريع الحاكم الفاسق والظالم، وكأنَّ هذا التقريع هو تهديدٌ، بأن الله الذي هو ـ حقٌّ، وعدلٌ، وجبروت ـ لا بدَّ من أن يقتصَّ من الفاسقين الظالمين، وينيلهم جزاءَ ما فعلت أياديهم السوداء. . . أمَّا

المنصور ـ وإن يكن خالياً من ضميرٍ يحلُل ويزجر، فإن الموبقات ـ وهي المتماثلة كالقناطر تحت ناظريه المختلجين بالزور والإثم ـ فانها هي ذاتها التي كانت تطوّقه بالرعب النائم في طوية نفسه!!! يا للمنخر الأفطس، تتعلق به بعوضة فترميه ـ معضوضاً ـ الى الأرض!!!

وارتعب المنصور من آثامه التترى التي كبَّها على العلويين كبّاً، وما أبلغها إثماً، وزوراً، وكفراً، نقطة سمٌ زَجَّهَا زجّاً في وريد الإمام جعفر الصادق!!! وها هي الصلوات والسجدات، يصليها، ويسجد بها الامام موسى بن جعفر، مستجيراً برب الخلق أن يذيق من سَمّ أباه، سُمّاً أبدياً منقوعاً له في قعر الجحيم!!!

أجل ـ كان المنصور يصغي الى التأوّهات الدعائية، يصبُّها الإمام موسى على رأسه، من دون أن يذكر اسمه أمام الله الذي يعرف كلّ الأسماء، وكلَّ الطوايا، وكلَّ الذنوب... أما ان لا يخاف المنصور؟ وإنْ لم يكن له العقل الذي يخاف، فانه خاف من مغبة الإثم، ولم يرتكب إثماً مع الإمام موسى، ولم يمدَّ اليه يداً من زور... مع أنَّ الإمام موسى جافى المنصور. ولم يرد أن يراه ماراً تحت عينيه، ولم ينقطع عن رشقه بالصلوات المسترحمة الله على آثامٍ شنعاء، قد لا يرحمها الله!!! ولكن الله ـ عز وجل ـ هو أرحم الراحمين!!!

بعد شر سنوات ـ بعد مقتل أبيه بنقطة سمّ ـ مات المنصور، وبقي الامام موسى يسجد ويصلي ـ لأن نسل الظالمين سيمتدّ الى: المهدي، والهادي، وهارون الرشيد.

* * * * *

مع المهدي

لم يُجْرِ الامام موسى مع المهدي إلا حواراً واحداً ـ طيلة عمره ـ ولو لم تكنْ لهذا الحوار أهميةٌ تذكر، لما كان لهذا الكتاب تعرُّفٌ الى أميرٍ من أمراء المجون وصلت اليه عدالٌ من المال، والجواهر، والذهب، لا يضبطها رقمٌ من أرقام الحساب، جمعها رجلٌ بطّاش اسمه منصور الدوانيقي، لم يصرف منها درهماً واحداً، بالنسبة الى بخله، وبطشه، وحرصه، جمعها كلها، من عهد أخيه السفاح، ومن عهده في الحكم الظالم، وقد طال أكثر من عشرين سنة، ولم يخصَّ منها أحداً سوى ابنه المهدي، فراح هذا اليها يبذِّرها يميناً وشمالاً، في عملياتٍ من البذخ المسرف بالخلاعة والمجون!!!

هنالك أموالٌ مقتورةً جمعها الامام جعفر الصادق، ليساعدَ بها الفقراء والمعوزين من أبناء الأمة الذين هم تحت رعايته الإمامية، وارتأى المنصور ـ وهو صاحب العرض والطول ـ مصادرةً هذه الأموال المقتورة، وضمَّها الى عداله التي انتقلت الى ابنه المهدي... ولكن المهدي، وهو الغريق في لجج الثراء ـ طاب له استدعاء الامام موسى، ليردَّ اليه المالَ الذي صادره أبوه، ولم يرجعه اليه بعد... لقد كان المهدي مزهوّاً بنفسه، وهو يتكرّم

بإرجاع مالٍ الى من لم يجسر على المطالبة به. . . ولبّى الامام موسى دعوة الأمير، وابتدأ الحوار:

المهدي: أهلاً بالامام موسى. . . هل تدري لماذا استدعيتك؟

الإمام: أنا بين يديك يا أمير المؤمنين ـ فما هي الحاجة؟

المهدي: ليست الحاجة لي. . . انها لك. . . عساها تشرح بالك!

قال المهدي ذلك، وقدَّمَ له ظرفاً مختوماً وهو يقول:

ـ أظنّ المال الذي صادره أبي المنصور من أبيك الصادق. هو بكامله، والمضاعف في هذا الظرف. . وإذا وجدته لا يكفي، فأنا بين يديك في تسديد ما تطلب.

تناول الامام الظرف، وأجاب بنبرةٍ فيها كثير من التهذيب، مع وفيرٍ من الاهتمام:

ـ أنت كريم يا سيدي ـ بحد ذاتك ـ لأنك تردّ ما عليك من دون أن تُطَالب! . . .

وأجاب المهدي بنوع من تعجّب:

ـ ولكن. . . يبدو انك تطالب. . . ولن تسوءني المطالبة. . . فاجعل لها رقماً إذا أردت.

الإمام: ليس لي الآن أن أُطالب. . .

وَلَما كنت آخذ هذه الظرف. . . لو أن ما فيه هو لي. . . انه

ـ يا سيدي ـ لبعض الفقراء. . . سأوزعه عليهم. . . علَّهم يخففون به بعض حاجة. . .

وتعجَّب المهدي من رجاحة وزن الامام، واعتدل في مقعده الى جديَةٍ اخرى وهو يقول:

ـ يبدو لي ـ أيضاً ـ أنَّ كلَّ ما يتضمنه هذا الظرف لا يفي بما لك علينا من دين!!! واعلمْ أنك لن تبرح هذه القاعة، ان لم تعيّن لي حقيقة مقصدك! وأرجو أن لا تعذّبني بالمداورة. . . فابدأ إذا شئت. . .

وبعد تفكير مسؤول أجاب الإمام:

ـ أرجو أن تكون رحب الصدر معي، من دون أن تأخذ كلامي الى سوءٍ لا أقصده في كل ما أراه بعيني، من دون أن تتبصَّر به ـ أنت بعينك. . . أتعدني بذلك حتى أبدأ؟

ورأساً أجاب المهدي:

ـ أَعِدُكَ، فلا تتخوَّف مني ـ وابدأ.

رمقه الامام بعينٍ وادعة، ولكنها بعيدة المغزى. . . وطرح السؤال التمهيدي:

ـ أتسمعُ يا سيدي بقطعة أرضٍ اسمها فَدَك؟

وبعد تأملٍ طال قليلاً ايجاب:

ـ انها في الحجاز. . . أليست هي التي تنازل عنها اليهود، ونحلوها لجدنا الرسول؟. . .

الامام: انها بالذات ـ ألم تَصِرْ ملكاً للرسول؟

واكتفى المهدي باختصار الجواب:

ـ فليكن!!!

وأدركَ الإمام ان في الجواب المبتور، بعض استفهامٍ، وبعض تبرُّم، ولكنه بقي في تمادي السؤال:

ـ هل بإمكانك تعيين ثمنها؟

وعلى ذات الوتيرة أجابَ المهدي:

ـ لك أنت أن تعيّنه، فأقول لك: صدقت.

وأجاب الإمام:

ـ لا أحسبني أضبط قيمة الثمن... ولكني أكتفي الآن بتعيين الحدود... فهل تتمكّن أيها السيد من تعيين هذه الحدود؟!!

وبتأففٍ ظاهر أجابَ المهدي قائلاً:

ـ حدّدها أنت إذا تعرف!!!

وبثقة العارف أجاب الإمام:

ـ وانني أعرف...

حدٌّ منها... جبلُ أُحد...

وحدٌّ منها... عريش مصر...

وحدٌّ منها... سيف البحر...

وحدٌّ منها... دومة الجندل...

وانفتل المهدي نحو الامام... وبجديةٍ صارمةٍ أجاب:

ولكنها حدود أمة الإسلام!!!

لا حدود تربة في الحجاز!!!

ماذا تقصد؟!!

وبكل هدوء، وكل رويّةٍ، أجاب الإمام:

ـ أقصدُ: أنَّ قرية صغيرة في الحجاز، تحتوي على خمسماية نخلة، أصبحت ملك جدنا، نبيّ الإسلام،

ورسول أمة الإسلام. . . ولقد ضمَّها جهاد الرسول الى أرض الأمة التي هي أمة الاسلام. . . فأصبحت حدودُهَا حدودَ الأمة بالذات. . . وها أننا نطالب الآن بفدك التي هي إرثنا من جدنا. . فردُّوها إلينا، كما تردُّون الآن مالاً صادره من أبي أبوك المنصور!!!

وبقي المهدي على ذات الوتيرة من التأفف والتعجّب وتابع السؤال:

ـ وماذا تبغي في ردها اليكم ـ وهي الآن بين أيدينا؟!! أنكونُ ـ نحن ـ قد صادرناها؟!! وهل تكون الأمة المال المصادر؟!!

وبكل جديَّة، وجرأة، واتّزان، أجاب الإمامُ سريعاً، وصريحاً:

ـ أجل. . . لقد أصبت يا سيدي. .

وماذا يمنع؟ أن تكون الأمة ـ إذ تصادر ـ كالمال المصادر. . . والمصادرة معناها: مَن يصادر مالي، يكون قد أبعد عنّي كلَّ الفوائد العائدة منه إليّ. . . ولولا الفوائد، لَمَا أجهدت نفسي بجمع المال. . .

وإنَّ من يصادر أمتي، يكون قد أبعدها عن إحراز ما ينحو بها الى حقٍ وجمال!!! والاحراز هذا هو توق النبي ممزوجاً بتوق أمتي التي تبنيني لأبنيها ـ بدوري ـ بذات الشوق الذي ترزقُهُ ـ هي ـ في تصاميمي!!!

ان جدنا العظيم ـ يا نسيبي ـ هو الذي خصَّ عليّاً منا، يمحضُ الأمة بالرعاية الموجهة بآيات القرآن، وهي الموصلتها الى حقيقتها المبتغاة. . . فَلْيَعُدْ الى خط علي

حـق الـرعـايـة!!! ولتلتـغِ المصـادرات المبعـدة الأمـة عـن منهجيات الصراط!!!

لقد اسمتع المهدي ـ بإصغاءٍ عميق ـ الى كل ما تفوّه به الامام الذي نسى نفسه انه بين يدي رجلٍ يخلفُ المنصور. . . وبقي المهدي ـ هكذا ـ صامتاً ومتأملاً، الى أن تلقاه الإمام بهذا الرجاء:

ـ أنـا مـا قصـدتُ أن أسـيء إليـك، ولا أن أكـذب بيـن يديك. . . ولي كلمةً أخيرةً أُحبها تملأ سمعيك:

نحن ـ أبتداءً بجدي الامام زين العابدين ـ وجدي الامام الباقر ـ وأبي الامام جعفر الصادق ـ وصولاً اليَّ أنا الجالس الآن بين يديك. . . تعهَّدنا، بتمامِ عزمنا، ورضانا. . . تنازلاً عـن كـل مـا يمـتُّ بصلـةٍ الـى السيـاسـة، وتـركهـا للخـلافـة، وأنتـم ـ اليـوم ـ أوليـاؤهـا ـ واكتفينـا بـالخـط العلميّ، لإنارة الأمة، وتوسيع مداركها، مع رَجَاءٍ منا، نقدمه اليكم، وهو المليء بالحب، والتمني، ونقول:

لستم غرباء عن الأمة، فأنتم من صلبها حتى الجذور. . . حاولوا أن لا تكونوا مصادرين، بل منبثقين من حقيقة الأم. . . ولن تكونوا حاكمين صالحين، ما لم تكونوا عادلين، وأتقياء بارزين، وطاهرين عفيفين، وصادقين بريئين. . . وعندئذٍ فَنِعْمَ الأمةُ أُمتكم، أن تكونوا ـ هكذا ـ مخلصين!!!

أتسمح لي الآن بالانصراف يا سيدي؟!!

تأمله المهدي مليّاً، وهو واقفٌ ماداً اليه يده، ليقول:

ـ أرجو أن لا يُصَادِرَكَ الغد بأي مكروه!!!

مع الهادي

فلنلمّحْ قليلاً الى مزايا الهادي، حتى لا ندخل عليه ونحن سادرون ـ انه ابن المهدي الذي تعرَّفْنَا اليه منذ لحظات. . . لم يُخرِزْ، لا مقدرة أبيه، ولا دهاء جده المنصور، ولكنه فاق الاثنين بذكاءٍ مشلول، جعله ماجناً بلا فنٍّ، وصبيانيّاً بدون أية براءة!!!

أما إمامنا موسى، وهو المصلي عميقاً، والساجد بليغاً، فانه المستطلع ـ دائماً ـ أحوال الناس، من خلال مراقباته الدقيقة والمتقصّية نزعات الحكام، ليكون له علمٌ وكشفٌ عن سرائرهم المتخبِّئين في طيّاتها، والتي بها يسوسون الناس، ويرجمونهم بكل ما في نفوسهم من شرور!!!

لم تكن مراقبة الامام، بهذا الشكل المعمَّق والواصل الى دوحة الوجدان، الا شهادةً له في تمتعه بيقظةٍ روحية ـ فكرية ـ علمية، تجعله متمكناً من علم النفس في استطلاعاته عن كل ما يدور في فلكها من نزعات، لا ينقّيها ولا يرجُحها الى الخير، إلاّ علماء خيِّرون، يتقنون عمليات التشذيب، والتهذيب، والتوجيه. . . وتلك هي فنون التربية التي يعتمدها أولياء الأمة في بناء الانسان، إنسان الأمة الواعية الملتفتة الى تجميل الغد.

ربما يكون البناء النفسي عند الامام مهتماً بدراسة نفسيَّات الحكام، ليس فقط لاكتشاف نواحي ظنونهم، ومعالجتها حتى تستقيم، ولكني أظن انها كانت دراساتٍ ـ أيضاً ـ لانتساب طرق الوقاية منهم، ما زالوا هُم المقتدرون. . . وهكذا كان للإمام موسى ولوجٌ الى طوية كلٍّ ممن زامنه منهم، ابتداءً بالمنصور، فالمهدي، فالهادي. المالىء الآن الذهن، وانتهاءً بهارون الرشيد الذي سيذوق الإمام على يده من العلقم، وكل عتمات السجون!!!

والهادي، لقد اكتشف الامام كل نزعاته النفسية، فوجدها كلها كفقاقيع الصابون: توهمك بأحجامٍ كروية، إن تصبْك تحطّمْ رأسك، ولا تعثُمُ أن تبعثرها نفخة، فتتلاشى وهي من هباء!!!

لقد تعمَّق الامام بدرس الهادي، وتحرّاه في دوحة بيته: لقد خصَّهُ أبوه المهدي بالولاية، وحرَّصه على أن يصونها ويوصلها عزيزةً وكريمةً ـ من بعده ـ لأخيه هارون الرشيد. . . ولكنَّ هذا الهادي الضائع من رشده، ما قدر أن يفكّر إلا باحتكار الحكم ونَقْلِهِ كاملاً لابنه جعفر، وهو حبيب أمه واسمها رحيم. . . واكتشفت أمُّ الهادي ـ وهي الخيزران الملقبة ـ باخت الرجال ـ عزم ابنها الفاقد العزمَ وصدقَ الذمام ـ وجرَّبت ان ترُدَّه عن الغي والمنكر. . . ولكنها لم تلمس منه إلا الغدر المبطَّن، فتنكَّرت له، وتفرَّدت بالحب لابنها هارون، وتَلَمَّسَتْ له الوصولَ مهما يكن فحش الثمن!!!

ورأى الامام ـ بعينه الحدسية ـ أنَّ الهادي هو الخاسر الفاشل، وأنَّ دمه سيهرب من وريده الأيمن قبل الأيسر. . . ولا يُستَبعَدُ أن تقتله ـ هي ذاتها ـ أمه الخيزران. . . ورأى الامام ـ أيضاً ـ بعينه الغارقة في دمع الحزن، أنَّ الهادي الذي رقص على أشلاء الأبطال الذين انتفضوا على حكمه، وقد قادهم الحسين بن عليّ بن حسن بن حسن بن أبي طالب ـ لن يتمكن من

الرقص بعد اليوم، على أي شلوٍ من الأشلاء، لأن أمه الخيزران ستقصم ظهره إنْ يحاولْ!!!

ان ثورة فخ ـ والموصوفة بالكارثة ـ تفرَّد بها ثورةً تقضُّ مضجع الهادي، بطلٌ اسمه الحسين بن علي، وقد جاء الحسين هذا يستشير الامام موسى في تتميم هذا الأمر. . . ولكن الامام أنذره بأنه المقتول، من دون الوصول الى المبتغى، بعد تعريض بني طالب لرعونة الهادي. . . ولقد تمَّ كلّ ما احترز به الامام!!! وها هو الهادي ـ بوعيده وتهديده ـ يستدعي الامام الى فِناء الحصرَمة في وريده!!! وخاف عليه المخلصون، ونصحوه بالتخفّي. . . فضحك وقال:

ـ اطمئنوا، ليست الحصرمة الآن في يد الهادي، بل في يدٍ أخرى، وهي التي ستفقأها في عنقه!!!

وحضر الامام الى محاورة الهادي الذي أقنعه الإمام بأنه بريء براءة يعقوب. . . ولو أنه غير موالٍ للعهد، لما كان قد نجا، لا من المنصور، ولا من أبيه المهدي!!! ولا يجوز للهادي المالىء الآن الحكم، أن تضيع منه لا الحكمة، ولا الفطنة!!!

وسريعاً ما اقتنع الهادي، وصبر الى الغد. . . وبدلاً من أن ينجح بقتل أمه الخيزران بنقطة سمٍّ، دعاها الى أن تأكلها فس صحنٍ من الفالوذج. . . أطعمت الخيزران الفالوذج كلباً في دارها، ودسّت لابنها الهادي سمّاً آخر في كوب من أكواب خمرة!!!

وعانق الهادي الموت مع الصباح الذي أطلَّ على عرشٍ راح يجلس فيه هارون الرشيد!

* * * * *

ولكن العرش الذي تربّع عليه هارون الرشيد، ليست قوائمه لا من ذهبٍ ولا من أخشاب، . . بل من عظام الذئاب التي يفتك بعضها ببعضها الآخر . . والأخير المنتصر على المفتوك بهم، هو المتقوقع فوق العظام، يتربّع عليها بتيهٍ، وهو يتلمظها فقاقيع دم ـ بنصرٍ مبتسم ـ كأنه آخر ذئبٍ، ولن يولد من بعده أيٌّ من وحشٍ يتمكن مثله من تلمّظ العظام!!!

أنا لا أقول أن هارون الرشيد يتملَّك ومضةً من فكرٍ يتحلَّى بها إنسان، وهو يعتلي عرشاً عائماً بدم أخيه الهادي، بعد أن سفكته أمه الخيزران، وغسلت قوائمه بدم ابنها البهلوان، وقالت للثاني: هيَّا اعتلِ عرشاً غسلته لك بالدم، فنم فيه مرتاح البال ـ ولا تندم، ولا تأثم، ولا تغتمّ!!!

واعتلى هارون العرش ـ وهو يبتسم ـ كأنَّ الدمَ المغسولَ به، هو البلسم المصبوغ بالعندم، ونسى أنَّ العندم هو دمُ الأخوين الخارجين من ذات الرحم!!! أليس خزياً علينا، أن نغسل أيدينا بدم أخينا ـ ولو أنه يستحق السفك ـ ورأساً نبتسم، كأننا لا قتلنا، ولا جنينا، وليس علينا أن نتحمَّل، لا وزرنا، ولا وزر غيرنا الذي نحن منه وهو منا!!! لقد قتلت أخي، لأنه

غادرٌ مجرم ـ أقول في حدسي ـ فلأقتله... وبعد حزنٍ وغمّ... أعود فأبتسم، إذا كان لا بدّ من ابتسام!!!

بهذه المقدمة أحببت الدخول في دراسة تلميحية، تتناول هارون الرشيد متوصلاً الى عرشٍ لا يجوز أن يعتليه لسياسة جماهير الناس، إلا بالعدل، والحق، واستقامات الوجدان... لا بالظلم، والغدر، ورجاحة الطغيان!!!

لقد صدف ان العرش هذا، قد توصَّل إليه الرشيد في ظرفٍ كئيب... لقد وعده به أبوه المهدي، بعد أن يتمرَّس به أخوه الهادي، وهو البكر؛ وإذ يخلو منه، يكون لابنه الثاني ـ هارون ـ أن يعتليه، بعد أن يكون قد اكتمل نضجه العقلي، والنفسي، والسياسي!!!

ولكنَّ الهادي ـ لطمعٍ فيه، خالٍ من التروي، وبعد النظر، راح الى محاولةٍ همجية، فكّر فيها بحذف هارون من الساحة، ليبقى العرش من نصيب ابنه جعفر، من دون أي مزاحم!!! وانتبهت الخيزران ـ أم الأخوين ـ لفداحة الأمر... ولم تنتصر للهادي، وانتصرت لهارون... ولقد علمنا كيف انها أقدمت على قتل ابنها الهادي بنقطة سم!!! وكيف أن هارون كان الباسم الأول مع صباح ذلك النهار، وهو يعتلي الكرسي الذي انحذف عنه الهادي.. ولم تكن قد أجريت بعد مراسيم الدفن!!!

فلنترك للتاريخ تسلسل الأحداث المليئة بالعبر، وبكل تهرجات البشر! ولنعتبرِ العرش المتربع عليه الآن أخو الهادي إرثاً موصولاً بذيل السفاح، وذيل المنصور، وذيل المهدي... من دون أن يكون ـ منه ـ للهادي، فتيلةٌ يستضيءُ بها ابنه جعفر ابن رحيم... هنا مهزلة الهادي، في تمسكه بسلسلة الإرث... وهنا ـ بالمقابل ـ صوابية الخيزران في ضبطها حلقات المجد ووصلها بالقناة المُلْصَقَةِ بابنها هارون... أمَّا الحق،

والعدل، وضوابط التركيز. . . فتلك روافدُ أخرى، وليس من أحدٍ في أرض الأمة، إلا مقتدرٌ واحدٌ يجمعها كلَّها في كفة الميزان، ويُمَتِّنُ بها العرش العظيم، وهو المتّصف بالرشيد!!!

وابتدأ الحكم بالرشد. . . وما عمَّمَ ان صار رشيداً بياء «فعيل» التي هي كمالٌ، وتجسيد عظمة. . . والعظمة فيه تثبيت العرش على ماهياتٍ مخصوصةٍ به، ومن أرهبها ادعاء الرشيد بأنه الولي المطلق على الأمة، وليست إلا له كلمة الفصل في كل الأمور المحتاجة الى تصرفٍ خاصٍ، يصون العرش، حَتى من أية نيةٍ تجول في الصدر، لزعزعته، والانتقاص من جبروته!!! هكذا حَمَى هذا العرش ـ ليبقى بمثل هذا الجبروت ـ جداه السفاح والمنصور. . . وهكذا حافظ عليه أبوه المهدي. . . وهكذا، فإنه هو الرشيد المستعد الآن على أن يحميه من كل ظنةٍ ـ مهما تكن ضئيلة ـ فيحذف عنق من يتلبَّسُ بها، من دون أية محاكمة قضائية، قد تبرِّئهُ منها هفوات القضاء. . . مع العلم ان القضاء بالذات ـ وهو من البوابات الحضارية ـ لم تعتمده مفتوحاً على شؤونها تلك العروش الهارونيَّة النيرونية. . . بل تبجَّحت بإنشاء مَجَالسِهِ، تمويهاً على البسطاء والسذّج، وهي تقول لهم: بأن الخروج على الحق، لا ينظر فيه إلا القضاء الذي هو قمينٌ بإرجاع الصواب الى نصابه!!!

تلك ستاراتٌ توارى خلفها دهاقين العروش! ومن أفتكهم هذا الهارون الآتي الى الحكم بقميص أخيه الهادي!!! انه المتلطي بمجالس القضاء، حفاظاً على الأمة، وعلى روحية الإسلام. . . ولا قضاءَ بين يديه ـ هو الرشيد ـ إلا وهو ـ الرشيد ـ سيفه، ورمحه، ونقطة السم في رطبه!!! أما الاسلام، فإنه المدعيه ديناً له وللأمة التي هي ـ بأكملها ـ حقيقة الاسلام.

كـأنَّ البحـث، لا سَـارَ ولا دارَ، إلا ليـوصلنـا الـى نقطـة الـدائـرة. . . والإسلام ـ بالذات ـ هو نقطة الدائرة: إسلام الأمة التي هي أمة الإسلام، وإسلام هارون الرشيد، يتربع على عرشٍ هو لأمة الاسلام، تشدّه اليه خلافةٌ تربطه ربطاً متيناً بنبيّ الإسلام، ويا للنعمة المستديرة، فهو الولي العظيم الجامع امة الاسلام في دوحة الإسلام.

هنالك إسلامٌ ثانٍ، تراءى للرشيد ـ في رداءة ظنه ـ وهو إسلام الإمام موسى بن جعفر ـ وهو إسلامٌ إماميٌّ، يجابه ـ منذ أن ابتدا ـ إسلاماً «يخلفياً» من دون أنْ يقرَّ له ـ لا بحقيقة الإسلام، ولا بتعديل النُهُج ـ ألا بئسَهُ من إسلامٍ متزمّت، ما أراده النبي للأمة أداةً يابسةً، لا ينهض بها الى أي تجدّدٍ، وأيّ تقدمٍ، وأي منهاج!!!

أظنها هي ذاتها مقولة الرشيد من بني العباس، وهي التي كانت تدور في خلد ذاته، كما وانها هي ذاتها التي دارت في خلد من سبقه من بني أمية. . . ولا فرق بين الخطين: الخط الماضي الذي تقوَّض، والخط الحالي الذي يكتسح الآن ساحة الإسلام، ولم يتقوَّض بعد. . . وحتى يستمرَّ هذا الخط، من دون أن يناله أحدٌ بالتقوُّض بعد. . . وحتى يستمرَّ هذا الخط، من دون أن يناله بالتقوُّض، كان الرشيد يحاور نفسه في كيفية محو الامام موسى من الساحة العامة التي لا يجوز ـ مطلقاً ـ أن يبقى فيها إلا ظلٌّ واحد، هو ظل العرش الذي تخضع له ـ بالتمام ـ أمة الإسلام!!!

تلك هي الفكرة الوحيدة التي استحوذت على جميع مجالات اقتناع الرشيد: بأنَّ حذفَ الإمام موسى من الساحة، هو مطلبٌ، ولا فرق بين أن يكون إسلامياً، أو عرشيّاً ـ أو عباسيّاً ـ هارونياً. . . فالمآل واحد، وهو صيانة العرش، وصيانة الأمة من الزكزكات الإعتراضية التي يقوم لها بنو طالب ـ بين الحين والحين ـ كمعالجاتٍ ثورية، محواً للإسلامِ، وإنهاضاً

لإسلامٍ آخر، هو ـ كما يدعون ـ إسلام النبي، وهو الطالبي ـ في ظنهم ـ بدون منازع!!!

وكيف يكون حذف الامام؟ وانتصب السؤال في وجه الرشيد. . .
ولكنه تبسم في دخيلة ذاته وهو يقول:

ـ كيف يكون الحذف؟. . . ولكن الطرق عديدة. . .
فاستخدم منها أيّاً تريد. . . أتريد أن تحاكم؟. . فالقضاء لنا في كل مجالسه الفسيحة!!! أتريد أن تسجنه، وتذيبَهُ في الموت البطيء؟ ان السجون كلها بين أيدينا. . . فلينم فيها قرير العين!!! أتريد أن تقدم له كوباً من عصير الورد؟. . فنقطة السم راقدة في الكوب، قبل أن تسكبَ فيه عصير المتعة. . .

قبل أن ينتقي الرشيد قميصاً واحداً من القمصان التي سيجلبب بها صدر الإمام. . . كان الإمام ساجداً يصلي، وهو يستعرض أمام عينيه المغمضتين، كلَّ ما مرَّ به من أحداثٍ، تمكَّنَ من اجتيازها بنوعٍ من سلامة ـ أكانَ مع المنصور، أم مع المهدي، أم مع الهادي الذي تَفَلَ أنفاسه في حضن أمه الخيزران التي قالت، وهو ينام:

ـ نامَ ابني الهادي نامَ. . .
ومع الصبح يصحو من أحلامٍ. . .
تكرُّ فيه بسمات المنام!!!

وغرق الامام مليّاً، وهو يستحضر في باله أمّاً تغنّج إبناً لها بنقطة سمٍّ، وابناً آخر ـ هارونيّاً ـ بقوائم عرش. . . وانتصب أمام تصوُّر الإمام عرش بقوائمه السوداء، وفوق ضلوعه رجلٌ أفعى! يا للأفعوان، يبخُّ العنفوان كأنه

الدرياق. . . وليس غير الدرياق في عنق الأفعوان!!!

وَمَدَّ الإمام يديه الى العنق الفحَّاح، واستنزله من علياء كرسيه، وكَمَّمَهُ بقبضةٍ من ترابٍ وهو يقول له:

ـ ليس لي إلاَّ مثلُ هذه الهُنيهَات الفريدة من نوعها، أصارحك فيها بصمتي الصارم، وهو المخنوق في حفيظتي منذ أن وقعت عيني عليك، واكتشفت فيك عنصراً من أردأ العناصر، ندَرَ أن تخبَّأ بمثله ـ صدرٌ من صدور البشر. . . فاسمعني ـ بلساني المفتوح ـ أبوح بكل ما علق في ذهني منك. . . وانها كلها ـ أنت ـ وان كنت تظنها تخفى، فهي التي تتَّصف بك في العراء. . . فخذها مني بنداً بنداً، والله وليُّ العارفين الصادقين. . .

أولاً ـ أنت لستَ مسلماً كما تدعي ـ فالاسلام كله وحدة فكر، ووحدة روحٍ، ووحدة إيمانٍ بالله، وبالنبي، وبالأمة التي هي أمة الاسلام، أما إسلامك أنت، وأنت مُرْغِمٌ ذاتَكَ بأن تدعيه، فهو تفتيشٌ عن نفوذٍ سياسي، يُعليك الى عرشٍ تموهه ـ أنت ـ بالإسلام، والإسلام الصحيح لا يرضى بعرشٍ يسجد له الناس متعبدين. . . ويرضى بمقعدٍ من طين وحجر، تتوزع منه العبادة لإله يوصي بالحق، والعدل والمساواة بين المؤمنين، . . ويوصي بالخلق الكريم الذي هو: حبٌّ، وصدقٌ. وعفافٌ بين جميع المسلمين. . .

ثانياً ـ لم ينتدبك النبي العزيز خليفةً له. . . وانتدب عليَّه إماماً ـ بعده ـ يتقشَّف برعاية المسلمين. . . والإمامة ـ بدورها ـ هي الخلافة، ولقد عيَّنها النبي الكريم ـ بذاته ـ

وبلسانه... فلماذا لم تصدقه، ورحت تصدق ذاتك، بخلافةٍ عيَّنتها أنت بذاتك... لا لتخلف نبي المسلمين... بل لتشقَّ وحدة المؤمنين... وانشقاق الوحدة الى اثنتين، معناه ـ في نظرك ـ استنبات عرشين... وحذف عرش الإمامة، هو تمتينٌ لوحدة عرش الخلافة... أليست ـ هكذا ـ تتركَّزُ سياسة عرشك العباسي؟!! كما تركَّزت سياسة العرش الأموي، وقد دَالَ العرش الأموي، كما سيدول ـ بعد حين آخر، عرشك العباسي!!!

ثالثاً ـ نحن ـ بني طالب ـ أعرضها الآن بالتخصيص أمام محجريك: قد وَاليناكم بابني العباس، لتقويض عرشٍ أمويٍّ راح يستبد بمقعد طالبي، حسبه بنو سفيان قبليّاً طالبيّاً، بينما هو: نبويٌّ إسلامي... ولقد كان تحسُّب بني أمية ـ قبليّاً بالذات ـ لاقتناص النفوذ السياسي لهم بالذات، لا لأية قبيلةٍ سواهم، وبالأخص لو كانت طالبية!!!

أجل، يا بني العباس... لقد ساعدناكم لتقويض العرش الكذاب، لا لأنه أموي ـ فالإسلام لكل قبائل الأمة على الإطلاق ـ بل لأنه ابتدع من الاسلام إسلاماً آخر ليس له من واقع الإسلام غيرُ شق الأمة، من دون أن تعي الأمة أنَّ ذلك ينبذها الى نصفين، ويُهْزِلُهَا الى ضعفين!!! أما الفاعل المجرم، فانه كان القابلَ الراضي بإهزال الأمة، وجعلها أمةً مذللةً ومستكينةً بين يديه!

وتمَّ لكم انتصار يا بني العباس!!! وبدلاً من أن تبنوا على

الأنقاض مقعداً جديداً من طينٍ وحجر. . . وتتناولوا الأمة بحكمٍ فيه من الاسلام ما يعزز الأمة، ويوسّعُ لها البصيرة والبصر. . . رُختُمْ الى عرشٍ تسبكونه سبكاً بكل أشكال الدرر! ورحتم تعتلونه ناطقاً بالفسق، والظلم، والطغيان. . . ولا صلة لكل ذلك بإسلام يستنزل الله رحمةً على العباد!!!

ولقد اعترضنا عليكم يا هارون ـ لا لأن نَسْلبكم عرشاً، ساعدناكم نحن، ـ على غفلةٍ منا ـ في جلوة خدّه. . . بل من أجل أن تغيّروا من برزة حدّه، وتجعلوه لائقاً بحرمة الاسلام، وتزينوه بالعدل، والحق، وترجيح الوئام!!! ولكنكم ما سورتموه إلا بالظلم، والتعدي، وخفر الذمام. . . وقاومناكم ـ لا بسلب ـ بل بإيجاب. . . وها أني أفسر لك ـ يا هارون ـ إرادة السلب، ورأي الإيجاب. . . فافهم:

ان المقاومة السلبية لا ترشقك بها الا الامة بوعيها التام، وهذا الوعي ـ بالذات ـ يناديك الى ضبط مواعينها، ان تكن عادلاً وحكيماً. . . والا فانها تنحيك إذ تخفر ـ أنت ـ الذمام، لتستدعي سواك حاملاً اليها تسديدَ الذمام!!!

ولكنك تعلم ـ أنت يا هارون، كما كان يعلم ـ قبلك ـ جدك المنصور ـ ان الوعي الكامل الفاعل، لم تتمتع ـ بعدُ ـ به الأمة، وهكذا فإنه لم يصلك منه، إلاّ بعضٌ من رذاذ. . . أما الرذاذ فهو الذي رشقناك ـ نحن ـ الآن به، وها أنت الآن الراجف منه. . . فهو الحاصل الفريد الذي

أنتجته الإمامة المثلثة بالإمام زين العابدين، والإمام ابنه الباقر، وحفيده الإمام الصادق. . . وهي الإمامة المقتنعة بأن الجهل هو سبب انهيار الأمة في تلهّيها بكل أنواع المماحكات، والترهات، . . . وان العلم الوسيع ـ وحده ـ هو الممنّعُهَا بكل وعيٍ يوضّح لها أهدافَهَا ومراميها!

وتمَّ إنشاء الجامعة العلمية ـ وعلى مدى سبعين من زواهي السنين، ضاءت في أجواء الأمة أضواءٌ تبشر بانبثاق الوعي الآتي لمحو العيّ، واستئصال شأفته من أعماق الجذور!!! ألم تشعر ـ في قرارة ذاتك ـ يا صاحب الفخامة، بأن قوائم عرشك، بدأت تهتزّ ارتجافاً، لأن الوعي النامي في أحضان الجامعة، بدأت تضيءُ مشاعيلُهُ؟!!

وعلم جدك المنصور ـ بذكائه الفطري، ودهائه المستمر ـ ان الوعي المطل من نوافذ الجامعة، سيعتم عليه ممرات العبور!!! فحقن وريد أبي الصادق بنقطة سمٍّ، حذفت الصادق من ممرات العبور!!!

وأنت أيها الرشيد الآخذ عن جدك إرث العبور؟ ماذا عساك تفعل، غير أن تدفن الإبن في تربة أبيه! فتصمت الجامعة، ويهدأ الجوّ من ضجيج الملحدين!!! وتنام المقاومة السلبية تحت قوائم عرشٍ، وهو يرفسها رفساً حتى لا تستفيق!!!

أما المقاومة الإيجابية، فهي المتمكنة في أصالة روحنا، نقوم بها كما نقوم الى أودنا المعيشي والروحي، لنبقي الأمة في علاقاتها الاجتماعية، مستمرةً الى أن يتجدَّدَ لها

عزمٌ ثانٍ، ينهض بها الى وعيٍ يوصلها الى أُفق. . . أما بنود المقاومة هذه، فهي ليست أكثر من مهاميزَ آنيَّةٍ، نوجهها الى الحاكم الذي لم نتمكَّنْ ـ بعدُ ـ من إزاحته الى خلف الستار. . لعلَّه يشعر بصدق الزجر، فيعدِّل ـ هو ـ من رداءة حكمه!!! هل سيحصل ذلك؟!! ولكن المحاولة لا تقصد غير الحصول الذي تنتظره الأمة ـ في سجيتها المنتظرة ـ أما عدم الاستجابة، فمعناها: تجرير الأمة في استكانتها الحزينة، وتمريغ المحاول بوحول أخرى، لا بد له من أنْ يتحملهـا، وأوحَلُهَـا السجـون المعتمـة!!! وأرذلهـا نقطـة سمٍّ، فيها من الذل والغدر، أكثر مما فيها من الموت الذي هو قضاء الله العزيز الحكيم، في ترتيب الخاتمة!!!

رابعاً ـ أتظنُّ يا هارون أننا لا نعيك بكامل ما أنت فيه، من قمة رأسك حتى أخمصيك؟!! كما وأننا نعرف ـ أيضاً ـ أنك تستوعبنا بذات الاتساع، وذات الاحتواء!!! ولكن الفارق الوحيد ما بيننا هو في أنَّنَا مؤمنون بالله العزيز الحكيم، وهو منَّا ونحن منه، في حتمية الوجود!!! أمَّا أنت، فإنك تدَّعي الإيمان به، من دون أن تنضوي فيه انضواءَ الجوهر بالجوهر! من هنا يكون علينا ـ إزاءك ـ واجب التوضيح عن إلهٍ عظيم: كيف نعيش فيه ويعيش فينا، ونحن نستلهمه في جميع شؤوننا الحياتية ـ الروحية والفكرية على السواء ـ بينما يفوتك ـ أنت ـ هذا الاندماج الرحرح، ويعزلك الى الزوايا المعتمة التي تبني فيها قصوراً لك، لا يحميها الحق، والعدل ـ بل الفسق والاستبداد!!!

ان الله الذي لم تكتشفه ـ أنت ـ بعد، هو الوجود المطلق، وهو الأوسع من أنْ تراه العينُ، والأقصى مما تتمكَّن ـ أنت ـ من الوصول اليه ـ حتى ـ بالخيال!!! انه الأبعدُ والأعمق من أيِّ حدٍّ، وأيِّ وصفٍ، وأيِّ رقم، وأيِّ تصوّر. . . وهو كلُّ الحق، وكل العدل، وكل الصدق، وكل حقيقة التنظيم، وكل «القبلُ»، وكل «البعدُ»، وكل حقائق الجوهر.

هذا هو الله ـ فإذا قلنا لك يا هارون: إننا فيه وهو فينا، وهو منَّا، ونحن منه. . . أترانا نكذب عليك؟!! وإلى أين تريد أن ترجعنا؟ أليست اليه حقيقة الرجوع؟ أما إذا خرجنا عن دائرة الحق!!! فعندئذٍ ـ فقط ـ نكون قد ابتعدنا عن حقيقة الدائرة التي نحن فيها في حتمية اللزوم!!!

ـ واعلم يا هارون: ان الله ـ عز وجل ـ في مصداقية ذاته، وبراءة وصفه، هو الذكاء المطلق. . . فإذا أفهمناك أننا نستلهمه ـ وهو فينا في حقيقة الإلتصاق ـ فإن استلهامنا إياه، لا يعود علينا إلا بوسع المعرفة المنبثقة من روعة اليقين، ومن ذاتية المصدر.

ـ واستلهمنا الله ـ بإيماننا وذكائنا المتَّسعين به ـ وجاءت معرفتنا بك، وبكل ما يجولُ في طويتك المنحرفة عن جادَّتها المفترضة ان تكون سليمة. وهي ليست سليمة:

ـ أنت تكذب علينا، وعلى ذاتك في نفس الوقت. . .

ـ أنت تؤمن بنا صادقين معك، ومع الأمة، ومع

الإسلام. . . ولكنك لا تريد أن تصدق ذاتك. . . لأنه يفوتك الإيمان الصحيح، وهو الركيزة الصادقة: في الحكم ـ وابداء الرأي ـ وتقديم النهج السليمة!!!

ـ لقد قلنا لك: أنا، وأبي، وجدّايَ العظيمان، الباقر وزين العابدين. . . بأننا نتخلّى لكم، عن كل سياسات الحكم. . . أي: فلتكن لكم يا بني العباس، كل السياسة، واتركوا لنا الجامعة ـ محواً للجهل من عبّ الأمة، ونشراً للعلم الذي يستنير به وعيُ الأمة. . . وصدقتمونا، وأنتم تنوون أن تحذفونا. . . لأننا ـ فقط ـ صادقون: مع الاسلام، ومع الأمة. . . وأنتم لا تريدون توعية الأمة. . . لأن وعي الأمة لا يسهِّلُ لكم وصولاً الى مجدٍ وثراءٍ لا تجنونهما إلاّ من استعباد الأمة!!!

لقد حذفتمونا ـ فعلاً ـ من حقلنا الإيجابي الصادق، صيانةً لحقلكم السلبي الكذاب!!! وأي واحدٍ من أبي وأجدادي لم ترشقوه بنقطة سم!!!

وأنت، يا هارون المجد؟ أي شيء في مكنون ذاتك؟!! أتظنني لم أكتشفه بعد؟. . لقد استلهمنا الله فيك. . . ولقد احترنا في أمرك، وما بقي لي إلا أن أقول: إني عرفت ـ انك أنت بالذات ـ تعرف أني مكتشفٌ كلَّ طواياك. . . ومن أمَرِّها ـ إطلاقاً ـ انك لن ترعوي عن تنفيذ الأذية في جسدي الترابي. . . من دون أن تتمكن من أن تنال من وجديَ الروحي الذي هو من امتزاجي الأفقي بالله ـ جلَّ جلاله!!! سأتحمَّلُ كلَّ كيظٍ ترشقني به، بصبرٍ عزيزٍ

وطويل، لا تفيد أنت منه. . . بل تفيد منه الأمة، فتحفظ منه اصطباراً على الأذى، يكون سبيلاً لها لبلوغ الحق الذي ترجوه عن طريق احتقار الحاكم الظالم، وعدم الانصياع له يجمع ثراءه، وفحشَهُ، وأمجادَهُ. . . من استعباد الناس، وإذلالهم بتمويهٍ كاذب، وسلطانٍ ليس له غير أنياب الذئاب!!!

اسمعني يا هارون. . . حتى أُعيِّنَ لك، ما أنت ـ بالذات ـ تريد أن تصنعه بي؛ وكن أكيداً من أني سأتقبله منك، بصبر المؤمن الذي لا يحيد عن طاعة ربه ـ ليس إكراماً أو رضوخاً لك، بل تثبيتاً للأمة بأني أتحمله من أجل أن تأخذ ـ هي ـ منه العبرة في رفضها الأبيّ كلَّ ما يعرقل مسيرتها نحو المجد.

ـ سيكون لي ـ وأنت منذ وقتٍ طويلٍ مصمِّمٌ على حذفي من تحت عينيك ـ أن أنقل عنك ـ أنت بالذات ـ كيفية درسك الطرق التي يمكنك أن تحذفني بها من أمامك. . . ان السبل هذه، لم تتمثَّل في ذهنك الذكي، بأكثر من ثلاثة:

أسرعُهَا: نقطة سمٍّ في كوبٍ، وانتهى الأمر!

أشرعها: إنشاء مجلسٍ من مجالس القضاء!

أطولها: فتح بوابات السجون المعتمة، أو فلنقل: المؤبَّدة!!!

لقد درستَ يا هارون السبلَ الثلاثة درساً مطولاً، وكنت حائراً في أي واحدٍ منها يصحُّ لك الاعتماد!!! أمَّا حيرتك

هذه، فكانت تؤكد عليك، بأنك خفت من التاريخ أنْ يـأخـذك ـ بقتلـي ـ الـى تهمـة التجنّـي علـى الأوليـاء الصادقين!!! يا للمهزلة يا هارون!!! لقد كنت ـ فعلاً ـ تعتبرني وليّاً من الأولياء الصادقين!!! وبذات الوقت، كنت تريد أن تحذفني من صفحاتك، لأني من الأولياء الصادقين!!!

ولنتابع يا هارون: لقد رفضت استعمال نقطة السم، وأنت تتذكَّر أنَّ جدَّك العظيم المنصور، قد استعملها في كوب أبي الإمام الصادق!!! وسيتّهمه التاريخ ـ من دون شك ـ بالتجنّي، لا على وليٍّ من الأولياء الصادقين... بل على عبقري ـ أيضاً ـ من العباقرة النادرين في تكوين الأمة التي أتحفَهَا بالعلم الصادق وليُّ الصادقين!!! لن يفتح عليه مثلَ هذه الثغرة سيد العرش هارون الرشيد!!! وهكذا سيوفِّرُ هارون نقطة السمّ لحذف مجرمٍ آخر، يخبِّىء في عبه قنبلةً تزعزع عرش هارون!!!

وانتقلت يا هارون الى دراسة السبيل الثاني، بإنشاء مجلسٍ قضائي تحاكمني فيه، وتقضي عليَّ بالموت المؤكّد!!! ولكن المجلس القضائي هو بحاجةٍ أُولى الى انتقاء قضاةٍ يقتنعون بتجريم الإمام، مما يستحق الاعدام!!! سيكون لك يا هارون أن تنشىء مجلساً ينفذ هذه الغاية... ولكنَّ شهرة الإمام بالاستقامة، سيتناولها التاريخ، ليدعم بها شكَّهُ الكبير بمجلسٍ قضائي ينشئه الرشيد ليكون فاصلاً بالعدل والحق... وإذا به قضاءٌ كذّاب، لا يتعمق، لا

بالدرس، ولا بالعدل، ويتهم بريئاً كالإمام، ويحكمه بالاعدام!!! لقد توقفت طويلاً يا هارون ـ وأنت تدرس كيفية إنشاء مجلسٍ قضائي. . . ولكنك لم تقدم على إنشائه، حتى لا تقع في مثل هذا الريب!!!

لم يبقَ لك غير الالتجاء الى سبيلٍ ثالث ـ درسته بإمعان، فوجدته في حقيقة التلبية. . . وها أني أعرض عليك ـ لأبرهن لك أني ذكيٌّ مثلك، أتمكّن من اكتشاف مخططات الأذكياء!!!

لقد قلت يا هارون في ذاتك: لماذا ألجأ الى السم، لتنفيذ مآربي؟ أو ـ بالتالي ـ لماذا ألجأ إلى مجلس قضاءٍ، لن أحصل منه إلا ما تفرضه عليه إرادتي؟!! أليس عندي ـ ومن ضمن صلاحياتي المطْلَقة ـ ما يوصلني الى مرامي، من دون استخدام نقطة سم!!! أو استجداء مجلسٍ قضائي. . . والاثنان ـ ربما ـ قد يشوّهان سمعتي!!! أجل يا هارون. . . أليست مفاتيح كل السجون في قبضة كفك؟ يفتحها لك ـ الاحتياط ـ ساعة تريد، فتزجّ فيها كلَّ من تشكُّ به ساعياً الى زعزعة العرش؟!!

أجل ـ انه الاحتياط!!! والاحتياط الكبير. . . يجعلني أتلقط بتلابيبك يا موسى! وأفتح بوابة السجن الذي أريد، وأزجّك فيه، من دون أي محاسبٍ، أو متسائلٍ، أو أيّ رقيب!!! هكذا تقضي مصلحة العرش: أنْ أَلُتَّكَ بالصمت، وبالعتمة، وبالخفاء المطبق. . . لا لشيءٍ سوى ابعادك عن الساحة التي تجمع فيها عيدان حطبك،

لتشعلها، وتحرق بها قوائم العرش!!!

وارتحت كثيراً يا هارون، لانتصار الفكرة فيك، وهي التي ستنجيك من قولة التاريخ الذي سيتلهّى ـ فقط ـ بأنسوجة التهمة: هل تستحق عتمة السجون؟ أم لا تستحقها؟ وهل هي تهمةٌ؟ أو أنها ابتداع تهمة؟!! وهكذا يبقى التاريخ متلهّياً بالبحث الطويل... والى أن ينتهي السجن الطويل، أكون أنا ـ يا هارون ـ قد لفظت أنفاسي!!! وانتهى الأمر!!!

انه ذكاؤك يا هارون... وانه ذكائي ـ أيضاً ـ عددتُ به درجات ذكائك الذي يُرَبْعُكَ على قوائم العرش! فنم هنيئاً فوق مدارجه، الى أنْ تستفيق الأمةُ فتجدَكَ مهرجاً زيّف لها حقيقة المجد!!!

أظنُّ الامام قد تناوله نوعٌ من راحة، وهو يحلّلُ نفسية هارون الرشيد. ولكنها راحةٌ مقتنعةً بأن الغد القريب آتٍ إليه بكربٍ لا بدَّ من تحمُّلِهِ بصبرٍ عجيب... ولقد تفسَّر اقتناعه، وها هو يفتح بوابة داره ليجد أمامه رسول الرشيد ـ مع الصباح الباكر ـ يستدعيه لمقابلة الملك، وهو بحاجةٍ اليه ليستفسره عن بعض المبهمات... ولبَّى الإمامُ العرشَ، وهو يوجس خيفةً من هذه المهمات!

وطرح الرشيد على الإمام سؤالاً كأنَّ فيه كل التحرُّشات:

ـ ما رأيك يا حضرة الإمام بشذراتٍ لا نزالُ نسمعها في الساحات: بأنَّ الامام موسى غير مرتاحٍ الى حكمٍ يدعي أنه حقٌّ، وعدلٌ وصواب، وهو الخالي من الحق،

والعدل، والصواب!!! هل هنالك من «فُخٍّ» جديدة يحضِّرُهَا الكتمان، وقد شملها الغفران والنسيان؟!!

أخذ الإمام السؤال وغرق فيه من دون أن ينبس بأي جواب. . . ولكنَّ الملك هزَّهُ من جديد:

ـ أنا لا أعرف الامام إلا صادقاً في كل ما يقول. . . ولطالما رشقتني بمثل هذه التمنيات، وما كنت آخذها منك إلاَّ بريئة. . . فهل هي ـ حتى اليوم ـ لا تزال بريئة؟!

والتفت إليه الإمام وأجاب:

ـ كنت دائماً تأخذها مني بريئة، ثم تردها إليَّ غير بريئة. . . لنا الله فيك يا هارون! لماذا لا تأخذها غير بريئة ثم تردها الينا وهي مكسوَّةٌ بالبراءة؟!! غير انك تعلم أني ما طرحت تمنياتي في الأمس: ـ عليك ـ بل في أذنك ـ وحدها ـ كنت أطرحها، حتى تكون أنت محقاً، وعادلاً، ومصيباً، إعلاءً لشأنك، وصوناً لمصلحة الأمة التي لا يبنيك، ولا يبنيها، إلا الحق، والعدلُ، والصواب!!! فاتهمني بما شئت. . . فإني لم أعد أبالي إلا بمن أومن به: حقاً، وعدلاً، وصواباً. . .

لم يكد يصمت الامام، حتى نهض الملك، وتناول الامام وصافحه بيده وَقَبَّلَهُ بشفتيه وهو يقول:

لا بدَّ لي من أن أُصدِّقك. . . فاذهب الآن بأمانٍ، وسنلتقي بعد حين!

وقال للحارس الذي ما زال بين يديه، وأظنه حسان السروي:

ـ اذهب بالامام، . . أوصله الى البسرية. . . لقد اشتراها الامام بثلاثين ألف دينار، فهي له. . . أوصله اليها!!!

وقال الحارس:

ـ ان قافلة الرجوع مجهزةٌ يا سيد العرش. . . وأنت يا سيدي الامام. . . تفضل معي. . . أنا بين يديك!!!

ومشى الحارس، وتبعه الإمام، ومشت القافلة المنظمة للحراسة المعدودة. . . وعند المساء وجد الامام نفسه في البصرة، حيث تسلَّمه عيسى بن أبي جعفر، وزجَّه في بيتٍ من بيوت «المحبس» ـ ولم يسمح له بالخروج إلا للطهور. . . غير ان الحارس حسَّان بَلَّغَ قائد المحبس أوامر الرشيد بألاَّ يمطِّط كثيراً ليالي السجن على الإمام. . . وإذا تمكَّنَ ـ مع الصباح ـ من خطف أنفاسه، خير له من أن يبقيه حتى المساء!!! ولكنَّ عيسى بن جعفر، رفض الانصياع لمثل هذه الأوامر الجهنمية التي تثقل ضميره الانساني. . . وبعد أيامٍ قليلةٍ تمَّ نقل الإمام من البصرة الى بغداد حيث تسلَّمه الفضل بن الربيع. . . ولم يقبل أن يسجنه إلا في داخل بيته، لأنه كان يكنُّ له احتراماً مخصوصاً. . . هنا كان للإمام موسى أن يتنفَّسَ الصعداء، ويسرِّي عن نفسه أمام الربيع، بكل ما كانت تعتلج به نفسه من هارون الرشيد ـ قال ـ والربيع مصغٍ إليه بصمت بليغ:

ـ أشكرك يا عزيزي الفضل، لا تسجنني ـ فقط ـ في بيتك، بل في جنةٍ من جنان الله. . . فيها العطف والكوثر. . . ولكنَّ جنتك يا أُنسِي الكريم، لن تدوم لي أكثر من بضع ساعات. . . فلأتذوقها ما زلت الآن معك.

ماذا أقول أمامك في الرشيد؟. . انه لا يريد أن يسجنني،

بل أن يمحوني من أمام ظنونه، وتبكيت ضميره!!! لماذا؟؟؟ لأنني أنصحه بإشاعة الحق، والعدل، والمعروف، فيطول عمره وعمر الأمة، بالخير الصحيح!!!

ويتهمني: بأنني أمدُّ يدي لأسحبه عن عرشٍ فاجلس فيه... في حين أرجوه أن يسدِّد بالحق عرشه، فيبقى له هذا العرش، وأن يدعني أطيل عمر الجامعة التي تنيره وتنير الأمة على السواء... ولقد اشترى الأخصام يشهدون عليَّ بتجميع الثروات أنفقها في سبيل الوصول الى خلافةٍ تحطم العرش على رأسه!!! وها هو الخائن المرذول ـ علي بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو نسيبي، يشهد بين يديه عليَّ!!! بماذا يشهد؟ بأني اشتريت ضيعة البسرية بثلاثين ألف دينار... وسأحطم العرشَ بها على رأس الخليفة الملفوف بالشنار!!!

وضيعة البسرية!!! نحلتني بها الأمة، لتعزيز مركزي الإمامي، أرعى به شؤون الأمة... يا للقصور، والدور، والحدائق!!! كيف سيتبجح بها الامام موسى، من أموال الأمة، ليجعلها متعةً له، لا يدور فيها: إلا القصفُ، والرقصُ، وكل أنواع المتع الدنيا!!! بينما يكون هارون الرشيد قابعاً في الزوايا المعتمة، لا يجترُّ غير الفقر والحرمان!!

لم يصل الامام موسى الى مثل هذا الحدِّ من البوح، والتذمر، والنفعال، حتى كانت كوكبةً من فرسان هارون الرشيد، تطوِّقُ بيت

الفضل بن الربيع، وتطوّق يدي الامام بالسلاسل، لتنقله الى بغداد حيث سيرمى في سجنٍ يتحكم بأبوابه الفضل بن يحيى. . . وهذا ـ بدوره ـ تلقى أوامر الرشيد، وهي ذاتها التي كانت موجهةً الى الفضل بن الربيع!!!

ولكن الفضل بن يحيى ـ بدوره ـ ما امتثل إلا كما امتثل الفضل بن الربيع. . . مما أحوج الرشيد، وبسرعةٍ قصوى، الى نقل السجين الى عهدة السندي بن شاهك.

والسندي هذا ـ وهو الآن شيخٌ مسنٌّ ـ وهو أبو المنصور، جدّ هارون الرشيد، وان الجسرين من نهر دجلة في بغداد هما ضمن ولايته، وهو الذي سيتولّى حراسة دور البرامكة الذين سيغدر بهم ـ في الغد القريب ـ هارون الرشيد، ويحذفهم من الوجود!!!

ان هذا السندي بن شاهك، سيكون الوغد الأثيم المنفذ أوامر هارون الرشيد، متسلماً من يديه رطباً مسمومة، ما كاد يطعمها الإمام موسى حتى مات مسموماً، عن عمرٍ يناهز الخمسة والخمسين. . . بعد أن أمضى في السجون ما يقارب السبعة عشر عاماً. . . لم يقدِّمْ ـ فيها ـ للرشيد طلب استرحامٍ، واكتفى بأن يوجه إليه هذه الرسالة في سطرين:

ـ لن ينقضي عني يوم من البلاء.

حتى ينقضي عنك يوم من الرخاء!

أما عرض جثمانه فكان طيلة ثلاثة أيامٍ على جسر الرصافة في بغداد ولم يقم بغسله وتجهيزه إلا سليمان بن أبي جعفر.

* * * * *

في مقابر قريش

وفتحت مقابر قريش، لتقابلَ المغلولَ بالسلاسل، وإذا بالسلاسل كلها ضفائر ضفائر، تحيط بالمسجَّى كالمناديل المزركشة بالمنائر!!! ومن أبهاها وجهٌ من لؤلؤ، عيناه من مرامي الأفق، وجبينُهُ فضاءٌ من سماءٍ ترصّعها الدراري... انه جَدُّ النبيّ، وعلى يمينه وجهٌ مطلٌّ بعليّ، كأنه انشقاقٌ من مناخاتٍ تنام فيها شموسٌ لا تذوي... وعلى يساره زندٌ مربوطٌ بألف رمحٍ وألف حسام... انه الحسين ـ كأنه لا يزال مشدوداً بأرض كربلاء ـ تشربُ منه: الدمعَ، والدَّمَ، وأعراقَ الجهاد...

وانحنى الحسين على الجسد الآتي من حضيض كربلاء ـ ليعانقه، ويقولَ له:

ـ ان رحابَنَا في فُسَحِ السماء، هي التي تناديك اليها، يا أيها الخارج من جهادٍ كظمك فيه هارون الأرض، يا رافع الأرض الى صفاء السماء!!!

وأقفلت مقابر قريش... ونام الامام الكاظم كأنه لم يغب بعد.

* * * * *

الاطار الرابع

بعد الغياب

بعد الغياب
نداءات الإمام
تراثه الفكري ـ الروحي ـ الاجتماعي
موسوية الامام
ألقاب الإمام
جسر الرصافة
حوار فوق جسر الرصافة
همس فوق جسر الرصافة
همس في أذن الرشيد
همس الهمس

بعد الغياب

لقد مشت الجنازة الكبيرة بجثمان الامام الكبير، من جسر الرصافة الى مقابر قريش، وكل السائرين في الركب الحزين دامعون ـ وعلى رأسهم سيد العرش هارون الرشيد ـ لقد كان ماشياً مطرقاً، وهو يلملم ـ بمنديله الأخضر ـ دمعاتٍ حمراء، ما ارتضى إلا أنْ يبذلها ـ آهاً ـ على إمامٍ راح يسميه: قريبي الإمام موسى بن جعفر!!!

إني الآن أقول: فعلاً ـ إنّ الرشيد هو الحزين، ولقد صدَّق الناسُ حزنه، وراحوا ـ ساعة تلك ـ يلثمون يديه معزِّين!!! ولقد صدَّقَهُ التاريخ ـ ساعة تلك بالتمام ـ وراح يصف لنا دمعات حزنه: كم كانت رخيَّةً حمراء، ما استنزف مثلَهَا ـ حتى الآن ـ إلا هذا الوليّ ـ الصامت ـ الكاظم ـ الصبور، الماثلُ حيّاً في الوجدان... انه الإمام موسى بن جعفر... يا له من إمام!!!

لماذا لا نقف وقفةً جريئةً في التحليل النفسي الذي يقدمه لنا الآن هارون الرشيد... لماذا لا نقول: ـ وفي هذه اللحظة بالذات ـ وهو الطامر الإمام موسى بسنوات السجن، وسنوات القهر، وسنوات العذاب المنتهي الآن أمام فوهة القبر... أجل، لماذا لا نقول: ان هارون بالذات، وفي هذه

اللحظة بالذات، قد تمَّت له يقظة جديدة، جعلته يبصر انه ـ وحده ـ المتجنّي على وليٍّ، ما كان يستحقُّ الا محض الولاء!!! ألا فليذرِّفِ الآن هارون الدمعَ، لا على الوليِّ المسجّى بقمصان الطهر ـ بل على ذاته الهارونية المغطاة بقمصان العهر!!!

واننا الآن نسأل: هل في دموع صاحب العرش إقراراً بمبرَّات الامام موسى؟!! وبالتالي ندمٌ على ما ارتكبه الرشيد بحق الامام؟!! ولكنَّ استطلاع البحوث الواردة في متن هذا الكتاب، تعود وتقول: ان البنية النفسية في هارون، شبيهةٌ بقوسٍ له طرفان معكوفان، واحد يقول: نعم، ليقول الثاني: لا... ودائماً كان يقول هارون في طرفي قوسه: موسى مصيبٌ، وصاحب مبرَّات... وفي اللحظة ذاتها: ليس موسى مصيباً وصاحب مبرَّات... وسيكون الرشيد ـ أيضاً ـ في هذه اللحظات الحزينة والدامعة، نادماً على ما ارتكبه بحق الامام... ثمَّ غيرَ نادمٍ على ما ارتكبه بحق الامام... ولسوف يقدِّمُ التاريخ لنا تصديقاً لما نقوله الآن، بأنه يقول مع الصباح كلمةً، يتنكَّر لها عند المساء!!! ألم نَره غريقاً بحبّ البرامكة، يمحضهم مع الصباح كلّ الحب، ومع المساء يغمرهم بالموت الزؤام؟!!

ليس هارونُ الرشيدُ موضوعَ هذا الكتاب إلا بقدرِ ما كان فيه متجنِّياً على إمامٍ عجَّلَ في إذاقته طعم الموت... من دون أن يدري الرشيد، ان الموت ـ بمعناه الصارم ـ لا يطال الأولياء الأغنياء بفعَل الفكر، وفعل الروح، وفعل المبرَّات؟ بل برَفْعِهِمْ الى درجاتٍ أخرى، تطلُّ من فوقها كل نتاجاتهم الفكرية، والروحية، والمثالية، كأنها النباريس المنيرة، والتي لا تعتمر إلاَّها كل المجتمعات الانسانية في استمرار وجودها فوق صفحات الأرض... وها هو المأتم البارز الآن أمامنا تجاه مقابر قريش، يحدثنا ملياً عن ان القيمة الكبيرة المتمتع بها الامام موسى، وهي التي تنحني أمامها

جموع الناس في بغداد، وهي التي تحرِّك الآن مقلتي صاحب العرش هارون الرشيد، بتذريف دموع ساخنة، تحمل الاحترام والتخشّع ـ ليس أمامَ جسدٍ بدأ ينحلُّ الى وحلٍ وحديد... بل أمام قيمة أخرى بدأت تشهد لها أقواس المبرات، بأنَّ بغداد، والأمة كلَّها خلف بغداد، تحتاجها في التقويم، والتشذيب، والتمتين المحتاج الى أخلاقٍ، وصدقٍ في الحق، والعدل، والصواب... وكلها كانت في مناداة الامام، قبل أن يغمض عينيه!!! وهي كلها ذات المناداة، لا يتردَّد غير صداها، في الجو الذي ملأه الإمام بهذي المبرَّات!!!

ليس بعد الغياب إلا رجوعٌ آخر، هو رجوع الفكر الأصيل الى مجراه الذي دفق به الروح الأصيل...

إن في الحياة ردحاً آخر، تماوجت به الحياة، من أجل الحياة الهادف بها نداء الحياة...

أما الامام موسى، فهو الدفقة الخارجة من فوهة الحق... ولن يكون للمجتمع، الا أن يناديها ويتأوَّدَ بها حتى تستقيم خطواته...

أليست ـ هنا ـ حقيقة الإمام؟!! ونداءاته؟!!

* * * * *

نداءات الإمام

لقد كانت نداءات الإمام عديدة، وحسبنا منها انها كانت شاملة. والشمول فيها، حصرها في بناءِ المجتمع، وتركيزه على حقٍ قوامُهُ الصدقُ، والتَيمُّنْ بالتقوى المتولّد منها خُلُقٌ كريمٌ، تنعجن فيه عاداتٌ وتقاليدُ، هي ذاتها المجتمع القائمُ على نقاوة الفكر، ونقاوة الروح، ونقاوة المسعى المنقَّى: من الزور، والكذب، والبهتان... اما الاطماعُ الحقيرةُ التي تقوّي الحيوان في مهجة الانسان؛ فانه خصَّهَا بوابلٍ من اللعنات، لا لأنها أطماعٌ بحدِّ ذاتها، بل لأنها عامل كذاب، تدعي انها طموحٌ الى تحقيق المغانم، والثروات، والأمجاد... بينما هي في سلبيةٍ أخرى، لا يتحقق فيها إلاّ الرياء، والاستذلالُ، والاستبداد، لتكون ـ بالنتيجة ـ لصاً يسرق ما في معجن أخيه من خبزٍ، ليميت أخاه بالمجاعة!!! وإذا بالمجاعة الكبرى، هي التي تأخذ الأخوين بالذلّ الموحَّد!!!

ما كان الامام يستجمع مثل هذه التشاؤمات، إلا وهو متمثّلٌ الأمة التي هي أمة جده النبيّ الذي انسكب فيها بكليته، ليبنيها بالحق الواضع والناجي من تراكمات الترهات؟ وبدلاً من أن تستقيم معابرُهَا الصاعدة بها الى

المجد، . . راحت تتلوّى بها المحاذير النابتة من ذات الترهات التي هي سياساتٌ كاذباتٌ ناطقاتٌ بالزور، والبهتان، والأطماع، وكلها آفاتٌ توسلها بنو أمية ـ في ردحٍ من الوقت ـ وها هم الآن بنو العباس، يتوسلونها، لا لإسعاد الأمة، وارفاهها، بل لتوسيع الرفاهِ عليهم، بإشادة قصور البذخ، ومقاصير المجون، والرقص فوق ظهور العباد!!!

كأني توصَّلت ـ بهذا التلميح المختصر ـ الى مبتغاي من القول: بأنَّ نداءات الامام موسى كان لها الشمول الوسيع، بمعنى أن حياته كلها على الأرض، وهي لم تتعدَّ الخمس والخمسين من السنين المقهورة، جاءت كلها تعبيراً عن هذا الشمول المحصور بعنوانٍ واحد، وهو علم الاجتماع. . . واجتماع الامام هو المخصوص بأمته التي محضها كلّ فكره، وكلَّ انتاجه، وكل شعوره، وكلَّ عافيته، وكلَّ اهتماماته، وكلّ آلامه وتنفساته. . . ولم يرد الا أن يجعل نفسه قدوةً منزلاً فيها ـ بصدقٍ تام ـ كلَّ ما قاله، وفكَّرَ فيه، وقام به، منذ أن وعى ذاته، الى أن لفظ أنفاسه. . . سيعيش من أجل الأمة ـ سيبدي الرأي الذي تنتفع به الأمة ـ سيغتاظ من أجل الأمة ـ سيتحمل الغيظ من أجل الأمة ـ سيصبر، ويعلم الأمة الصبر، من أجل الأمة ـ سيصلي من أجل الأمة ـ سيموت من أجل الأمة!!!

أليس كل ذلك هو الانعجان بمصالح الأمة، ومصير الأمة، لإيصال الأمة الى الدائرة التي رجاها لها نبيها الرسول؟!! أنه العالم الاجتماعي المطبّق على ذاته كلَّ ما ورد في نصوص علمه الوسيع الشامل كلَّ ما تحتاجه الأمة ـ ليس فقط الآن، بل كلَّ ما تحتاجه من روية، وصبر، يوصلانها الى الربح الصامد لها في الغد المنتظر!

سيكون لنا ـ ولو بالتلميح الموجز ـ استعراض الامام في كل ما أنتج، وأعلن وأضمر. . . ستبدو لنا ـ في كل ذلك ـ شخصية الامام البارزة في تراثه

الفكري، الروحي الاجتماعي. . . وفي موسويته المتجذرة في إيران وقد زرع فيها وليّاً من بعده، هو الامام الرضا. . . وستبدو لنا هذه الشخصية الفذَّة حتى في ألقابه التي محضه بها المجتمع بأسره، فإذا هي تصفه، وتتكلم به، كما تتكلَّم بالمعاني روعات البيان.

أما جسر الرصافة: فسيعانقه جثماناً ناطقاً بالصمت الكاظم الغيظ. . . وتلك قيمته المثلى ـ يحيا بها ـ من دون أن تمحوها نقطة الختام.

* * * * *

تراثه الفكري، الروحي، الإجتماعي

وتراثُ الامام موسى؟ ولن يكون فكرياً أكثر مما هو روحي . . . وليكن فكرياً ـ روحيّاً . . . إنما هو ـ في مآله الواسع والشامل ـ اجتماعي بكل ما في الكلمة من أبعادٍ ومقاصد . . . كما وان اجتماعيات الامام، لم تُبرزْهَا بكل ماهياتها الجليلة، أقوالُه المخطوطة في إطار الحروف ـ وهي فصيحة المبنى، والمعنى والإشارات ـ انما كان لها مددٌ آخر، مَدَّتْها به، كلَّ أفعاله الصادقة التعبير عن حقيقة ذاته، وحقيقة مناهجه في الحياة، وفرادة إيمانه بالأمة التي هي كل ملاذه في الوجود ـ وبالتالي ـ كيفية التعبير عن هذا الإيمان الوطيد بسلوكٍ مدرَّبٍ بالعفاف، والصدق، والتقوى، وليس من غيرها ما يبني الفرد ـ السائسَ والمسوسَ ـ في تجهيز الأمة نحو تحقيق البلوغ!!!

سيكون لنا التمعُّن بتراثه ـ بقدر ما يُفْسَحُ لنا بالمجال ـ على أنْ نستعين قليلاً بأفعاله، وبتحمله الضيمَ بصبرٍ فائق المثيل، ليكون ذلك ـ منه ـ مساندةً فاعلةً تثبُتُ صدقه في كل ما قال، أو ما سيقول:

صحيح أن ما كتبه الامام، لا يؤلف مجموعة «كتبية» تغصُّ بها رفوف

المكتبـات، ولكـن الفكـر فيهـا يـدل إلـى غـزارة عنـده، تصلـح لأن تكـون موسوعاتٍ علميةٍ، وفلسفية، واجتماعية، تمتلىء بها كتب الباحثين. . . أقول ذلك لأعني أنَّ اختلاء الإمام بنفسه، وبقلمه، لم يكن موفوراً له، في مثل هذا الجوّ الرهيب الذي أحاطه به المتجنُّون عليه من بني العباس. . . يكفي أن نشير الى أن السجون الطويلة التي عاناها في حكم الرشيد، لم يكن له منها فسحة من وقت وطمأنينة، ينسكب فيها على الانتاج، والتأليف. . . من هنا، أنَّ اختلاءات الامام، ما كانت لمنادمة القلم والقرطاس، بل لتضميد الجراح التي كانت تصيب بدنه وروحه!!! ومع ذلك كله، فإن ما قدَّمه لنا الإمام، من جنى غزاراته، لا يجعلنا إلا خاشعين أمام صلابة إنتاجه الذي ننوّه عنه مع القليل القليل من التفسير:

١ ـ رسالته في العقل

لم أتمكن من تناول رسالة الإمام في العقل، إلا وأنا أتمثَّله غارقاً في معبدٍ من معابد البراهمة الساجدين في حضرة إلهٍ عظيمٍ وقدير، خلق الأرض، والأفلاك، وكل المجرّات، بلحظةٍ واحدةٍ، وجلس يتأمَّلُ ذاته في كل ما خلق وأبدع. . . لم يسجد الامام بين يدي إلهٍ جالسٍ فوق أريكة، وهو يتأمل في كل ما أبدع. . لأن إله الإمام موسى هو اندماجٌ مطلق في كل ما هو كائنٌ في حقيقة المطلق، أما سجوده الآن، فهو حركةٌ من حركات التجريد، لم تجد أمامها إلا العقل المجرّد من أنسوجة الإنسان، وهو الوحيد، البصير، المتمكن من الإشارة الى كل ما هو مبثوثٌ في حركية الكون الذي هو في حقيقة المطلق.

لقد سجد الامام ـ فعلاً ـ أمام قوة العقل، وراح يشيدُ به طاقةً استيعابيةً فريدة، تأخذ العلم وتتفرَّدُ به، لاستجلاء المبهمات، واكتشاف الحقائق المستنيرة بها مجتمعية الإنسان. . . وحده العقل هو المنبثق من نقطة

الجوهر، وهو الواجد ذاته في اندماجية الجوهر. . . أما الأمة النازلة رحيباً في اهتمام الامام، فليس لها غير العقل تتعهده بالرعاية والتقدير، حتى يتمكن ـ رويداً رويداً ـ من تذليل العقبات الكثيرة التي تعرقل وصول الأمة الى الاستحقاقات الشهية!!!

ولقد بحث الإمام ـ بكثيرٍ من الجدية ـ عن كل الضفائر الممهِّدة للعقل نموّاً، واتساعاً، وتحقيقاً اجتماعياً مجدياً في فاعليةٍ، وصدقٍ، وحقيقة اندفاع. . . وهكذا اتسعت أمامه كل المصادر، المحتاجة اليها الأمة في تجهيزها مناراً لكلِ فردٍ من أبنائها المجموعين باسم الرعية. . . وأظنه لمَّح اليها ـ هذه المصادر ـ بشكل عام في محتويات الرسالة ـ وبشكلٍ آخر تطرَّق اليه مشروحاً في أحاديثه العامة والخاصة مع أبناء الرعية. ولم يتورع عن التلفظ بها أمام أولياء الحكم ـ أكان بصراحةٍ أم بتوريات ـ قَصْدَ التخفيف من عنجهياتهم الضارة بمصلحة الأمة!

سيكون العلم مصدراً أساساً لتغذية العقل الفردي والجماعي ـ ولقد رأينا كيف أن الإمامة المثلثة، والمؤلفة من أجداد الإمام، رصدت كلَّ جهودها في اعتماد الجامعة العلمية، تنويراً للعقل، وتوسيعاً لدوائره في محيط الأمة. . . وها هو الامام الذي هو تلميذ من تلاميذها اللامعين، يطلب من الحاكم توسيع الدوائر العلمية في كل أقطار الأمة، تعميماً للوعي الذي ترتفع به سوية الأمة. . . ولكن الحكم لم يستجب للطلب، لغايةٍ في نفس يعقوب! وراحَ الى زجّ الامام في السجون المعتمة، حتى لا يدير الجامعة التي توقفت، بعد أن جاهدت سبعين سنةً في حقلها المثمر!!!

ورأي الإمام ان العلم يبقى مقصراً في تأديته العظيمة، ان لم تسانده كل الفروع المنضوية اليه: كعلم التاريخ، وعلم الجغرافيا في جميع فروعها، أو أنواعها: التحديدية، والسياسية، والاقتصادية. . . وكذلك علم

الحساب، والفيزياء والكيمياء. . . انها كلها دوائر علمية، توسع العقل في تفتيشه عمَّا تحتاجه الأمة في جميع متطلباتها المعيشية. . .

وكذلك رأى الامام ان الأمة بحاجة ماسةٍ الى عنصرٍ خلقيٍّ متين التركيز، هو الدين في فلسفته الشاملة كلَّ حيويةٍ من حيويات المجتمع، ولولاه لعمَّ اليباسُ كلَّ النُهُجِ، بعدم تركيزها على قيمٍ تضبطها من الكفر، والالحاد، والزندقة؛ من دون أن تجمعها مُثُلٌ قويمةً من حقٍّ، وصدقٍ، وعفةٍ، وإيمانٍ. . . وكلها ضوابطٌ إجتماعيةٌ خيِّرةٌ؛ تجمعها التقوى في حيِّزٍ من الخير الصائن المجموع من الانفلات. . . ولن تكون التقوى إلا نابعةً من الإيمان بالله الذي لا تراه العين، وتراه البصيرة. . ولا تدلُّ اليه الصفات وتدلُّ اليه مطلق الموصوفات ـ ولا تحصره الأمكنة، ولا الآجال، ولا الأزمنة. . ولا أيَّة من الحركات؛ لأنه قبل الوجود وبعد الوجود، وقبل الافاضة وبعد الافاضة، سواء بسواء. . . أيكون للشمول تحديد الشمول؟. . ويبقى الشمول بغير حدٍّ، لأنه ذاته هو الفضاء!!!

والتقوى؟ ـ وليست غيرَ إيمان بالله ـ هي الموصوفة بلغة الأرض: بالفضائل الإنسانية التي هي محض صفاتٍ اجتماعية، تصون المجتمع من كل آفةٍ يصاب بها المجتمع وينشلُّ الى خراب!!! ولا ينهض المجتمع الى بناءٍ وعمران، إذا يشيع فيه: الكذب، والزور، والبهتان. . . فلا الزنى يبنيه، ولا الخلاعات الحمر، ولا شهوات الذئاب، ولا أية شريعة من شرائع الغاب!!! ويبنيه: الطهر، والعفاف، والصدق، والحب النبيل، والحرمات التي تصونها الاستقامات، والعدل في توزيع الحصص، وضبط الحكام في مسؤولياتهم الإدارية، من دون أن يخونوا الأمانات!!!

تلك هي التقوى التي هي حقيقة الدين الذي ما ونى يبشر بها الامام، في سره، وفي جهره، أمام الناس، وأمام الحكام. . . لا ليصير صاحب

عرشٍ. . . بل ليبني أمةً تخلد بها مآتيها الى أبد الدهر. . .

وهذه التقوى بالذات؟ مَنْ يدركها في حقيقتها من الصواب؟ غير العقل الذي يطلب له الامام زيادة نموٍّ، وفاعلية، يساعدان الأمة في إنالتها رجاءَ يخلصها من كل ما يبعد عنها هذا الرجاء!!! وانها الدوافع ذاتها، كانت تنام في غزَّارة الامام الكاظم الغيظ في لبّه، فراح ـ في لياليه المليئة بالحزن ـ يخط على قرطاسه رسالته في العقل، يقدمها الى الأمة، والى الحاكم بالذات، على أمل منه بأن تتحلحل الأمة الى وعي يفيدها ـ وعلى أمل ـ أيضاً ـ يوقظ الحاكمَ الى تخفيفٍ من جوره تُفيد منه الأمة بعض الرجاء!

وأقول: لو كان للإمام تمتعٌ ببعض أمانٍ يبعد عنه عتمات السجون، لجاءت رسالتهُ في العقل في دفتين وسيعتين تضاهيان حجم نهج البلاغة! ولا غرو، فان ابن جعفر هو الحفيد الموصول القطب بالقطب الذي هو جده الأكبر!!! يا للإمام ابن أبي طالب، لا يزال المحيط الهاجعة فيه فرائد الدرر!

٢ ـ رسالته في التوحيد

ومن جملة ما اشتهر به الامام موسى في حقله الفكري الثمين، إنشاؤه رسالةً مخصَّصَة بالتوحيد، أي توحيد الله العظيم في كل قضايانا الفكرية والروحية والمعتقدية؛ لأن الله ـ جلَّ جلاله ـ هو المصدر الأبدي، والأزلي في وجودنا المطلق، وإنَّ مآلنا اليه هو المآل الأوحد والأصدق، ولا يجوز للأمة إلاَّ أن تتوحَّدَ به ضابطاً لها ـ بصدقٍ ـ كل شؤونها الحياتية!

ان الموضوع ـ بحدِّ ذاته ـ جليلٌ وواسع الأهمية، وإنَّ البحث فيه لا تكفيه رسالةٌ في عدة صفحاتٍ موجزة، بل كتابٌ مجهَّزٌ بمئات الصفحات، تمتِّنهُ التحاديد العقلية، الفلسفية، الروحية، وتشرعه الآيات البيِّنات، بلسان الصدق، ولسان المنطق المؤمن بإلهٍ واحدٍ وموحَّدٍ في كل ما لا يحدد من فضاءِ الكائنات. . .

والحقيقة التي لا تنتقصُ أنملةً واحدة من القيمة الإدراكية التي يتمتع بها الإمام. . ان البحث هذا، ما تمكَّن الإمام من تقديمه إلا في عدة صفحاتٍ موجزة، في حين ان التوحيد [هو دين الإسلام، وقرآن الإسلام، ومعتقد الأرض كلها، في خضوعها بين يدي إلهٍ خالقٍ واحد، هو إله الإسلام] إنما هو بحاجةٍ الى كتابٍ وسيعٍ وعريض الحواشي، يكون شبيهاً بنهج البلاغة، يُشرَع فيه الاسلام الوسيع الحدود، في ظل التوحيد الذي هو جوهر الاسلام. . . والامام موسى هو المتمكن الممتاز في إملاء مركزه الإمامي بكتابٍ من هذا الوزن!!!

ولم يتمكن الامام من مثل هذا الإنجاز، لا لسببٍ إلا لأنه يتطلّب تفرُّغاً يلزمه الوقت الطويل للقيام به!!! ويكفينا أن نعلم أن السجون المعتمة ـ وقد زجّه فيها صاحب العرش هارون الرشيد، على مدى مرقومٍ بسبعة عشر عاماً ـ هي التي وفرت للإمام، ساعتين من الوقت، حبَّر فيها رسالته الصغيرة في التوحيد، وأرسلها الى من طلبها منه. . . وأظنّ اسمه: الفتح بن عبدالله: انه مؤمنٌ محتاجٌ الى توضيحٍ يفسِّر له حقيقة التوحيد!

ورسالة التوحيد ـ هذه بالذات ـ جاءت مشروحةً على أوسع وأتمْ، في رسالة الامام السابقة، وقد تناولناها ببعض الشرح، أنها رسالته في العقل. . . وهي رسالة ـ أيضاً ـ وجَّهتها الأمة الى الإمام، طالبةً منه شرحاً عن العقل، وتعيين مقدار ما يلزمه منه مجتمع الأمة. . . وَلقد أجاب الإمام الأمة، وخصَّها برسالته في العقل، وهو يتمثلها باسم «هشام»، وراح يملي عليه ـ بل على الأمة ـ بالذات ـ كلَّ ما يعنيه العقل، وكلَّ ما تحتاجه الأمة من العقل الذي هو وعيُ الأمة، وحقيقة الأمة. . . وكذلك راح الإمام يشرح للأمة معنى التوحيد الذي تحتاجه الأمة في وحدتها المؤمنة بإلهٍ واحدٍ قديرٍ وجبَّار. يغمرها بكل ما تحتاجه من مواهب وصفاتٍ، حتى تحقق وجودَهَا الأمثل فوق صفحة الأرض!

هكذا جاءت رسالته في العقل، وهكذا جاءت رسالته في التوحيد: موجزاتٍ صغيرةً في ظلّ معاني كبيرة، لا تفي بتوضيحها وشرحها إلا المجلدات. . . ولقد فهمنا ان الوقت القصير والحزين، هو الذي جعلها قصيرة، ولم يكن موفوراً للإمام إلا الوقت الصغير لإنتاجه الذي اكتفى بالتلميح اليه التلميح الموجز. . . والأمة ـ بدورها ـ قد اكتفت بالتلميح، تأخذه منه الى دخيلتها التي تمنّ ـ على هذا التلميح ـ بالتصريح والتوضيح!

هنالك حاجات عديدة كانت تفتقر إليها الأمة في مسيرتها فوق هذه الشعاب المليئة الآن بالشوك والهشيم!!! وكان الإمام ملتاعاً: كيف يمكّنُ الأمة من اجتيازها بنوعٍ من أمان. . أو كيف يكون لها تحمُّلُهَا بنوعٍ آخر، من تصبُّرٍ وطول أناة. . . وها أني مستعدٌّ الى ترقيم بعضٍ منها. وكيف كان الامام يقوم بتقديمها للأمة: بتلميحٍ بليغِ الإشارة، وصدقٍ صادقِ الأداء وبارع الفن.

دائماً هو التلميح. . ولقد كان وحده هو المتاح للإمام اللجوء اليه، بنوعٍ من حكمةٍ وروية، من دون الانصراف الى المعالجات الموسعة والصريحة التي يتطلبها منه مركزه الإمامي. . . هنالك ـ مثلاً ـ ظهور فرقٍ راحت تشيع الفوضى في العقيدة الاسلامية. . وكان الحكم بالذات يرضى بانتشارها لتفسيخ الشعب، لا لجمعه في وحدةٍ فكريةٍ وسليمة، تطالب الحكم بأن يرعاها ويتعهدها، من أجل رفع الأمة الى مرحلةٍ ناهضةٍ بها!!! لم يتح وقتٌ للإمام للقيام بشروحاتٍ تحقّقُ من هذه المماحكات السفسطائية التي اجتهد بإشاعتها كلٌّ من الكيسانية، والزيدية، والإمامية الفطحية. . . من دون أن تتوانى عن القيام بمثلها السمطية أو الخطابية، أو الناووسية والاسماعيلية، أم القرامطة والواقفية. . . أجل ـ لم يتقدم الامام بأي بحثٍ يرد هذه الفرق الى الخط العقائدي الموحد الذي تقوم به، موحّداً ومجرداً ـ أطروحة الإسلام ـ بل راح سريعاً ـ وبقدر ما يسمح له قصر

الوقت ـ الى إنشاء رسالتين متتاليتين، لا بدَّ لهما من أن تردّا هذه الفرق كلَّهَا الى جادة الحق، وجادة الصواب. . . أما الرسالتان فهما: رسالة في العقل، ورسالة في التوحيد.

هذا هو التلميح الذي كان الإمام متمكناً من اعتماده في الفرص التي كانت تتيحها له هنيهات الحاكمين المتعسفين. . . ولم يكن ـ هذا التلميح بالذات ـ يبدر منه، إلاَّ سرّاً لحاجةٍ ماسة، كانت تتطلّبها الأمة في حين ورود هذا التلميح. . . وها هي ـ هذه التلاميح ـ نستعرضها خارجةً من بال الإمام، ولكن بكل إيجاز، لأن الإيجاز بالذات، هو ما كان متاحاً لفضيلة الإمام:

ـ البداء:

ورأى الإمام: أنَّ البداء فلسفةً لا بدَّ للحاكم من أن يتلمَّحَهَا عظمةً لا تليق بالحاكم، بل بالخالق ـ وحده ـ وهو المالك كل الوجود. . . ولا تليق بالإنسان الذي يعيش دقيقتين في الوجود، ثم يطويه الأبَدُ الى الأفق الفسيح. . .

واختصر الإمام البداء بأنه قضاء الله الشامل المطلق. . . انه البداية بلا نهاية. . . وبه تتعلق كل الخفايا، وهو كل الحق، وكل العدل، وكل الكبرياء. . . واكتفى الامام بالتحديد الموجز، بينما البداء لا تكفيه المجلدات المطولات بالتحديد اللائق به. . . هل نجح الإمام بتقديم الشريحة هذه لهارون الرشيد، وهي تقول له: ـ لا يليق بك التعسُّفُ والتجبُّر ـ فاعدل، الى أن يحملك العدل الى فسحات الجنان!!!

ـ الإيمان بالله:

وانتقل الإمام إلى الإيمان بالله: بكلامٍ شديد الإيجاز. . . كأنه يقول: وهل يكون الإيمان إلاَّ بالخالق الأكوان؟ وبئس المصير إن لم يكن الإيمان

بخالق الإنسان، وهو المكفكفه بالعدل، والصفات الحسنى، والوعد المنتظر فسحات الجنان... والأمة؟ أليست هي المحتاجة الى طمأنينة الإيمان؟!! وكذلك الحاكم، وهو الذي سيطويه الظلم، والكفر، والفسق... الى جهنم!!!

ـ العلم:

وأشار الامام الى العلم وأهمية انتشاره في المجتمع، محواً للجهل، وقضاءً على الأمية، وسبيلاً الى تحريك الوعي الآتي من طريق المعرفة... ولقد اتصل بالحاكمين ـ ابتداءً بالمنصور، وانتهاءً بهارون الرشيد، متوسلاً اليهم بالمحافظة على الجامعة، وبتوسيع مدارجها في كل أرجاء الأمة، من أجل تعميم فوائدها التثقيفية ـ الإجتماعية... ولكن الحكام، ما كانت لهم الاستجابة الى ملتمسات الامام، لغايةٍ أصبحنا ندركها، وكان منهم الجواب الوسيع، بفتح بوابات السجن في وجه الامام... لا بوّابات الجامعات التي أصبحت مقفلة!!! وبقي الامام يقول ـ ساعة يتمكن من القول ـ وأنت، يا حائز العلم، أكان وسيعاً أم ضئيلاً... لا تحجزه في سرّك، بل انطلق به الى الغير، وانقله اليه، حتى يتمَّ للمجتمع استيعابه... ولم يكن في مثل هذا القول، غير تلميحٍ الى الحكام المجرمين، كيف انهم لا يريدون إلا اطفاء شموع العلم، حتى لا يستنير بها مجموع الشعب البائس، فيحرق بها القوائم التي تقوم فوقها سدانة العرش!!!

أما الإمام ـ فانه بدوره ـ كان يفتح بوابة داره المحاصرة برقابة السر، ويشرح لزواره الوافدين اليه استفساراً عن معمياتٍ ومبهمات... لقد كان السعيدَ الفاتح لَهم دارهُ، وصدرَه، وكلَّ ذهنه الذي وسَّعه فيه أبوه الإمام الصادق... لقد كان الامام يحفظ في قلبه كل ما جالت به سقوف وجدران الجامعة، من علمٍ مقروءٍ ومشروح، ومن بيانٍ سليمٍ نضحت به كل رفوف الجامعة!!!

العمل:

أما العمل ـ فإن الامام قد أولاه اهتماماً ملحوظاً، لأنه شأنٌ ارتباطي بحياة الأمة، وخطّها النامي بها الى شبعٍ، واكتفاءٍ، ونوعٍ من استقرار. . . ولقد ربطه بفاعلية الاقتصاد الذي قصد به الاحتفاظ بمجاني العمل ـ مهما تغزر هذه المجاني ـ من دون تهديدها بتبذيرٍ غير لائق لها. . ولقد عني بالتبذير اندفاعاً نحو ميوعةٍ، ، أو خلاعةٍ تهدمان البيوت والقصور مهما تكن محصَّنة. . . ولم يكن يقصد بالقصور غير الاشارة الى العرش الذي يملأه الظلم، والفجور، والخلاعات المتلبسة بالعهر، وكلها موائد الحكام المتسلسلين من السفّاح، ومن أعهرهم وأمكرهم هارون الرشيد الطافح باللؤم، والكذب، والبهتان!!! ولا أظن الامام موسى ـ الآن ـ وهو في ظلٍّ من ظلال الذكر ـ إلا وشرذمة من شراذم الكفر، تقتحم بستان النخيل الذي ورثه من أجداده الفقهاء، لتسوقه مخفوراً الى السجن الذي هو في إدارة الفضل بن الربيع، وقد عطف عليه ـ هذا الفضل ـ وتركه حرّاً مكرَّماً في دارته التي أنشأ فيها الامام الآن، دراسته التلميحية الأخيرة، وكان عنوانها، مكارم الأخلاق.

ـ مكارم الأخلاق:

لن تكون هذه الدراسة الموجزة أكثر من تلميحٍ موجز ـ أيضاً ـ عن إيمان الإمام المطلق بالأخلاق التي هي تعبيرٌ عن ماهية الأمة التي هي المجتمع الإنساني. . . والأخلاق ـ في نظر الإمام ـ هي التي تبني الانسان ـ المجتمع: إمَّا الى ازدهارٍ، وإمَّا الى انهيار. . . أما الازدهار، فالأخلاق الكريمة هي عنوانه. . . وأما الانهيار؟ فبئس المصير تستبدُّ به منازع السوء؛ من كذبٍ، وزورٍ، ومجامعِ بهتان!!!

أما عناوين الأخلاق الكريمة عند الامام: فإيمان بالله سخيّ العافية ـ تتوّجُهُ التقوى ـ وتتفرَّعُ منه أنقى الصفات ـ منها الصدق في القول والفعل، ومنها العدل في الأحكام، ومن السخاء، والعفاف، والحب، والمودة، والسماح، والغفران. . . وبالتالي: ابتعادٌ عن الحقد، وعن الأطماع، وعن التعدي على الزمام، مع احترام الشرائع التي تحمي الانسان من ضيم الإنسان. . . أما التكبُّر والكبرياء. . . والظلم والاستبداد، والتعسف بشؤون العباد!!! فتلك هي الآثام التي ينشحن بها الحكام الطغاة، . . وهي التي ستؤدي بهم الى جحيم النار!!!

بهذه التحاديد المبتسرة والخيِّرة، عرَّف الامام الأمة الى الأخلاق الكريمة، وكان القصد من التعريف ملءَ آذان وأذهان الحاكم الفرد، وهو الجالس في كرسي العرش حتى يهتم ببناء نفسه البناء الصحيح ـ ليكون له ـ بالتالي ـ بناء الأمة التي هي ـ رخيصة وعبدة ـ بين يديه!!! وبهذا الصدد قال:

ـ دع الباطل وان كان فيه نجاتك ـ. . .

فإن فيه هلاكَكْ!!!

وقال أيضاً:

ـ أحسن من الصدق قائلُهْ ـ

وخيرٌ من الخير فاعِلُهْ.

* * * * *

موسوية الإمام

وكأني بالامام موسى ما تزوج بعدة نساءٍ، تلبيةً ـ فقط ـ لسنّةٍ طبيعيةٍ تفرضها علينا مقوّمات الحياة، بل انه اعتمد الزواج وسيلةً تمكّنه من إكثار النسل، ليكون له ـ من ذريته بالتخصيص ـ عددٌ تعويضيٌّ سيملأ به المراكز الشاغرة التي كانت عامرةً بالعلويين الطالبيين الذين حذفتهم سياسة الفتك من ساحة الأمة!!!

لقد اعتمد هذه السياسة الغادرة كلٌّ من بني أمية، وبني العبَّاس، وكما غُيِّبَ عن الخط الطالبي جميع أوليائه الطيبين: ابتداءً بالإمام علي، مروراً بالحسن، والحسين، وزين العابدين، والباقر، والصادق، وصولاً ـ بالذات ـ إلى الإمام موسى، من دون أن ينقطع ـ عن الطالبيين جملةً وأفراداً ـ لا الوعيد ولا التهديد، ساعةً بالفتك، وساعةً بالإبادة!!!

انها أسبهابٌ جذرية، راح الإمام يتعمَّقُ بدرسها، كواقعٍ مؤلم، لا نجاة منه إلا بكثيرٍ من الحكمة والدراية... وكان التلطّي في الأزقة، والهروبُ من المواجهات الدفاعية عن الذات، وسيلة من الوسائل السلبية الضعيفة التي كان يعتمدها الطالبيون، للمحافظة على أرواحهم من وطأة

الاضطهاد. . . إلا أنها كانت مداوراتِ شحيحة الإفادة. . . أما الإمام ـ وهو في المركز المرموق والمستهدف، فإنه كان يعتمد اللباقة الذكية في مقابلة الحاكمين العباسيين المتملّكين الساحات كلّها، وكان له وعدٌ منهم بالعفو عنه، ما دام له الخضوع لإرادة العرش!!!

ولكن الإمام ـ وهو في حالات التلطّي الذليل ـ كان له منحىً آخر، يدرس فيه المخططات الكبيرة التي يجب أن ترسم، لا ليخلّص عنقه من الذبح، إن لم يكن في هذا المساء، فمع الصباح هو الحاصل بلا مراء؛ بل يخلّص الأمة من عناءٍ وذلٍّ طويلي الأمد، لا يخلصها منهما إلا بناءٌ جديدٌ يكسبها قوةً دفاعيةً، تقف بها في وجه عرش يستبدّ بها، ويمتصُّها وريداً وريداً!!! ومن يدري، في أي غدٍ تنتهي ساعة القهر!!!

وانبثقت في حفيظة الإمام فكرة كأنها نوعٌ من هوسٍ. . . ولكنه استقبلها بجديةٍ، وراح يدرسها ـ بإمعانٍ ـ واستحى من أنْ يتلفّظ بها بشفتيه. . . حتى لا تسمعها الجدران!

ما هي هذه الفكرة التي امتنع الامام عن ذكرها حتى أمام الجدران؟. . ولكنه لم ينطق بها الا في سرّه المقدّس، ولكنه هبَّ الى تنفيذها بالتمام! وها أننا نرى التنفيذ الذي سجّله لنا التاريخ وهو يعدُّ ذرية الإمام موسى بستين فرداً، ابتداءً بالامام الرضا، وانتهاءً بعبد الله. . . انهم الذكور من أبناء الإمام، وعددهم ثلاثة وعشرون، ما عدا الإناث، وعددهن سبعٌ وثلاثون. . . وأقول: لو أن الإمام الذي عاش أربعةً وخمسين عاماً، ولم يغيبه السجن عن جدران البيت سبعة عشر عاماً. . . لا نجب ستين آخرين، ليكون عدد ذريته مئةً وعشرين!!!

لقد أراد الإمام ـ فعلاً ـ إكثار النسل، لهدفٍ لم يرد إعلانه أمام

الجدران، وقام به ضمن الجدران. . . أما الهدف القائم في طوية ذاته، فهو الجليل المؤمن بأن الأمة المنتظرة فكاكاً من كلّ ما يُكبِّلُهَا من ذلٍّ وبهتان، لن ينيلها هذا الرجاء، إلا نخبةٌ من أبنائها الموجَّهين بهذه الأشواق الملتهبة بالصدق والإباء!!!

واجتهد الامام، بكل ما فيه من صدقٍ، وشوقٍ وإباء ـ في تحضير أبنائه التحضير المجهَّز بما تحتاجه الأمة من إغاثةٍ تستعين بها الى وصولٍ مرجّىً. . . وهكذا نما أبناؤه بين يديه. . . وكلما بلغ الواحد منهم أشدَّه، زوَّده بالرشد، وأبعده من يثرب الى جوارٍ كان يثق بحبه وإخلاصه لأهل البيت. . . وها هو يحضِّرُ ابنه الرضا، وهو المجهَّز بالعلم، والفهم، والإدراك ـ ويدفعه الى هذا الجوار ـ إيران ـ بعد أن لفلفه بإمامةٍ، ستكون له بعد أن يهجر أبوه الدنيا. . . ولم يكد يصل الإمام الرضا الى خراسان، حتى تبنَّته إيران، وأنشأت له جامعاً ـ اسمه ـ لائقاً بمقامه!!!

بعد مرور سنواتٍ معدودات، كان العديد ممن خلَّفهم الإمام موسى، قد تركوا يثرب ـ هروباً مدروساً ينجيهم من الظلم والطغيان ـ وتغلغلوا في كل أنحاء الأرض الإيرانية الحبيبة والصديقة، حيث تجذَّروا، وشاركوا في البناء والعمران. . . أمَّا نموّهم الاجتماعي، فقد حققه لهم الانتماء الصادق باسم الموسوية المتسعة في إيران. . . وها هو، بعد نيفٍ من مئآت السنين، يظهر في إيران الإمام الخميني العظيم، وهو موسوي الانتماء، ليحرر إيران من طغيان الشاه، لتكون إيران ـ بعد أكثر من ألف سنة من سنوات الطغيان ـ حرّة ومستقلة باسم الامام الخميني الموسوي الإنتماء. . .

تلك هي الموسوية ـ بحدّ ذاتها ـ انها انتماءٌ الى الاسلام الطالبي الذي حمله الى الأمة قرآنٌ عربيٌّ، جمعه ـ ناطقاً بالحق ـ طالبيٌّ هاشميٌّ اسمه ـ محمد ـ.

ويا للإمام موسى، يعتمر به الاسلام الطالبي، لينشىء من ذريته بالذات، كوكبةً من المغاوير، ينزحون من يثرب، الى جوارٍ إيرانيٍّ كريم الانتساب... فإذا بهم ـ حيث حلُّوا ـ يبنون للغد مواعيدَ الغد... وها هي إيران اليوم، لا يَصْدُقُ بها إلا العهد، في تركيز الاسلام المحمديّ ـ الهاشميّ ـ الطالبيّ، على عَمُدٍ من التقوى، تعمرُ بها الأخلاق البريئة من الهذيان!!!

ان الإمام موسى الكاظم، هو الحيُّ ـ الآن ـ في الوجدان، تحت شعار الموسوية.

*****

ألقاب الإمام

وألقاب الإمام. . . أنا لا أظنها أقلَّ من أوشحةٍ نسجها المجتمع ـ بالذات ـ وغمر بها الامام ليرتديها، ويمشي بها ـ أمامه ـ في الساحات. . . أما خيطان الأنسوجة هذه، فإن الامام المرتديها كأوشحةٍ له، هو ذاته الذي جمعها خيطاناً على مغزلٍ له، تناوله المجتمع، وراح ينسج به قدودَ كل وشاح. . . أقول ذلك لأعني أنَّ الألقاب التي يتصف بها أيٌّ من ملقَّبٍ، هي صفاتٌ تعبيرية، يتلازم بها صاحبُهَا تحت عين المجتمع، لتكون منه، وهو منها في حقيقة الملازمة. . . أما الصفات هذه ـ ولا فرق بين أن تكون بهيَّةً أو هزيلة ـ فهي من خبيئةٍ نفسيةٍ، لا يلتقط إلاَّ بها ذياك الملقّب فما هي هذي الصفات التي لملم المجتمع خيطانها عن مغزل الإمام؟ ونسج بها ـ بالتمام ـ أوشحةً كريمةً غَمَرَ بها عنق الامام، وهي لا تزال حتى الساعة، عناوين تبني بها الأمم الناهضة حقائق وجودها المرتبط بأعزّ الصفات، ومن أنبلها الصدق مع الذات، والعدل المشفوعُ بالاستقامات، والطهرُ المنسولُ من الخُلق الكريم، والانسانية المشتقةُ من الكرم، والتسامح، والحب العفيف. . . وكلها مقوماتٌ تطهِّرُ المجتمع السليم: من الحقد، والبغض، وكلِّ أنواع الزنى. . . ومن الكفر الذي يبعد الله عن نعمة الإنسان!

أجل ـ ان الصفات التي وشَّحَ المجتمعُ بها، هي من هذا النوع الجليل الذي نوَّهتُ عنه الآن ـ وانها صفاتٌ غزيرةً تجمعت فيه، لتجعله فريداً بين الانداد. . . ولو لم تكن هذي المزايا غزيرةً ومتعددة، لما جعلته في هذه الفرادة المنوعة الصفات. . . وأعني: أنَّ تلاحُمَهَا فيه، وتناسُقَهَا، وتلازُمَهَا، وتجانسَهَا في شخصيته ـ هي التي نسجته بهذه الشخصية المتعددة المواهب، والمزايا، والصفات. . . وأعني أيضاً بالتفصيل: أنَّ كثيراً من الأفراد يتميزون بنعمة الصدق ـ مثلاً ـ وقد تساندها نعمة أخرى من وزنها، من دون أن تجمعهم الى خوانها فرادة الامام المتمتعة بالصفات العديدة، وكل واحدةٍ منها تغنيه بلونٍ جديدٍ من المواهب التي يندرُ أنْ يستجمعَهَا ـ متوافرة فيه ـ أحدٌ من الأفراد!!!

انه لمن الممتع والمستطاب ـ ونحن نختتم هذه السيرة المستضيئة بذاتها ـ أن نستعرض بعض الألقاب التي محضه بها المجتمع الذي تفانى الإمام من أجله، ولم يقبل إلا أن يموت وهو يصلي له بيومٍ جديد، له صبحٌ أبيض، وشمسٌ تنشر البهاء، في الأفق الحزين!

هنالك أربعة ألقابٍ استنسبت الآن عرضَهَا، وتناولَهَا بشيءٍ من الدرس، ليكون لنا منها بعضُ استجمامٍ، وبعض تحسُّس ـ مع العلم أنَّها تصلح لأن تكون أمهاتٍ لكل الألقاب الأخرى التي خصَّها المجتمع بالإمام، وهي تفوقُ العشرة بعددها ـ أما هذه الأربعة، فهذه هي عناوينها: **الصابر ـ ذو النفس الزكية ـ الكاظم ـ باب الحوائج** ـ أما مجموعة الألقاب، فإنها تتألف من: **الزاهر ـ العبد الصالح ـ السيد ـ الصادق ـ الوفي ـ الأمين ـ المستنير!!!**

أولا: الصابر:

ولن يكون الصبر ـ في تحديده الموجز ـ أقلَّ من موهبةٍ تتحلَّى بها

النفوس الكريمةُ في تقبُّلهَا، أو تحمُّلهَا كلَّ ما يعترضها في مجرى الحياة. ولن يكون غيرُ العقل في تكييف هذا الصبر، وتوسيع مجال النفس به، حتى يتمَّ للذات تحمُّلُ ما يفرضُه الواقع!!!

من هذا النوع كان صبر الإمام في تقبُّلِ وتحمُّلِ كل ما قابله به العصر من أنواع التعسُّف، والتعدي، والاستبداد ـ ولقد ألمحنا بها كلها مشروحةً في سيرته المعروضة أمامنا في هذا الكتاب. . .

أما المهم الذي نشير اليه الآن، فهو ان الصبر الذي اعتمده الآن الإمام هو من تعيين العقل الملم بكلّ قضايا الأمة التي [لن يبعد عنها الضيم الكبير الزاحفَ اليها من تعسُّف الحكام، وبالتالي ـ من قيام البعض من أفراد الأمة بشيء من العصيان] إلا الصبر على هذا الضيم. . من الآن حتى يتمَّ للأمة كلها وعيٌ يجمعُهَا كلَّهَا للقيام بعمليات الرفض!!! ألم نَرَ في مجال هذه السيرة ـ أنَّ البعض من أبناء الأمة قرَّر رفض الحاكم، واعتمد العصيان. . . وقبل عمليات التنفيذ، جاؤوا يستشيرون الامام، فكان جواب الإمام:

ـ ليس الوقتُ وقتكم! ولن يسوقكم العصيان غيرُ المستوفي شروطه، إلا الى هلاككم، وتمزيق خواطر الأمة بالضيم والهوان!!!

لم يُطَعْ رأي الامام القاضي الآن بالرضوخ الصابر ـ وحُزَّتْ رؤوس العصاة ـ وقاست الأمة ويلات الاضطهاد!!! وتمَّ للإمام تليين المواقف، بصبره الراضي بالرضوخ لهيمنة الحكام، . . الى أن يغيِّر الله أمراً كان مفعولا!

من هنا كان إدراك الأمة بأنَّ الإمام الواقف على كل التفاصيل العميقة الجذور، لم يرَ غير الصبر الطويل مجازاً تسلكه الأمة حتى تنجو من المجازر

التي تهددها في كل آن. . . ومن هنا ـ أيضاً ـ أدركت الأمة أنَّ الصبر الذي يتعلق به الامام هو خطٌّ من خطوط الفكر، لا يجوز أن تحرم منه النفوس، لا في تحمل الضيم ـ وحسب ـ بل في حالات التنعم بفيض الغنى. . . ان التصبر على الغنى يُوْقي الذات من الوقوع في مجارف الخلاعات، ويوقظ النفوس الى حقيقة المنطق، والى الميل الى فعل الخير والمبرات، . . وبالصبر هذا يتمُّ الجنوح الى كل ما هو صوابٌ ومشروع. . .

لقد طرح الامام كلَّ ذلك أمام الناس. . . شرح الصبر على الضيم ـ وشرح الصبر على الغنى الفائض عن حاجاة الحياة. . . أما الأمة في مجموعها المتكامل، فإنها رأت أمَامَها صابراً ممتازاً، يفسر الصبر بأجلّ معانيه. . . فلقبته بالصابر.

ثانياً ـ ذو النفس الزكية:

وتفتَّحت عين المجتمع على هذا الصابر الماشي أمَامها في الساحات، وراحت تشتقُّ له ألقاباً أخرى كانت تشعّ منه، ومن أبهاها وأزهاها: ذو النفس الزكية. . . ولقد لقبته أيضاً: [بالزاهر] أو[المستنير] أو [بالمستضيء]. . . وكلها أضواءٌ منه، شعَّت عليه، وعلى المجتمع، حتى ولو كان الآن قَائدَهُ جعفرُ المنصور!!! ان المنصور ـ ذاته ـ قد تحسَّسَ بأضواء الإمام، وانتدبه ليمثله في عيد النيروز، وهو عيد أوِل السنة الشمسية عند الفرس ـ وهو عيد النور، وعيد البهاء، وعيد الضوء الذي يمثله الآن الامام موسى، بما اشتهر به من أنسٍ زاهرٍ بالوداعة، والصبر، وجلال التقوى!!!

بكل هذا الصفاء في النفس ـ وهو المتجلِّي في كل أعمال وأقوال الامام ـ تأثرت عين المجتمع ووشَّحتهُ بهذا اللقب: [ذو النفس الزكية].

ثالثاً ـ الكاظم:

انه اللقب الكبير الخافتُ النبضات، والنابضُ الأكمات. . . يأخذك اليه، ويأسرُك في ظلّه ـ وأنت واقفٌ ـ كالمشدوه ـ تسأل: عَمَّنْ تعرّفُ «أل» التعريف، وأيَّ شيءٍ يخبّىءُ في عبه، هذا الكاظم؟

وعلى مهلٍ مشبعٍ بالتأمل، يأتي الجواب بتفسير الفعل: كظم، تفسيراً قاموسيّاً: يعني: كَظَمَ الغيظ، أي أخفى الغيظ ـ أي خبّأه ـ أي صمت عليه ولم يذكره ـ أي طَواه في دخيلة نفسه وتحمَّله ـ أي صبر عليه ولم يطلب تخفيفاً منه!!!، اما الذي كظم الغيظ، وتحمَّل أثقاله النازلة عليه كأنها القناطير، فهو الامام موسى: تحمَّله منذ أن ولد، إلى أن طواه الوجود ـ تحمَّله اضطهاداً، وإبعاداً عن دائرته الإمامية ـ تحمَّله ذائداً عن الأمة، وعن الطالبيين ـ بالتخصيص ـ حتى لا يشتتهم التنكيل والتشفي ـ تحمَّله مع المنصور يُقَبِّلُهُ قبلة يوضاس الضائعة بين الحب والبغض ـ تحمله مع المهدي والهادي، وهو قابعٌ في الزواريب حتى ينجو من سخافاتهما الظالمة ـ وأخيراً، تحمَّله وسيعاً بلا حدود: مع هارون الرشيد ـ يزجه في السجون المعتمة، طيلة سبعة عشر عاماً، ولم تنته إلا بإطعامه ثلاث حباتٍ من العنب، محشوة، بماذا؟!!! بنقطة سم!!!

لقد تحمَّل الامام موسى كلَّ هذا الغيظ الجسيم والمتفرع اللقطات، وهو الصابرُ والمعلِّمُ الأمة كلَّها صبراً شبيهاً بصبره، حتى لا ينالها، لا التشفي، ولا الاضطهاد. . . تحمَّله بصبرٍ عجيبٍ، وبإيمانٍ بالله المنيل الصابرين حسن الجزاء. . . تحمَّله بأناةٍ كريمة الصفاء، من دون أن يتذمر منه، ومن دون أن يخسر من عزة نفسه، ولا مقدار حبة سمسم. . . تحمَّله بكل إباءٍ، ولم يلتمس تخفيفه عنه، ولا مقدار شعرة ـ تحمَّله بكبرياء

النفس: قصداً منه أن يجعل الضيم المتعدي على الحق، شهادةً على الجائر بجبروته المتوحش، ووساماً يتسم به المتحمل وطأة الهمجية... وتحمّله ـ أخيراً ـ كأنه قرص الفداء، يعلّم الأمة التحمّل الى أن يأتيها يوم الظفر.

كل ذلك هو معنى الكاظم ـ أسوقه إليك أيها المتسائل المشدوه... اما الأمة... واما الرأي العام الاجتماعي... فهو الذي يصف اسم الفاعل، أو الصفة المشبهة «الكاظم»، «بأل» التعريف... ولقب الامام موسى:

ـ بالكاظم ـ

رابعاً ـ باب الحوائج:

وأحسَّت الأمة، بأن الإمام ـ بكل ما اتصف به ـ هو حاجة الأمة في مبتغاها الذي لا ينتهي من سُلَّمِهَا الصاعد بها درجةً درجة، نحو التحقيق ـ حتى ولو أتى هذا التحقيق بطيئاً فوق الخطوط المعمية بالغبار والهشيم!!! والحقيقة التي لا تقبل الشك، أو انها ترفضه ملصوقاً بشخصية الامام المزدهي بأشرف الألقاب، هي في أن الامام ـ بالذات ـ كان باب الحوائج كلها التي يجوع اليها مآل الأمة... فالأمة تحتاج الى فضيلة الصبر... ولقد علمها الامام حروف الصبر، وجسَّده ماثلاً وبارزاً في كل أقواله وأعماله...

والأمة تحتاج الى الوعي ـ ولقد بثَّها الامام كل مضامينه المنبثقة من التقوى، والأخلاق الملتزمة: بالحق، والعفاف، والاحسان، والمعروف، والتسامح، والتغاضي عن السيئات التي لا يقوم بها إلا الجهل، والكفر المتلبِّسُ بالزندقات!!!

والأمة تحتاج الى عملٍ ينتج لها الخير الآتي اليها من بحبوحة الاقتصاد، وهكذا راح يعمل أمامَهَا في بستانه النخيل ـ ساعة يسمح له تغاضي الحكام!! كما وانه راح الى كل ما يساعده به مال الأغنياء في الرعية ـ

يجمعه في صررٍ وأكياس ـ يحملها في الليل، ويوزعها على المحتاجين، سدّاً لعوزٍ كان يضنيهم، وهم الفقراء!!!

أنا ما أظن الامام ـ ولو تلطّى بعتمات الليل ـ إلا والأمة كانت تتحسَّسُهُ وتكتشف انه باب الحوائج، وانه أصبح مثالاً لكرمٍ نابعٍ من طوية نفسه الزكية ـ وهكذا لقبته بباب الحوائج. . . وحتى بعد غيابه الذي عجَّلت به نقطة السم!!! أصبح قبره مزاراً لكل محتاجٍ يجيءُ فيقرع بابه، فينيله الإيمان بفضائل الإمام موسى، ما يطلبه ذلك الطارق.

*****

جسر الرصافة

وجثمان الامام؟! انه المطروح الآن فوق جسر الرصافة في بغداد ـ وجسر الرصافة مؤلفٌ من دعامتين عريضتين، تجعلان الجسر في خطين وسيعين لمرور الجماهير الوافدين الى بغداد عاصمة هارون الرشيد، والخارجين منها ـ ليل نهار ـ ان مياه دجلة العظيم، هي التي تُزين الجسر المزدوج والمقسوم، بمرورها المرتفع العباب، من تحت قناطره العالية والمتينة المداميك، ومن فوق الجسر تمرُّ جماهير الناس الوافدين والخارجين، مع توقُّفٍ ملحوظ على أسواره المطلَّة، للتمتع ببهجة تدفُّق المياة المنسابة تحت القناطر التي زيَّنها ـ بالرصف الجميل الأملس ـ هذا التموُّج المائي المرغي، كأنه مرور الغمام الدائم، تحت مسارب الجسر، حاملاً معه هزيجاً موسيقياً، لا تهتزُّ إلا به ألباب المشاعر!

يا للأمة العظيمة، لا يستهويها، في حقول الجمال، الا غزير دجلتها الهادر بأمواج الجمال، من تحت جسر الرصافة، وقد بنته الأمة ـ مرصَّفاً بكل أناقات الجمال!!!

ويا لهارون الرشيد، يملك الآن بغداد، وينشىء فوق مرابعها عرشاً

كأنه جسر الرصافة ـ هنيئاً له جسر الرصافة، يعرض من فوق قناطره المرتاحة، أنموذجاً من نماذج الصدق، ماتَ، ولم يصدق الناس أنَّهُ مات . . فجاء سيد العرش يعرض جثمانه على الملأ الغفير الوافد ـ يوميّاً ـ الى بغداد، والخارج ـ يومياً ـ من بغداد، مثبّتاً لهم حقيقةً، لم يؤمن بها أولئك الناس؛ وهي أنَّ صادقهم هذا ـ قد فارق الحياة ومات. . . وها هو جثمانُه يثبت: انه ـ فعلاً ـ قد مات!!!

وهكذا تمَّ عرض جثمان الامام موسى الذي خطفته المنون الى حضنها الأسود، بعد سبعة عشر عاماً من السجن المؤبد، بواسطة ثلاث حباتٍ من العنب المحشوّ بالسمّ!!! لقد بقي العرض ثلاثة أيام ـ بأكملها ـ فوق قناطر جسر الرصافة. . . ومن بعدها حُفِرَ للجثمان جدثٌ صغير في الضاحية من بغداد، حيث هي محفورة جدثان بني قريش.

* * *

لم يطب لي إلا أن أوقف مركبة الزمان في زحفها نحو الأمام، وجعلها تدور بي الى الوراء أكثر من ألف سنة، الى حيث رحت أشاهد العرض المدهش الذي حشره الآن هارون الرشيد فوق قناطر جسر الرصافة. . . ويا للتوق الخارج من جيوب الخيال، ينقلني كأنه الخطّاف، وإذا بي في فجوة صغيرةٍ محفورةٍ في مدماك السور القائم فوق الجسر البديع، أشاهد من فوق صفحته الفسيحة كلَّ الجماهير المتزاحمين للتبرّك من الجثمان المسجَّى فوق القناطر ـ وكانت هكذا تتمُّ تحت عينيَّ فصول المشاهدة: من الصباح الباكر، حتى المساء الزاهر، ومن المساء هذا، الى الصباح الوافد وعلى مدة ثلاثة أيام كانت المشاهدة:

ـ في وسط باحة الجسر دكَّةٌ تعلو عن الأرض عدة أمتار، يجلس فيها سيد العرش، ومعه السندي بن شاهك،

وحولهما حشدٌمن الحرَّاس كأنهم للمشاهدة والمراقبة، وللتسجيل الملمّ بكل حركةٍ يقوم بها جماهير الناس. . . أما الناس فكانوا المسرعين بمرورهم من تحت الدكة، حتى يقفوا مليّاً أمام الجثمان المسجَّى، وهو مغمض العينين على صمتٍ رهيبٍ، ومشرق الوجه بأسارير يَنَامُ فيها عبق العطور.

ـ لقد غصَّت باحات الجسر الفسيح بازدحامٍ ندر أن تلمَّست مثله هذي القناطر. . . إلاَّ أنَّ تدخّل الشرطة ـ بين الحين والحين ـ كان يسهل عبوراً بعد عبور! غير ان الاصغاء الى همسات بعض العابرين، كان يترك بهجةً خاصةً تغمر الجماهير المتزاحمين حول الجثمان، قبل أن يتركوا المكان للآخرين. . . حتى أن القابعين في دكة العرش، كانت تتناولهم هذه البهجة، يتناولونها بالسر، وهم يتفاعلون بها ـ أيضاً ـ بالسر. . .

ـ ولم يتوانَ رجال الشرطة المندسّون بين الجماهير، عن طرح بعض الحوارات المتعلقة بوفاة الامام، وكيف ان وفاته هذه جاءت طبيعيةً وبريئةً من اتهام الآخرين. . . لم يقابل الجمهور ـ بأكثريته ـ مثل هذه الحوارات الا بامتعاضٍ صامت، يودِّعون به الجثمان، ثم ينسحبون!!!

هذا معظم ما شاهدت، وأنا في لطوة المراقبة. . . اما ما سمعته بأذني المصغية، وما استنتجته بحدسي الماثل في يقظة الظن ـ فهو الذي رجعت به الى ذاتي المصغية الى حفيف الأحداث التي حصلت حول الجثمان المعروض فوق جسر الرصافة، قبل أن يحمله سليمان بن أبي جعفر

المنصور، ويسلمه الى الامام الرضا بن موسى الكاظم: فيغسله، ويحنطه، ويلفه بحبرة بيضاء اشتراها له ـ سليمان ـ بألفين وخمسماية دينار، وبها أنزلوه في جدثه الأخير في مقابر قريش القائمة في ضاحيةٍ من ضواحي بغداد!

* * * * *

حوار فوق جسر الرصافة

مما لا ريب فيه، أن كل المتوافدين الآن الى جسر الرصافة لإلقاء النظرة الأخيرة على الراحل، كانوا يكنُّون للإمام احتراماً بليغاً لا يستحقُّ مثله الا القليل من الرجال. . . حتى ان هارون الرشيد ـ بالذات ـ وهو القائم الآن بتهريجٍ سياسيٍّ يخسِّره المهابة والاتزان ـ كان مأخوذاً بمثل هذا الاحترام، تفرضه عليه مسلكيَّةُ الامام. . . ولكنَّ هناك ـ بين المتوافدين الكثيرين ـ فئةً خاصةً من المولعين بالامام، أصبحوا متَّهمين ـ بولوعهم الشديد ـ بالمغالات الفاقدة الحد!!! انهم فرقة الواقفية، أو الرافضة. . . والرافضة ـ في معناها المبيَّت، يقصدون رفض الامتناع بأنَّ الموت ـ بالذات ـ وهو الملفلف كلَّ حيٍّ بالغياب القاسي الإهاب ـ لن يصيب الامام موسى الذي سيبقى حيّاً، رغم أنف الموت الفارض سلطانه على العباد!!!

يدَّعي هارون الرشيد ـ والتهريجُ أبَّهةُ التاج عنده كأنه لؤلؤة ـ بأنَّ عرض جثمان الامام موسى على جسر الرصافة ـ لمدة ثلاثة أيام ـ سيقنع الفئة الرافضة بأنَّ موساهم المسجَّى، ما أغمض عينيه، ولا أسبل يديه، إلاَّ الموت!!!

وجاء واحدٌ من فئة الرافضة، وهو عميق الفكر، وسليم الروح ـ وقف خاشعاً أمام الجثمان ـ ثم جثا وقبَّلَ العينين المغمّضتين. . . وراح يقبِّلُ القدمين المسبلتين، وهو يقول في توريةٍ كأنها بنان تشيرُ الى مجرمٍ قاتلٍ:

ـ من أغمض عينيك أيها الحيُّ المبصر؟!!

ومن أسبل قدميك أيها المشَّاءُ بجبروت الحق؟!!

وتقدَّم قائد الشرطة المدسوس بين الجماهير، وهو يبتسم ابتسامةً مكفوفةً. . . هزَّ الجاثي أمام الجثمان وهو يقول له:

ـ انـه المـوت ـ يـا هـذا ـ أغمـض العينيـن. . . وأسبـل القدمين!!! ألم تتأكد بعد؟ أنَّ الموت ـ وحده ـ يغمض العين. . . ويسدُّ الأذن. . . ويشلُّ القدمين!!!

ورفع الرافضي رأسه نحو قائد الشرطة ـ وبكل اتزانٍ أجاب:

ـ وهل أغمض الموتُ عيني محمد؟!!

وهل شلَّ الصليبُ قدمي عيسى؟!!

وهل أيبستْ شفتي أرسطو نقطةُ السم؟!!

ألاَ سَلْ أمير المؤمنين. . . انه فوقنا في الدكة. . .

ألا تراه ـ بدلاً عني ـ يأتيك بالخبر اليقين؟!!

ما حسم الحوار هذا الا سليمان بن أبي جعفر المنصور: وهو عم الخليفة هارون، وهو ـ أيضاً ـ تقيٌّ مشهور، ومن أنسباء الإمام المسجّى، ويكنُّ له احتراماً بليغاً. . . لقد تمنّى على قائد الشرطة عدم التورط في شؤون لا تعنيه، ولا سيما القضايا الفكرية البعيدة الغور!!! وتمنّى على الرجل أن ينصرف دائماً الى معانقة الروح التي هي القيمة الخالدة في مجتمع الإنسان، من دون أن يمسَّها الموت. . . وإذا مسَّها الموت. . . فعلى الدنيا السلام!!!

* * * * *

همس فوق جسر الرصافة

والتجمهرُ؟ انه ـ عادةً ـ يؤلف اللغطَ، ثم الهمسَ الذي تتلهَّى به الآذان. . . غير ان اللغط ـ في هذه المرة ـ لم يتخبَّط به جسر الرصافة. . . وسادَ الهمسُ أرجاءَ المكان! لقد أحسستُ بذلك وأنا في لطوتي أحصي خطوات الحاضرين في الساحة. . . لقد كان جميعُ المودعي جثمان الامام، لا يتركون المكان إلا بعد أن يؤلفوا خلايا خلايا، يتهامسون فيها، بعض الوقت، ثم يتصافحون وينسحبون ـ وكنت أتساءل في عمق ذاتي: بماذا تراهم ـ جميعهم ـ يهمسون؟ مع أن الموضوع هو واحد موحد: وعنوانه جثمان الراحل. . . أما السؤال الماثل: كيف يقيِّمون الامام؟ وما هي الصفات التي يلفلفونه بها، وهي منه في الصميم؟!!

ما طالت عليَّ موجات التساؤل، وإذا بي ـ وأنا قابع في لطوتي ـ أفاجأ برجلٍ جليل المهابة، ومعه ثلاثةً من أبنائه ـ كما يبدو ـ يتمشون بانفعال، وها هم يتوقفون قربي، ثم يجلسون على رصيف الجسر، من دون أن يلمحوا ترحيبي بهم، وقد فتحت أذنيَّ الغارقتين في تلافيف الذات، لأتلقى منهم همساً خافتاً بكل ما في أسارير وجوههم من انفعال!!! ورحت أصغي،

ورأسي بين يديَّ ملفوفٌ بالرجاء. . . قال الشيخ ـ وفي همسه الخافت ما يشير الى زوبعةٍ لا تزال هادرةً في نفسه ـ وهو يحاول أن يلجمها: بالتأنّي، والتجلُّد، والتمسك بحبال الصبر:

ـ ماذا أقول يا أبنائي الأعزاء ـ وأنتم أملي في امتداد يومي الى مجالات الغد! . . ماذا أقول لكم، وقد لبَّيتكم، وجئت معكم لتشييع جثمان من عاش، ومات، من أجل أن يبني لنا ـ جميعاً ـ مآتي الغد!!! ماذا أقول لكم؟ وها هو الجثمانُ معروضاً في هذا العراء البائسِ الممدود فوق جسر الرصافة!!! وما هو جسر الرصافة؟ أليس حضانةً كريمةً لدجلة العظيم، الخالدِ الآتي الى بغدادٍ محمَّلاً بالخير. والخصب، وكل أطياب العافية؟!!

وها هو الرشيد الذي شادَ له جسرُ الرصافة عرشاً موشَّى القوائم بالدرِّ والمرجان. وكل أنواع اللآلي!!! يحوّل جسر الرصافة الى باحةٍ بهلوانيةِ التهريج، يعرض فيها جُثمَاناً، ما بقي منه إلا الجلد والعظم!!! أخرجه من سجنٍ مؤبَّدٍ، لم يكن طوله سبعة عشر عاماً، بل سبعة عشر ألفاً من الفراسخ المحشوة بالذل والهمجية، والكفر!!! . .

أيَّ جثمانٍ عرضه علينا هارون الرشيد، وهو يدعونا الى التشييع، من دون أن نذرف أيَّةَ دمعةٍ ساخنة؟!!

أجل ـ أيَّ جثمانٍ عرضَ علينا أمير المؤمنين؟!! أجُثمان الامام موسى بن جعفر؟ أم جثمان السجين الذي واراه الثرى ـ صاحب العرش المزهّى بالأرجوان ـ منذ أكثر من سبعة عشر عاماً. . . كأنها سبعة عشر قرناً، من قرون

همجية الانسان، في حيوانيَّاته الجاهلية البائدة!!!

ماذا يريد هارون الرشيد من عرض الجثمان في العراء؟!! أيريد أن يثبِّتَ لنا ان الامام موسى قد مات؟.. ألا ترون معي أن الرافضيَّ الذي سمعتموه يتكلم منذ ساعات، هو الذي أفحم قائد الشرطة، وثبَّت له: ان الذي مات ليس الامام بالذات، بل أن الذي مات هو هارون الرشيد بالذات...

ألا بئسَ عينٌ ترى مجدَهَا بادياً في العراء، ولا تراه مغموراً بالغباء!!! وبالخجل: نبكي، في حين يجب أن نضحك، ونضحك في حين يجب أن ننتحب على كل ما فقدناه من جمالٍ وعزاء!!! وها هو هارون الرشيد ـ هارون المخامل والبرفير ـ يجمعنا فوق جسر الرصافة، لنضحك، لا لنبكي... بينما هو ـ لو يدري ـ يبكي وهو يضحك!!! ويا للبهلوانية! تبدي لك عكس ما تقصد!!! أليس قصد البهلوان أن يهزأ منك؟ فإذا هو ـ بالذات ـ يعلمك أنت كيف تهزأ به!!!

أجل، يا أبنائي الأعزاء! ماذا تريدون بعد منِّي أن أقول؟!! وها اني أختصر القول:

لو أنه كان لهارون الرشيد إصغاءٌ رشيدٌ للإمام موسى، لتنزَّهَ عرشه من ألوان الغدير!!!

لم يكن للإمام موسى إلا أن يرزم نفسه في عمليات النصح والإرشاد: لا للرشيد المتبوّء العرش في بغداد، بل الأمَّة

كلها الخاضعة أمام العرش، وهي الجامعة دجلة تحت الجسر، تسقي بها الحقول الممدودة حول بغداد. . . لقد قال لهم، بلسانه: زَيِّنِ العرشَ يا هارون: بالحق، والعدل، وكل أنواع الاستقامات، حتى يبقى لك العرش، وللأمة التي لا تبنيها، وتنمّيها إلا الاستقامات. . . أما الاستقامات، فقد شرحها بالتفصيل، وعاشها بالأقوال والأفعال. . . شرحها: بتقواه، وبخلقهِ الكريم، وبأفعاله الخالية من غبار، وبكرمه النفسي الصافي، وبصبره الطويل على الأذية والمكاره. . . وإلاّ. . . لما لقَّبناه، نحن الأمة، بالصابر، والزاهد، وذي النفس الزكية، والكاظم، وباب الحاجات!!! ولكن الرشيد لم يصغِ الى النصح ـ وبدلاً من أن يفسح الساحات أمام من سدَّد الآيات ـ فتح السجون كلها، ودفن فيها الناطق بالآيات!!! وبدلاً من أن يُشرعَ أبواب قصره لاستقبال المشيِّعين المدعوين للتبريك بالجثمان ـ أنشأ دكَّةً واعتلاها فوق جسر الرصافة، لا لمشاهدة المؤمنين، بل لمشاهدة المهرِّجين الذين راحَ قائد الشرطة يعلّمهم إتقان التهريج!!!

ما كاد يصمت الشيخ، حتى هببتُ ـ أنا ـ من ملَجأي الصغير، وجوانحي تصفِّق لمقالة الحق!!! ولكنّي بوغتُّ بضجَّةٍ واسعةٍ آتيةٍ من تحت الدكَّةِ الجالسِ فيها صاحب العرش!

* * * * *

همس في أذن الرشيد

جُلَّ ما حصل: أنَّ الشيخ الوقور سليمان بن أبي جعفر المنصور ـ وقد عَرَّفنا قليلاً عنه منذ هنيهات، وتبيَّنَّاه في حواره مع قائد الشرطة، والرافضي، كم هو حرٌّ وشريفٌ، لا يماري في قوله الحق... ولقد فهمنا انه عمّ هارون الرشيد، وتربطه ـ في ذات الوقت ـ بالامام موسى، قرابة وشيجةً، واحترامٌ ـ أيضاً ـ صادق الوشيجة...

لقد كان الشيخ سليمان هذا، من جملة الحاضرين في عملية التشييع المزعومة، والملعوبُ بها فوق جسر الرصافة... لقد كان يتمشَّى بين الجماهير، وهو يحلِّل اللعبة التي قام بها هارون الرشيد، بعرضه الجثمان المكشوف فوق جسر الرصافة... ولكنَّ التحليل مَا جَاءَ عليه إلا بنفورٍ بالغ الخطورة، جعله يجمع رجاله الأشداء ويأمرهم بخطف الجثمان من الساحة، الى حيث أُجْرِيَ غسلُه، وتحنيطه، وتعطيرُه، ولفُّهُ بالحبرة البيضاء التي كفَّنوه بها... وها هو الجثمانُ في الأهبةُ اللائقة به... انه محمولٌ على الأكفِّ، بعد أن استدعي هارون الرشيد للنزول من دكته العالية، ليرأس الجنازة، ويسير بها، من جسر الرصافة الى محارم مقابر بني قريش!!!

أما أنا ـ ذلك اللاطي في شق صغيرٍ قائمٍ في مدماك رصيف الجسر ـ فإني انسحبت لأندسَّ خلف الصف المؤلف من السندي بن شاهك، على يمين صاحب الجلالة، ومن سليمان بن أبي جعفر المنصور، على يسار صاحب العرش... ومشى ركب الجنازة ـ وأنا أعلِّلُ أذنيَّ الموسعتين، بسماع الهمس... ولم يُسْمَعْ ـ يا للحق ـ إلا الهمس!!!

وسار الركب، وكان السير ثقيلَ الوطء... أما الشيخ سليمان الشديد الانفعال... فكان يغالب انفعاله، حتى لا يجرِّحَ به شعور أمير المؤمنين! ولكنَّ همسه ـ بالذات ـ لم يبرأ من الوطأة الملجومة... وبعد بضع دقائق بدأ وميض الشرارة... وبصوتٍ، ظنَّه الشيخ سليمان خافتاً، ولم يكن بالخافت، قال في أذن الرشيد:

ـ لم أدرِ حتى الآن يا ابن العم: ماذا قصدت بعرض الجثمان في عراء جسر الرصافة؟!!

تبسم الملك قليلاً وأجاب:

ـ حتى يتأكد الناس أن الامام قد نام نومته الأخيرة، ولن يقوم منها حتى في يوم القيامة!!!

وحدج الشيخُ الملكَ بعينٍ مقعَّرة وأجاب:

ـ وكيف تقنع الرافضي بأن الامام قد مات، وهو لا يراه إلاَّ حيّاً؟!!

وبابتسامة منه أكثر جدية من الأولى، أجاب الملك:

ـ هذا شأن الرافضيّ... فَلْيُقِمْ الرافضيُّ مولاه... وَلْيَتَمَشَّ معه مع المتمشين فوق عرض وطول جسر

الرصافة!!! ولكنَّ إقناع الرافضي بأن الإمام قد مات. . . هو كلُّ مبتغانا. . . أقْنِعْهُ ـ أنت بالذات، يا عم. . . بأنَّ الامام قد مات. . . أتدري لماذا؟. . . لأجلِ أن يرتاحَ بالُ العرش من كل مَنْ ينامُ تحت الرتاج. . . وهو يحلم بأنَّه يستردُّ العرش اليه مع هلهلة الصباح!!!

قال الملك ما قال. . . وَصَمَتَ ـ كأنه قال كلَّ ما يجب أن يقال!!! أما الشيخ سليمان، فإنه راح الى تأملٍ آخر، جعله يهزّ رأسه على مدى دقيقتين طويلتين. . . ثم لَوى عنقه نحو الرشيد، وقال:

ـ لا أُريـد أن أطيـل حـديثـاً ونحـن مـاشـون فـي جنـازة!!!
ولكنني أومن بك تتفهَّمني، في قليلٍ من بحث، وقليلٍ
ـ أيضاً ـ من جدل. . . فأنت ذكي يا هارون، ولن يَمْنَعَكَ عن التمادي في الذكاء، أو عن الاستجابة لكل مفاعيله، إلا عرشٌ وسلطان، يضغطان عليك بالبقاء فيهما، مهما يطل بهما غرور الزمان!!!

هذا هو حظك الآن من الملك ـ فاسمعني:

كل ما فهمت من جوابك المختصر: انك تسيء الظن بالامام، وتحسبه متآمراً على العرش، لاسترداده اليه، ، وهو وليُّه منذ أن فقدنا الرسول، عليه السلام. . . ما لنا والحقوق المشروعة، انها تستدعي غوصاً آخر، قصَّر عن أدائه الجدود، ونحن نقصِّرُ عن أدائه الآن. . . ولكنّ الامام موسى، لم يشأ مطلقاً زجَّ ذاته، وزجَّ العرش، وزجَّ الأمة كلها، في مماحكاتٍ ومراهنات، ترمي الجميع في قهرٍ، وخيبة، وامتهان!!! كل ما رآه الامام، ومن قبله ثلاثةٌ من

آبائه الكرام: ان الأمة ـ كلها ـ ومن ضمنها الآن عرشك الباهر اللمعان ـ لا يُفسِّخِهَا، ولا يُذلُّهَا، ولا يشلُّ فيها المآتي. . . إلاّ جهلٌ عقيم ومقيم، قذف بني أمية الى ماهية السلطان ثم قذف ـ أيضاً ـ بني العباس الى بهجة السلطان!!!

لقد عقدتُ أنا بالذات. . عدةَّ جلساتٍ بحثيةٍ مع الامام. . وأنا مؤمن بصدقه، وغيرته، على الأمة التي هي مأخوذة بروعة الإسلام. . . وأقسم لي الإمام بأنه لا يقدِّس إلا العرش في ضبط أمور الأمة التي هي حقيقة الإسلام ـ شرط أن يكون العرش مشعاً بنور الحق، وروعة العدل، وشرف الخُلُق المسيَّج بالتقوى، وكل الاستقامات!!!

هذا هو كل ما يبتغيه الامام، وكل ما ينهجه الامام، في القول، والفعل، وحقيقة المسرى. . . ولم يتأخر في مجابهتك بالنصحِ، وصراحة الوعظ. . . فظننتَ أنت، أنه يلهيك بالقول، ويذهب بالفعل الى تدبير المؤامرات لتقويض العرش، واسترداده اليه. . . كأنه ـ هو ـ به الأولى!!!

والحق يقال ـ لقد استشير الامام كثيراً ـ وحتى أنه استدعي ـ من قبل الطالبيين العصبيِّين، لقيادة انتفاضةٍ حسبتَهَا أنت ثورةً تنحّي العباسيين عن العرش مع انها أقل من عصيانٍ، على الحاكم أن يعالجه برفقٍ، وعطفٍ، واتزان. . . وكان الامام موسى، مع أبيه جعفر ضدَّ أية انتفاضة ـ حتى ولو قدّر لها أن تنجح، لأنهما كانا لا يريان

العصيان، إلا ويهدم الأمة التي لم يشملها ـ بعد ـ وعيٌ يسيرُ بها لإتمام مسيرتها فوق الأرض. . .

هكذا ارتأى الامام موسى أنَّ إصلاحَ العرش، بمضامين الفهم، والحق، والعدالة، هو أقرب من القيام بثوراتٍ غير واعيةٍ ومدروسة. . ولن يكون منها ـ في النتيجة القاسية ـ غيرُ تهديم الجماعة!!!

صدقني يا هارون: إني أشرح لك ـ باختصارٍ ـ حقيقة الامام موسى ـ رحمة الله عليه ـ فافهمه مثلي، واحترمه مثلي ـ واذكره بالخير مثلي ـ وواره الآن الثرى، وأنت ذرّافٌ عليه دمعةً ستحييه مع الرافضي الذي يأبى رؤيته ميتاً، بل حيّاً بكل القيم التي بشَّر بها قبل أن يصمت. . . انها ـ هذه القيم بالذات ـ لا يطول عمر العرش إلا بها ـ وكذلك الأمة ـ فإنها ـ بها ـ تنمو ـ حتى تتمتع بالخلود!!!

ما انتهى همس الشيخ سليمان، إلا والجنازة قد وصلت الى حيّ المقابر، فحفروا الجدث الذي واروا فيه الجثمان الذي بقي معروضاً ثلاثة أيام فوق جسر الرصافة!!!

وتقبَّل هارون الرشيد تعازي المحتشدين، ودمعتان سخيَّتان تتلألآن على خديه، ما فَرحَ ـ إلاَّ بهما تتلألآن ـ الشيخ سليمان!!! لقد تأكَّدَ له أن الدمع هذا، هو الآن دمع الندامة.

*****

همس الهمس

ما انصرف المشيِّعون إلا وأنا أبحث عن الرافضي ـ وعن قائد الشرطة ـ وعن الأربعة الذين أتحفوني بحديثهم على رصيف الجسر. . . ولكنِّي لم أرَ واحداً منهم. . . لقد اختفوا كما يختفي الظلُّ بعد هبوط المساء.

وقلت في صمتي الآخر: أيمكنني استدعاء الشيخ سليمان، لأغمره، وأقولَ له: أنت ظلي في التعبير عن أشواقٍ لا تموت، بل تبقى حيةً في وجدان كل إنسانٍ لا تخلُصُهُ من الكبوات الحيوانية إلا القيم الروحية المثلى، وهي التي لا يزال يحيا بها الامام الكاظم، من جيلٍ الى جيلٍ من أجيال الإنسان!!!

بعد عشرين ثانيةً. . . وجدت نفسي في يقظة أخرى، يُطِلُّ منها وجهٌ مشرق. . . عرفته. . . انه وجه الشيخ سليمان بن أبي جعفر المنصور. . . تبسَّم وهو يقول لي:

ـ هل أنت ظلِّي؟!!

أم أنني لا أزال ـ أنا ـ ظلَّك؟!!

خذ مني السلام

واذكرني

الى أبد الدهر!!!

* * * * *

الخاتمة

خواطر
فوق القناطر
وهارون الرشيد
والأمة
وأنت أيها الإمام
وبعد الغد

خواطر

أيها الامام الجزيل الوقار

لقد مررنا بك ـ في هذه الصفحات الصغيرة ـ ونحن نتلمَّسك بشوقٍ ما شفى منَّا الغليل. . . واني الآن بين يديك، أُقرُّ ـ أيها السيد المهيب ـ بأنَّ الإحاطة بك الإحاطة الوسيعة، هي التي لا تزال أمامنا في الغد الوسيع. . . وبقدر ما نتوسَّع ـ نحنُ ـ في محارمها، يكون لنا قدرٌ مماثل، يشفي منا ذيَّاك الغليل!

كأني لا أقول ذلك بلساني، بل بلسان الأمة جمعاء ـ وقد نذرت ـ أنت ـ لها كلَّ جهودك المبلولة بفداحة العناء، من أجل أن تحقق لها طولَ الصفاء، وطولَ الرجاء! وها اني أقول بلسانها: لو أنها تفهمَّتك ـ بتمام الفهم ـ لما كان لها مثل هذا العياء!

والآن أيها السيد، ونحن نكبس ـ أمامك ـ بالقلم الصغير، نقطة الختام، لا يبدو أمَامَنا إلا مثل هذه الخواطر، نعرضها تحت مقلتيك، لا لنرضيك، وأنت فوق الرضى، وفوق التصبر الآتي من خلف بهجات

الانتظار، بل لنرضي قصورنا في الارتفاع اليك، يا من علوت فوق كل المهانات، وقد رشقك بها العصر، . . من دون أن تبالي ـ أنت ـ بكل أشكال المهانات!!!

أما الخواطر التي نقدمها بين يديك، فهي ملامح تفيض منك عليك، نقدمها علَّها، تؤنس فيك ـ يا سيد ـ هذه الغربة التي تطلُّ منها الآن في إشرافٍ وسيعٍ على الأمة التي هيّأت لها المطلات الفسيحة، وما عليها إلا أن تمشي اليها ـ هي ـ حين تشتدُّ لها الأقدام الى ضبط المسير!

* * * * *

فوق القناطر

هنيئاً لك أيها الإمام ـ ما رضيت النوم إلا فوق القناطر!!! وأي معنىً للقناطر؟ إلَمْ تتقاطر اليها ميازيب السحب، في حوملات المجادل. . . كأنَّ المجرات كلها، هي المتهافتة الى صحفة الأرض، تجدلُ لها الريَّ جدائل جدائل، لتكون بَاحاتُ الرمال ـ في نشفتها المحروقة ـ واحاتٍ جديدةً، يسوق اليها العظيم دجلة، روافدَ الخير، ومنابت الخصب، ومضوَّعات الزهر، وأضاميم الثمر. . .

انه دجلة في اختزانه دموع السحب، وتوزيعها مرافق مرافق على المساكب المتموجة بسيقان القصب، وعلى الجذوع النامية بكل أنواع الرطب. . .

انه دجلة الخصب يمر تحت القناطر. . . وأنت ـ أيها السيد ـ دجلة الحق، جئت تسقي النفوس بأعذبَ ما تنمو بها هاتيك المكارم، وهي ـ وحدها ـ تشتدُّ بها أواصر الأمة. . . ورحت تحميها بدفقات المكارم. . .

ودفقات المكارم؟ أنت الذي حزمتها رزماً رزماً، من فوق القناطر،

وجئت توزعها ـ تحت القناطر ـ ضمائر ضمائر، ترفخ بها أكواب الطحين، وتغمر بها فسحات الموائد. . . كأنَّ الخبز هو المرقوق، لجعل القوت من أطيب ما تتشبّع به أفواه الجياع!!!

وانساقت اليك دفقات المكارم، لا لتختزنها في عب الذات، بل لتدفقها حيث تمرُّ ليربو بها، حتى الأجنَّة، في بطون الأمهات. . . انها الأمة في تحضير اليوم، وتحضير الغد: تجبي لها من الضيم المكظوم، ما يسقيها من الضيم، إذا تحملته، وأغدقت عليه صبراً يعلمها ـ بواسطة المران ـ كيف تطبخه في الأفران التقية، وتفتله من سمٍّ الى درياق. . . وكانت التقوى درياقك، ما حملته في غرة نفسك، إلا لتجلو به صدور الآخرين، وتكشح عنها حوملات الزغل!

* * * * *

هارون الرشيد

وهارون الرشيد؟ ليس لنا ـ أيها السيد ـ غير أن نلقي ستاراً على ما نواه الرشيد من إنامتك فوق القناطر . . . صحيح ان القصد كان في امتهانك في العراء، تحت عيون الجماهير، . . ولكنَّ العكس ـ بالتمام ـ جاء مصداقاً على أفك هارون الرشيد، وانه ما أضمر مرةً خيراً، إلا وكان الشر مبيَّتاً في نفسه . . . أما أنت، فلم تكن بحاجةٍ الى قنطرةٍ تعليك فوق المداميك، بل كنت المدماك العالي فوق القناطر الموصولة بكل الرموز . . . ولكنَّ في الأمر سؤالاً آخر، وها اني أقول:

لم يكن الرشيد نكرةً من النكرات: فهو ذكيٌّ يشهد بالذكاء له الشيخ سليمان بن أبي جعفر المنصور . . . فلماذا لم يفهم، لا نصائح، ولا مواعظ الامام، وكلها ينقل الرشيد ـ وهو أمير المؤمنين ـ الى حاكم عادلٍ راشد، تعتزُّ بهِ الأمة، وتخلد له الأجيال في اتصافها به؟!! ألم يفهم هارون، ان المجدَ كلَّ المجد، هو مما يحوزه الحاكم من نزاهة الحكم، بحيث ينقل الأمة من فراغٍ الى امتلاء، والرعية، من تنكُّرٍ الى سعادة ووفاء؟!!

كأني مصغٍ إليك أيها الإمام، وأنت الماثل رفيعاً فوق القناطر ـ تثبّتُ

لي ان الرشيد ذكيٌّ، ولم يفته ضلعٌ من أضلاع الفهم. . . لا الفلسفة فاتته ولا تلك الفطنة اللمَّامة، . . . ولا النصائح ولا المواعظ، ولكنه لم يرد أن يفهم، وذلك هو كل البلاء!!!

وفهمت أيها الامام. . . وبدأت أشرح للناس، ما لا يزال يؤخر الناس عن التدرجج فوق السلالم. . . وقلت بشفتيَّ الملعثمتين: ليس هارونُ الرشيدُ الفاهمَ الوحيدَ بين الرجال. . . حتى ان البسطاء الساذجين يتملكون الفهم الذي ينطق به العلم، والرشد، وكل شروحات المنطق. . . ولكنَّ الفهم الذي يجب أن يفعل، فلن يكون إلا بتدرُّجٍ نسبي، يمْشِي به، على الأرض، وعلى الدروب، وفوق مدارج الساحات ـ كل المشاة، بتحسُّسٍ وتلمُّسٍ، ينقلبان ـ يوماً بعد يوم، وجيلاً بعد جيل ـ الى مرانٍ وترسيخٍ واتزان. . . لم يذق هارون الرشيد، ولا أيُّ حاكم قبله، لا من بني أمية، ولا من بني العباس ـ مثل هذا الفهم المتدرَّجِ به، بواسطة التحسس، والمراس، والمران المرسَّخ في الأذهان، والمنقلب الى جلاء الوعي، وحقيقة الاتزان، ونقاوة الوجدان!!! ا المراس الطويل هو الناقل الفهم الى حقيقة الفهم، لتكون له حقيقة الترسيخ، لا في الأبدان، وحسب، بل في ظنون النفس، وفي خلايا الوجدان. . . ان من ذلك كله يتألف هارون الرشيد: يأخذ الكرسيَّ زهوةَ سلطانٍ، وزهوة مجدٍ وعزٍّ، وغنىً مفتوحٍ على كل ما في الرغوات من شهوات!!! أين هي الكوابح؟ ومن أين يجيء فترده الى صواب؟! ان الأمة بالذات، عندما يمتلكها الفهم الآتي اليها من سلالم المران، وطول المران، هي التي يهبُّ بها الوعي الأصيل الخارج ـ أيضاً ـ من عبّ الممارسات الموصولة بحلقات المران، وفي التوِّ الجاهز، يرتجع الحاكم عن زيغانه. . . أو ـ بالأحرى ـ ان الحاكم المتهم بالزيغان، لن يكون موجوداً في تلك اللحظة الحاملة مثل هذا المراس، ومثل هذا الاتزان!

ليت هارون الرشيد ـ أيها الإمام ـ كان مؤهلاً بالفهم المرسَّخ في الأذهان، وفي الوجدان. . . لكان لك ـ به ـ التقاءٌ آخر، يزيد جلوته الى مستوىً مرموق، ويطيل عمره الى طمأنينةٍ غنيةٍ بالسعادة. . ويطيل عمرك ـ أنت ـ أيها الإمام، بلا سجونٍ تكظم فيها الغيظ الذي تحملته بالتصبر، من دون أن تتمكَّن من إيصال الأمة الى فهمٍ تناله مقروناً بوصلات المراس، والمران، والترسيخ المركَّز في جيوب الوجدان!

* * * * *

والأمة

والأمة؟ كل ما لنا من تحاديدها الطبيعية، والتاريخية، والجغرافية، ان ندرك انها عظيمة، وواسعة، وشاسعة، بكل ما فيها، من خصبٍ، وأقاليمَ، وماهياتٍ بشريةٍ متعددة النزعات والمفاهيم، لقد كان يجمعها الاسلام، من دون أن توحدها المفاهيم، أو تنظِّمها المناهج. . . غير ان الامام موسى، وهو طالعٌ من اختلاءات نفسه، حاول جَمعَها بالفضائل، وبالصبر، وبالتأني، من أجل العبور بها الى ظروفٍ مواليةٍ، تحقق فيها ما ينجيها من الكوابيس التي مرَّت بها من عصرٍ أمويٍّ ضاغط، الى عهدٍ عباسي آخر تكاد تنحصر فيه كل البلية!!! لقد تبيَّنا كل ذلك في سياق هذا الكتاب، أما التوقف الآن عند طرح استفهامين متعلقين بالعرش، وبالتالي بالأمة، فلكي يكون لنا تفسيرٌ تستفيد قليلاً فيه الأمة، في معالجة الأمور التي يحملها اليها الغد!

لقد كان الاستفهام قائماً في استكشاف الاسباب التي حالت دون إفهام الحاكم هارون الرشيد، بأن العدل والحق يحققان له مجد السيادة، وفهمنا ان الفهم لا يكفي في عملية الاصلاح، ما لم يقترن بسلسلة اخرى من الممارسات الدائمة التي تجعل الفهم أصيلاً في النفس، وفاعلاً في حقول

الإرادة. . . ولكنَّ الجواب كان بحاجةٍ الى تفسيرٍ أوفى، ولهذا جاء الاستفهام التالي، من أجل بعض التوسعة!

أما الاستفهام عن الأمة، فكان بهذا المعنى: لماذا لم تفهم الأمة؟ أو لماذا لم ينقلها الفهم الى الوقوف بوجه الحاكم المستهتر بأمورها الحياتية أو العمرانية، والمتعلقة بكل شؤونها الإصلاحية. . والانمائية، والحضارية!!! وليس غير الأمة ـ من فاعلٍ لا يُغلب ـ يتمكن من عملية الزجر؟!!

لقد كان الجواب على الاستفهامين من موردٍ واحد، أما التوسعة هذه، فهي التي تزيدهما شرحاً وإيضاحاً. . . والحق يقال: لم يكن الذكاء محصوراً بالرشيد، فهنالك، بين طبقات الشعب، أذكياء منتشرون، وكان الإمام موسى يشرح لهم كل آرائه الفلسفية، والفكرية، والاجتماعية. . . وكانوا يصغون، ويفهمون. . . ولقد سمعنا الرافضي يحاور قائد الشرطة بفهمٍ خارق الإدراك، وسمعنا كذلك الشيخ سليمان يملي على الرشيد أمير المؤمنين، موعظة فيها كثير من بعد، أليس هذا الفهم المتبادل بين الرجال الثلاثة، وقد ذكرنا أسماءهم، والذين يوجدون بين ظهراني الأمة بعددٍ وفير؟. . . فلماذا لا يفعل الفهم لا مع القلة الممثلة بالرشيد، ولا مع الكثرة المنتشرة في الأمة. . . ولقد قدمنا انموذجين منهم، وهما الشيخ سليمان، والشيخ الرافضي. . .

ولكني لا أرى الجواب إلا سهلاً يسيراً، وأكرر القول: ليس الفهم وحده هو المجترح الاعجوبة. . . سيبقى هذا الفهم كلاماً أسير الحروف، قبل أن يكون فعلاً حاضر الحركة. . . والحركة فيه انه فعل جامد، ولن يحرره من الجمود إلا تفاعلٌ ضمنيٌّ لا يهزهزه إلا التحسُّسُ النائم في الشعور، فيلملمه الى ما يشبه التقمّص، ثم ينقله الى الممارسة التي تحييه في جيوب النفس، ويمتد به التمادي الى الاعصاب المستفيقة بفعل الارادة. . .

ومع الوقت الذي يطول، تصبحُ الممارسةُ في عمق الأصالة. . والإصالةُ في حالة الفعل، والفعلُ في خضوعٍ آخر، يتصرَّف به المنطقُ ويُدْخِلُهُ الى حيثية التنفيذ الذي تعيِّنه الأمة من حقيقة الواقع.

ذلك هو الفهم في طرحه الأول. . . ولن تهتزَّ به الى حركةٍ وفعلٍ الا الممارسة المتمادية، كأنها المران الطويل، ولن يكون الفهم الذي تشاؤه الأمة فاعلاً فيها فعله الأكمل، إنْ لم يشمل الأمة كلَّها، وهي كما وصفناها وصفَهَا التام: كلُّ ما تحتويه الأمة: من أرضٍ، وخصبٍ، وانتاج، وبشر. . ومن تاريخٍ، وزمانٍ مضى، وزمانٍ تمتلىء به مآتي الغد. . . ومن تصاميمَ، ومناهجَ، وعلومٍ، وجامعاتٍ، وعقولٍ تولِّدُ الابتكارات التي تونع بها الانتاجات الذهنيةُ المعبّرةُ عن الحق، والعدل، وكل الاستقامات. . . وهي التي ـ وحدها ـ تبني المجتمع الأمثل الذي يشتاقه طموحُ الإنسان في فهمه الأكمل!!!

من توجَّه الى الأمة الوسيعة هذه، وراح يشرح لها هذا الفهم الموسَّع؟ لا معاوية ذهب حاملاً سلال الفهم، ولا السفاح، ولا المنصور، ولا هارون هذا جاءها حاملاً اليها شراع الفهم!!! أما الامام، فقد زجَّ مناشير الفضائل، والعلم، والغيظ المكظوم. . وحمل الضيم، والقهر، والصبر، ومشى يبشّر الأمة بالفهم. . . ولكنَّ صوته لم يبتعد الى أكثر من يثرب النائمة على جلدٍ وحصير!!! ولم يتمكَّن من الوصول الى بغداد إلا مبحوحاً ومقهوراً. . . وصل اليها ليعلِّمها كيف تُلَوَّنُ السجونُ المعتمة، بالصلاة والسجود! وكيف ننام في القبر، الى أن يرفعنا القبر الى متون القناطر!

أجل ـ من حمل الى الأمة الوعي والفهم؟ وأي منهج من المناهج، أو أية إرسالية من الإرساليات ـ أو أية إدارة من الإدارات ـ أو أي هدف من الأهداف ـ راح يجوب الأقاليم، في طول البلاد وعرضها، حاملاً إليها

الجامعات العلمية، والفكرية، والثقافية. . . وهو يشرح سبل الفهم، وسبل العلم، وسبل الحق، وسبل اليقظات الناطقة بكل الحقائق!!!

لم يحصل شيء من هذا، شمل الأمة كلها المحدودة فوق مفاسحها المتباعدة الأطراف، . . فكيف نطالب الأمة بفهمٍ فاعلٍ لم يصل اليها منه شيء بعد. . . لم تكفنا يثرب، ننشيء فيها جامعة، وننشر فيها علماً، ووعياً، وفهماً. . ولم تكفنا بغداد، نرفع فيها قصوراً، ونعتم فيها سجوناً تطفىء فينا البصائر. . . ولو فرضنا ـ أن الفهم كله قد حصل، من سيف البحر حتى الطلول من فدك. . . ولكنَّ الفهم ـ وإن يكن وسيعاً وسيعاً ـ يبقى في حيِّزٍ مفرد، ولا يجديه نفعاً غير الممارسات، وأقول الممارسات الطويلة والمستمرة. . . فهي التي تجلوه، وتحييه، وتصقله، وتتفاعل فيه الى ما لا يحدّ. . . أليس هذا هو الفهم الآتي من بحور العلم؟ ليبقى بلا موجٍ، حتى تتناوله الممارسات، فيعلو الموجُ، وتتلاطم به الريح، وتتناقله العواصف درراً من ذريرات الزبد!!!

ألا فلنتغنَّ بالممارسات، وبفعلها المحتك بالفهم الصامت، ولنستشهد:

ـ هل نفهم الصدق؟ ان لم نمارسه؟ ـ

والقراءة؟ فلنمارسها، حتى نعرف كيف نقرأ.

والحب؟ فلنمارسه، حتى تغتبط منَّا المُهج.

والمشاعر النبيلة؟ فلنغُصْ فيها ـ بالممارسة ـ حتى تسمو بنا العواطف.

والمواطنة؟ فلنمارسها حتى نبني بها تكاتفنا في الحياة السعيدة والمجيدة.

والحق؟ ألا يموت الحق ان لم نمارسه بلا انقطاع؟

والعدل؟ ألا يضيع العدل ان لم نتعشَّقه ونمارسه؟

والطهر والعفاف؟ كيف يبقيان لعيالنا في الستر والصيانة، وحقيقة الجمال؟ ان لم نمارسها في السرّ وفي العلن.

والإيمان بالله؟ كيف نبني به مجتمعياتنا الطاهرة؟ ان لم نمارسه بالصلوات، والمبرات، والخشوع المطلق...

والوطن الذي هو الأمة؟ كيف نعتبره إطارنا الخالد في الحياة، إن لم نمارسه بالصدق الكبير، والفهم الكبير، والإخلاص العميم؟

والآن؟ ماذا يبقى لنا غير أن نمارسك ـ أنت ـ أيها الإمام...

* * * * *

وأنت أيها الإمام

لقد بقيت لنا أيها الإمام ـ كأنَّك الإرث ـ تتلقط به الأمة هابطاً اليها من بين طيّات الغمام. . . فعلاً ـ انك الإرث أيها الإمام ـ ضَمَمْتَ فيه كل ذاتك: وهي فهمٌ عميق الحواشي، ما جمَّله إلا إطارٌ من خشب الصبر الشديد الصلابة، كأنه خشب الأرز المتشبّثة به متون القمم!

والإرث الباقي للأمة. . . لقد بقي لها مصمَّداً ـ من جيلٍ الى جيل ـ لأنها لم تنله منك إلا قيراطاً صغيراً مذ احتجزته السجون، فمنعته من الامتداد الى كل نظرٍ، وكل دسكرةٍ، وكل خلية نمت فيها نطفة إنسان!

والأمة أيها الإمام ـ ما امتدَّ اليها ـ بعد ـ هذا الفهم الذي كنت تُريدُهُ ـ أنت ـ لها في المنال ـ وبقي لك ممهوراً بالوشم. . . وكان الفهم عندك تبليغاً وفيّاً قائماً: بالعلم، والوعي، والحسِّ النامي بالمكارم، وبالأخلاق المتينة بالصدق، والحق، والعدل، وكل الفضائل الانسانية ـ المجتمعية ـ المزينة بالعفة، والحب، والإخلاص المنزّه من أي غبار!

انها صفاتك في الحقيقة الممتازة. . . عشتها ـ وجسَّدتَهَا فيك ـ قدوةً ـ ومثالاً ـ وقولاً ـ وفعلاً. . . واعتبرتها فهماً تنقله الى الأمة نقلاً حيّاً، فاعلاً

فعله في النفوس، فعلاً مستمراً، ومتحركاً، ونامياً، يا للممارسة!!!

ان العظمة فيك أيها الإمام ـ وهي الباقية في إطارك ـ إنك تناولت الفهم، ورحت تحييه بالممارسة... أما الصبر الطويل الذي اتشحت به ـ اهاباً ـ فهو الذي مارسته، وغدا وشماً لك، لا يزال باقياً لنا في الإرث الذي سيتعز به بقاء الأمة في انتظارها:

تحقيق الغد

* * * * *

وبعد الغد

وبعد الغد؟

لقد أفهمنا الإمام موسى مضامين الغد.

وأفهمنا ـ أيضاً ـ كيف أن الصبر يحلّ العقد.

وبعد الغد؟

يكون قد انتهى السجن المؤبَّد.

ـ وتأتي الممارسات.

وها هي الأمة ـ تحلو لها ـ ولاية العهد.

* * * * *

الفهرس

كلمة أولى ..... أ

كلمة الناشر ..... ب

كلمة اللجنة العلمية ..... د

مقدمة: بقلم الدكتور غالب غانم ٥

كلمة صغيرة ١١

كلمة التمهيد: أيها الامام المقهور الشعاع ١٣

الإطار الأول

مع الجذور

الانتظار ١٩

الرسول ٢٥

بنو طالب ٢٧

الامامة ٣٣

الامام زين العابدين ٣٩

الامام الباقر ٤٥

الامام الصادق ٥١

الاطار الثاني

مع موسى بن جعفر

الإرث ٥٩
تمهيد ٦١
مع الامام الكاظم ٦٣
موسى ٦٧
في الطريق ٧٣
وفي الجامعة ٧٥
وأيضاً قبل الرحيل ٨١
الموجز ٨٥
الحوار ٩١
المعضلة ٩٩

الإطار الثالث

الامام موسى الكاظم

الكاظم ١٠٧
مناجاة الكاظم ١٠٩
خط الكاظم ١١٥
مع المنصور ١١٩
مع المهدي ١٢٣
مع الهادي ١٢٩

مع هارون الرشيد ١٣٣
في مقابر قريش ١٥٣

الإطار الرابع

بعد الغياب

بعد الغياب ١٥٧
نداءات الإمام ١٦١
تراثه الفكري، الروحي، الاجتماعي ١٦٥
١ ـ رسالته في العقل ١٦٦
٢ ـ رسالته في التوحيد ١٦٩
ـ البداء ١٧٢
ـ الإيمان بالله ١٧٢
ـ العلم ١٧٣
ـ العمل ١٧٤
ـ مكارم الأخلاق ١٧٤
موسوية الإمام ١٧٧
ألقاب الإمام ١٨١
أولاً: الصابر ١٨٢
ثانياً: ذو النفس الزكية ١٨٤
ثالثاً: الكاظم ١٨٥
رابعاً: باب الحوائج ١٨٦
جسر الرصافة ١٨٩
حوار فوق جسر الرصافة ١٩٣

همس فوق جسر الرصافة ١٩٩
همس في أذن الرشيد ١٩٩
همس الهمس ٢٠٥

الخاتمة

خواطر ٢٠٩
فوق القناطر ٢١١
هارون الرشيد ٢١٣
والأمة ٢١٧
وأنت أيها الإمام ٢٢٣
وبعد الغد ٢٢٥
الفهرس ٢٢٧